

232

اميسان

1075

82

عبد العزيز آل سعود

ببينه

سيرة بطل ومولد مملكة

*[Handwritten signature]*



دار الطائفة المرزوقية



Handwritten text in Urdu script, possibly bleed-through from the reverse side of the page. The text is partially obscured by a vertical line on the right edge of the page.



صاحب المجلدات والمذكرات فيصل بن عبد العزيز آل سعود



ابو جابر الجعفی: الملک فیض بن عبد العزیز آل سمرقند

یا صاحب الجلال

انے طن عظیم فخر العالم، انے کانت فیہ الجزیرة العربیة. التی  
نشرت فی حنایہ الضیاء وکانت ظلاما. والهدی وکانه بعیش الضلالة.  
والحق وقد منقہ الباطل. والایمان وکان لا روح تدرك  
ولا ضمیر بحاسب.

وهذه الجزیرة. التی اعطت فأختت وابتعت. ما لبثت ان  
هارت علیها الاحزان. وقسا علیها الزمان. ثم نادى الله ان  
تفسر لها الاول من الهدی والحق والایمان. علی يد جبرئیل  
الطییب، سعور اللبیر ومحمد بن عبد الوهاب الامام. ثم اربت نعلت  
الحق ضیاء، وسرى سيف العرالتی ضیاء، علی ساعدی الریح  
الفد والدک العظیم. الذی تحوی لفظ الصفوات ملحمته میاتت  
والذی ولدت فی شمس المملکت اللبیر لتسامی من بعد  
فی ذی مجدک. وتضیئ نور عقلک. وتمثل دورک  
لمجید علی بمناک التی فیها مؤن العین وخالص الخیر لدنیا  
العروبتی وعالم الاسلام.

وبلاد العربیة والاسلام، یا صاحب الجلالۃ۔ تاجیر  
 ایوم من ذہیل العقائد، و شعوبیۃ المبادئ، من ہد القیم  
 الانسانیۃ، و تشریح المفہم الروحیۃ، وقد کان اسخ ایمانک  
 جواب ذالک النذار، و کانت صدایۃ موقفک دفع ذلک البلاد،  
 اعداء لرائع الحق، و رفقا اعلام الہدی، و انصاراً للرامۃ  
 الانسانیۃ، بالعلم لا بالاضعیج، و بالتقید لا بالادعاء، وان کان  
 منک القول فزور مع الصدق للنہج الخاتم والضمیم البنار، فی  
 سیرۃ لا تصدق لھا الا تفسیر طاقات الاسلام، و توسیۃ عربی  
 العربیۃ، فکان سبیلک فی عمل الامانۃ، سبیل القادرۃ  
 المؤمنین والرائدین الصادقین الصابرين، وغرت بل الامان  
 سرفۃ بعد یأس و اترت الیک قلوب المؤمنین فی اہواء الارض.  
 فاقبل، یا صاحب الجلالۃ، لہذہ الصفحات الیۃ کان فی  
 فخر تقدیمہا بجلۃ عربیۃ، وفاء للبطل الراء، و ولاؤ لمن تابع  
 النہج و عمل المشعل و لہدی الی الطریقۃ

عبدالفتاح یاسین

فی ۲۵ محرم ۱۳۸۵

الموافق ۲۵ ایا ۱۹۶۵

عبد العزيز آل سعود  
سيرة بطل ومولد مملكة

58840



## مقدمة

« يا طويل العمر !

منذ عهد الخليفة عمر حتى بداية عهدكم السعودي ، لم يسعد العرب بمن يجمع شملهم ، ويوحد كلمتهم ، ويعزز شؤونهم فيجعلها تحت السيادة التي فيها الخير الأكبر للجميع ، اي السيادة العربية الواحدة .

« كان في بني امية معاوية ، وفي بني العباس المأمون ، وفي الايوبيين صلاح الدين . ثلاثة من عظماء العرب ، بل من عظماء الرجال في التاريخ العام ، ولكنهم وان وصلوا الى ذرى المجد ورفعوا اعلام العرب في اقاصي البلدان ، لم يتمكنوا من بسط سيادتهم على شبه الجزيرة كلها ، ولا كان يهمهم العنصر الاكبر فيها ، اي البدو ، الا كحطب للحروب .

« ما استطاع الامويون ان يوفقوا بين القيسية واليمانية في الشام ، ولا استطاع العباسيون ان يبسطوا نفوذهم حتى على عشائر الاحساء ، وما فكر صلاح الدين على ما يظهر في تحسين احوال البدو ونزع العداوات المتأصلة بينهم .

ولت الالف والثلاثمائة سنة وهؤلاء العرب لا يزالون كما كانوا ، وما غير الزمان شيئاً في احوالهم المدنية ، او بالحري البدوية ، ولا عمل فيهم عامل من عوامل التطور الاجتماعي .

« الف وثلاثمائة سنة ، حتى كتب لهم بعمر ثمان مئة اليهم بعبس العزيز بن سعود ، ليجمع شملهم ، ويوحد مقاصدهم ، ويعزز جانبهم ، ويؤسس ملكاً عربياً هو منهم ، وهو فيهم ، وهو لهم .

« يا طويل العمر !

« ان ما قتم به من تحضير البدو وتأسيس الهجر لمن اجد مآثركم القومية ومن خيرا اعمالكم الاصلاحية ! »

بهذه الكلمات النابضة حتى لكأنها خلجات القلب ، قدم فيلسوف الفريكة امين الريحاني كتابه : « نجد وملحقاته » الى الملك عبد العزيز ، مشيداً باعجوبته المثلى وآيته الكبرى في جمع شمل الجزيرة وتوحيد مقاصدها واحلال الامن والاستقرار في ربوعها ، وقد تثلت دون ذلك سيوف بني امية ، واخفق الدهاء العباسي ، وقصرت همة الايوبيين ، وانكفأت جيوش بني عثمان ... فاذا برجل واحد ، هو عبد العزيز بن سعود ، يقوم لها بثلة من الرجال هم اقل من القلة ... فيقتحم التاريخ بدولة فتية اسلامية عربية هي : المملكة العربية السعودية ... فكانت اول كيان مستقل فعال يظهر في عالم العروبة والاسلام ! ...



وكيف لا يكون الملك عبد العزيز ملء عين الزمن وشاغل خاطر الدهر ، وهو اول ملك عربي ، شاء الله ان يكون على فخار نجاره وكرامته ، كثير هموم الفتوة ، مشرد اول عهد الشباب ، لا يملك غير قلب كبير مضم بالايان ، وغير ارادة كأنها هي ومشيئة الله على ميعاد ، يعيش طويل الايام في الفيافي ، ويقضي مديد الليالي في المهامه التي يضل فيها العقل وتزوغ معها الروح ويخرج بها الصدر ، فتصقله التجارب ، وتعلمه الاحداث ، ثم لا تكون تلك الارادة الفولاذية الا السيف يستله بيمينه ويضرب به ، فيسدد القدر ضرباته ويوجه الايمان خطواته .. ذلك لأن السيف في يد البطل الرائد لم يكن سيف مغامر ينشد الحكم ويطمح الى السلطان ، وانما كان سيف رجل مؤمن يجاهد عن عقيدة سامية وينزع الى غاية رفيعة ... سيفاً عربياً اسلامياً اصيلاً لا يظلم ولا يبغى ... ولا يهتز في كف



صاحبه الاذوداً عن راية التوحيد ، واعلاءً لكلمة الله ، شعاره احقاق الحق وازهاق الباطل ، وغايته ادالة دولة البغي ، وتقويض اركان الظلم ، وهمه تنقية العقيدة السمحاء بازالة كل بدعة ، وابطال كل شبهة ، ودحض كل فرية ، حتى تعود للاسلام نقاوته الاولى ، وصفاءه الذي لا شائبة فيه ... ذلك كان شأن آل سعود في تاريخهم الحافل ... فما عرفت دعوة التوحيد ، منذ عهد الاسلام الاولى ، مثل آل سعود ، مناضلين في سبيلها ، مجاهدين من اجلها ، يقاتلون ويُقتلون ايماناً بها ، لا يهادنون فيها ولا يهاودون ، ولا يجنون ولا يحابون .



ومن مآثر الملك عبد العزيز انه اول حاكم عربي يرمي ببصره الى ما وراء حدود بلاده ، باسطاً يده الى نصره كل قضية عربية ومؤازرة كل نضال اسلامي . ويشهد تاريخ العرب الحديث على ان الحركات الوطنية التي عرفتها البلاد العربية في مشرقها ومغربها مدينة للملك عبد العزيز بما قدمه لها من عون معنوي ومادي كان له اكبر الأثر في نجاح تلك الحركات ، فكان المجاهدون العرب في المشرق والمغرب ينهدون اليه عند كل ملمة ، ويستشيرونه في كل مشكلة ، ويستنجدون في كل خطب ، فيجدون فيه الاب والآخر والصديق ، كما يجدون فيه المعلم الكبير في ممارسة الكفاح ومعالجة الاحداث ، ويرجعون من لدنه ، وهم اكثر ايماناً واشد ثباتاً واعظم تبصراً ، وارسخ قدماً في النضال ، واصدق صبراً على الاهوال .

وهكذا تحولت « الرياض » في عهد الملك عبد العزيز من بلدة ضائعة في غمار الصحراء ، الى عاصمة للعرب اجمعين ، فاصبحت قلب العروبة النابض وروحها الحي ، كما غدت الجو الذي يجتمع في ظله الشمل المؤمن ، وتترعرع في حناياه البيئة الطيبة التي تبعث فيها الفتوة العربية ومكارم الاخلاق ... ذلك كله في قطعة من الصحراء ردت البيداء قياً علياً ومثلاً فضلياً ، واعادت سيرة

الفاروق عمر حية اصيلة وعربية كريمة بعد الف وثلاثمائة ونيف من السنين ، مشياً على رقاب العصور ، وتخطياً للزمنة والدهور ، في شخص البطل الفذ الذي لم يحمل السيف في يده مرة ، الا وحمل القرآن في اليد الاخرى ، وما عالج شؤون العصر بروح الوعي والتطور ، الا وهو يتمثل آيات الرسالة الخالدة ومناهج الاسلام السامية .



اذا كانت البطولة مثلاً يهدي به الله الناس فلا يظلمون ولا يُظلمون ، فقد كانت حياة الابطال وما زالت تلهم العبقريات ، وتوحي بشريف الكلمة ، وتهز الضمير الحي ، وتعلم بالسيرة الحافلة والقذوة الحسنة ، واذا كان الغربيون قد دأبوا على نشر تراجم اعلامهم وابطال تاريخهم ، ليتخذ الناشئة منها قدوة ومثلاً ، فانه لأحرى بنا نحن العرب في جميع ديارنا ، وليس في العربية السعودية فحسب ، ان نعكف على دراسة حياة الملك عبد العزيز وهو البطل الذي لا تجود بمثله الجزيرة العربية ، وهي منبت الرجال ومصنع الابطال ، الامرة واحدة خلال عدد من العصور ، وان ننشر وقائع حياته ومواقف بطولته لانها من خير ما يعلم ويرشد ويهدي الى الحق والخير ...

الا وإن سيرة الملك عبد العزيز غنية بالعبء ، مليئة بالعظات ... الا وإن من ابلغ عبرها وعظاتها ان من يتسلح بالايمن ، وبالارادة ، وبالصدق ، قولاً وعملاً ، يستطيع ان يصنع المعجزات ... ومن احرى منا ، نحن ابناء هذا الجيل في واقعنا الحافل بالأحداث والأخطار ، باتخاذ سيرة الملك عبد العزيز ، في ايمانه الراسخ ، وارادته الحديدية ، ودأبه المتواصل الذي لا يمل ، وصدقه في المطابقة بين اقواله واعماله ... القذوة المثلى والشعلة التي تنير لنا الطريق ...





وفي هذا الكتاب، الذي الفه عن فهد الجزيرة علم من اعلام الفكر في الغرب ،  
ملامح معبرة من صورة الملك عبد العزيز وخطوط بارزة من سيرته ، ومواقف  
مشهودة من بطولته ، ولكنها ليست كل الملامح والخطوط والمواقف ... لأن  
حياة الملك عبد العزيز اكبر من ان يحيط بها كتاب واحد ، واروع من ان  
ترسمها ريشة واحدة ، وابلغ من ان يعبر عنها قلم واحد مهما تفرج له من  
جوانب البيات ..

رحم الله الملك عبد العزيز ...

ان من بنى للاسلام دولة .. وجعلها مصدر خير ويمين لبلاد العروبة  
والاسلام ..

وان من سان بيت الله وطهره للطائفين والعاكفين والركع السجود ..  
وان من أنجب للعرب والمسلمين كفيصل ..  
فان له من الله الرحمة ، وله من ربه الرضوان .

عبد الفتاح ياسين





الجزء الاول  
العرب بين الحركة والجمود  
(... قبل الميلاد - ۱۸۱۰ ميلاديه)



عندما نستعرض شبه الجزيرة العربية في خيالنا ، فانه ليصعب علينا ان نتصورها غير كتلة صحراوية من الحجارة والرمال اشبه ما تكون بجمرة تفتى وثيدة ، تحت شمس محرقة ، وهي ، خلافاً لكثير من أقطار العالم ، بلاد حرمت فيها الأرض من دورها الاولي فاستأثر به النور والسماء ، فتبدو وكأنها عالم جبل من جوهر غير مادي ، ذو آفاق اقرب الى الخيالات المتراقصة المنبعثة من اجيج النار منها الى المناظر الطبيعية المألوفة .

ومع ذلك ، فانها لم تكن دائماً كذلك ، لأن المؤرخين يؤكدون لنا ان الجزيرة العربية كانت في العهود السحيقة بلاداً خصبة خضراء ترتوي بأنهار كثيرة وأقليا زاهيا تطرد فيه المراعي والغابات ، يوم كانت اوروبا لا تزال دفينه يلفها كفن العصر الجليدي الأبيض .

كيف كانت الحياة في هذه الجزيرة العربية ، ايام نضارتها ووارف اشجارها وخرير ينابيعها وسط الغابات ؟

اننا لا نعلم شيئاً ولم يصلنا اي دليل عنها . ولكن مما لا شك فيه ان حياتها الحيوانية كانت شبيهة بتلك التي نراها في الهند وافريقيا ، اذ تشكل الجزيرة العربية صلة الوصل بينها ، ولهذا يفترض انها كانت موطناً للماموت ، والابقار الوحشية والجواميس والغزلان والنسور والفهود .

ولكن ذلك كله قد انقرض الآن .



ف عندما انحسر الجليد نحو الشمال ، خرجت اوروبا من سباتها وتفتحت على الحياة ، فيما اخذت الشمس تلتهم غابات الجزيرة العربية وتحوّلها الى صحراء . فتساقطت الاشجار رماداً وندرت الأمطار وجفت الانهار بامتداد الحريق شيئاً فشيئاً وجاءت الرياح ، التي لم يعد يعترضها عائق ، رياح الجنوب الرهيبة ، تغطي مراعيها بطبقة متموجة متنقلة من الرمال .

وبقيت الامور على حالها عدة آلاف من السنين ، وقامت على اطراف شبه الجزيرة العربية حضارات لمعت كالشهب الخاطفة وتألقت في اوج سموها ، وسطعت بنور باهر ثم ما لبثت ان اندثرت .

وتلاحق التآلق والانذار في سرعة جعلت الاجماد تضمحل حبال الاحساس بالضعف وقرب الانهيار .

بمالك عظيمة نشأت هكذا وانقرضت : فالى الشرق ، على ضفاف دجلة والفرات ، توالى اجماد اور وبابل ونيوى والمدائن ، وحول هذه الحواضر المترفة تعاقبت امبراطوريات السومريين والاكاديين والاشوريين والفرس ، وزالت الواحدة تلو الاخرى ، مخلفة في اعقابها سلسلة من المدن الميتة ، تعكف الشمس على تدوير معالم اجمادها . والى الغرب في وادي النيل نهضت مصر الفراعنة ولفت قمة عظمتها حول مدينتي طيبة وممفيس . ثم اضمحلت بدورها وما عاد يسمع في ارجائها غير نعيق البواشق تحوم فوق خرائب المدافن الملكية . والى الشمال على شواطئ المتوسط برزت وازدهرت دولة الفينيقين وامبراطوريتا الاغريق والرومان .

أما الجزيرة العربية فقد بقيت في معزل عن هذه التيارات ، منطوية على ذاتها ، يلفها الجمود والصمت ، في قطيعة مع الزمن والتطور والتاريخ . ولم يكن في استطاعة العالم المتحضر آنذاك ان يخترق ستار اللهب الذي كان يحجبها عن الانظار . ولانها كانت مجهولة ، فقد كان يُظن انها بلاد سعيدة . والقليل الذي

كان معروفاً عنها سطحي ومتناقض. وبين الفينة والفينة كان يسمع في صور او في بيلوس حديث تاجر يحمل اليها من الهند المجوهرات والعاج والتوابل يعبر عن اعجابه بالممالك التي اجتازها في رحلته ~~موصف~~ في حماسة المدن المتوارية خلف رمال الصحراء ، فكان بعض الكتبة والعلماء يتلقف هذه الاساطير ويمررها ، دون ان يحصها ، ، بنخاتم شهرته . وهكذا نرى الجغرافي بطليموس يحصي في « العربية السعيدة » وحدها مئة وسبعين مدينة محصنة ، بينها ست حواضر وخمس مدن ملكية .

وفي العام الرابع والعشرين قبل الميلاد ، صتم الامبراطور اوغسطس على تحري ما تنطوي عليه هذه الاساطير من حقائق ، فعهد الى والي مصر آيليوس غالوس باجتياح شبه الجزيرة للاستيلاء على الحصون التي كان الرواة يشيدون بثرائها . فعباً الوالي كتابته وامر الجنود ان يتدرعوا بدروعهم النحاسية الثقيلة ، وتوغل على رأسهم في قلب بلاد العرب . فما لقي سوى ارض قاحلة كثيبة ، تسكنها قبائل متوحشة . فقد هلك معظم الجيش ظمأ اثناء الحملة ، وصرع القيظ والارهاق الفلول الباقية . وتركت الاشلاء مكدسة بالئات فريسة للجوارح . وممر بها عرب البادية بعد بضعة اسابيع فألقوها شبه مدفونة في الرمال ، هياكل عظمية ما تزال ايديها قابضة على السيوف .

عدلت روما بعد ذلك ، بناء على نصيحة آيليوس عن محاولة اخضاع شبه الجزيرة العربية ولتثبت بالتالي بلاد العرب ممتعة المنال ، في عزلة عن العالم ، لانها اقليم جاف قاحل غير صالح للحياة ، وبلاد عاسفة قاسية ، يقطنها شعب لا يقل عنها قسوة وعسفاً .

هناك ، حيث يوجد قليل من الماء : ماء بشر مستديرة في وسط واحة او على الشطآن ، استطاعت بعض القبائل ان تبني لها قرى صغيرة من اللبن والقش ، فيما كان سواها يعاني شظف العيش يرعى قطعاناً هزيلة وراء كلاً اكثر هزالاً

فتراهم شعثاً جياًعاً بعيدين عن اية حضارة ، انما ثروتهم الوحيدة حيوية نابضة في عروقهم وسبعة المدى شأن كل ما تبثه الصحراء من انفعالات في قلب الانسان .

٢

ان الصحراء ليست هامة وخاوية الا بالنسبة الى الذين يجهلون اسرارها . فخلال هذا الاطار الجامد المتحجر ، حيث يبدو ان شيئاً ما لم يتحرك منذ بدء الخليقة ، كان سيل من البشر يمضي بطيئاً ، انما دون انقطاع ، في هجرة تبدأ من اليمن ، في الزاوية الجنوبية - الغربية من شبه الجزيرة العربية ، ليته في الشمال الشرقي ، في المناطق الاكثر خصوبة في سورية وما بين النهرين .

كانت نسبة المواليد منخفضة والوفيات مرتفعة في المجتمعات المدنية المستوطنة حوض البحر الابيض المتوسط ، مما سهل على مدنها استيعاب الهجرة الريفية المحلية . ولم تكن ثمة حاجة بالقرويين المهاجرين هناك للبحث عن اوطان بعيدة اخرى لتأمين وسائل حياتهم ومعيشتهم .

ولكن الوضع كان مختلفاً جداً في الطرف الآخر من شبه الجزيرة العربية ، في اليمن ، حيث التربة اقل جفافاً والأمطار اكثر غزارة ، مما اتاح للقوم ان يمارسوا الزراعة في عهد مبكر ، فتزايد لذلك عدد السكان سريعاً . ولما لم يكن بالامكان زيادة مساحة الاراضي المزروعة ، ولم تكن هنالك مدن او حرف تمتص المزيد من السكان ، فقد نجم عن ذلك تضخم ، لم يعد بوسع البلاد ان تتخلص منه الا بترحيل الفائض من البشر الى الخارج .

ولم يكن في وسع المهاجرين عبور البحر الأحمر لتعمير افريقيا . فالسودان الذي يواجه اليمن ، صحراء اشد جفافاً من الجزيرة العربية ، كما لم يكن في



وسعهم سلوك طريق ساحل البحر الاحمر الذي تحتله شعوب غريبة مصممة على ان تقاوم بضاوة كل محاولة لعبور اراضيها .

كانوا اذن مرغمين على التوغل في الرمال ، في زحفهم نحو الشمال - الشرقي .  
وليس امامهم من مخرج غير الصحراء .

فائض من البشر متزايد في اليمن ، فرضت عليه الهجرة تحت ضغط كثافة عدد السكان ، فراح يدفع في طريقه القبائل الصغيرة الاضعف المقيمة عند اطراف الاراضي اليمنية المزروعة ويحملها على الهجرة بدورها والانحدار الى الوديان المؤدية الى اواسط شبه الجزيرة العربية ، ويرغمها على ان تتخلى ، على الدوام عن الينابيع الغزيرة ، والواحات الخصبة ، الى آبار مياه شحيحة وواحات فقيرة . فلا تجد هذه الجماعات بدأ من الانصراف الى رعاية الماشية والجمال ، عندما تجد نفسها مبعدة الى مناطق تستحيل فيها الحياة الزراعية .

ولم يكتب مع ذلك ، لهذه القبائل التي تحولت الى جماعات من الرعاة ، ان تستقر حيث اراد لها القدر في واحاتها البائسة . بل اضطرت الى ولوج الصحراء تحت ضغط الهجرة البشرية المتزايد من اليمن الذي كان يدفع بها دائماً الى الامام . « ان بقايا هذه القبائل المتناثرة - كما يحدثنا لورانس - ما زالت موجودة حتى الآن ، متمثلة في بعض العشائر المعزولة ، والقبائل التي يمكن تتبع آثار هجرتها منذ الزمن الذي بدأ فيه اليمن يكتظ بالسكان . فالأودية بين مكة والطائف طافحة بذكريات خمسين قبيلة رحلت عنها ، وخلفت آثاراً باقية حتى الآن : في نجد ، وجبل شمر ، حتى تخوم سورية وبلاد ما بين النهرين . من هنا يجدر التنقيب عن نقطة انطلاق الهجرات العربية ، عن مصنع البدو الرحل ، عن المنبع البشري الهائم في الصحراء ، » (١) .

١ - لورنس في « اعمدة الحكمة السبعة » .

لم ينقطع الدفق البشري ، لأن تزايد عدد السكان في اليمن لم يكن عرضاً عابراً . وظلت الصحراء تستقبل على الدوام جماعات من اللاجئين ، حتى ان اواسط شبه الجزيرة العربية - مع ما في ذلك من غرابة - قد عانت ، هي الاخرى ، من ازيمات تكاثف السكان ، ونجمت عنها اضطرابات واشتباكات بين القبائل الساعية الى ولوج الصحراء لتضمن حقها في البقاء .

الى اين كان في وسع هذه القبائل ان ترحل ؟ فالجنوب منطقة مغلقة ، ومغالبة التيار أمر مستحيل ، واختراق الحجاز لم يكن مأموناً لأن المسالك الوعرة التي تشكل الواجهة الداخلية لهذه المنطقة « أهلة يقوم يفيدون الى اقصى حد من مواقعهم الدفاعية الحصينة » (١) .

بقيت واحات نجد الوسطى حيث اتجهت القبائل التائهة . لم يكن في وسعها احتلال هذه الواحات لافتقارها الى المحاربين الاشداء ولأن الصحراء استنفدت قواها ، فالفت نفسها مدفوعة تلقائياً نحو الشمال ، بين منحدرات الحجاز ، ومنخفضات الاحساء .

واستمر الضغط ، وواصل الزحف البشري سيره نحو الشمال ، جارفاً تلك القبائل على طول خط الواحات الصاعد من وادي السرحان الى الجوف فتدمر ، حتى أطراف سورية وبلاد ما بين النهرين ، الى ان وجدت هذه القبائل نفسها مضطرة ، بحكم الظروف وتحت ضغط البطون الخاوية ، الى تربية المواشي ، والى زراعة بعض الشعير لأطعام الماشية ، فانفصمت بذلك عن حياة البداوة ، وتحول البدو الرحل الى مزارعين مقيمين اتحدت مصالحهم مع مصالح المزارعين الاولين واصبحوا يعانون مثلهم من ضغط الهجرة البشرية الوافدة من الصحراء ، ويبحثون معهم عن الوسائل الكفيلة بحماية المكاسب التي غنموها والاراضي التي

١ - لورنس : « اعمدة الحكمة السبعة » .

تلكوها . وهكذا امتزج البدو الرحل رويداً رويداً بالبيئة الجديدة ، وراحت  
تتكسر حول دمشق امواج الهجرة المتدفقة من جوار عدن .

ان الضغط البشري الذي شرد العرب عن ديارهم وارضهم وقذف بهم الى  
الصحراء ، عاد فأخرجهم من هذه الصحراء ليحولهم الى مزارعين مقيمين . انهم  
جميعاً ، دون استثناء ، مروا من هناك . وما من اسرة عربية في الشمال الا وقد  
عبر اسلافها او اسط شبه الجزيرة العربية في حقبة ما من حقب التاريخ ، فاتسمت  
من هنا بطابع من الترحل ، يشتد بروزه ، تبعاً لطول المدة التي قضتها في  
الصحراء .

٣

وبقدر ما نتوغل في تاريخ شبه الجزيرة العربية ، فأنتنا مقتفون آثار ذلك  
السيل البشري المتدفق دون انقطاع من الجنوب الى الشمال فهو العمل  
الاساسي في الحياة العربية كلها . يحدد ويوضح كل واحدة من ازماتها التاريخية  
الكبرى . انه هو الذي صقل الحياة في منطقة من العالم كان الوجود يبدو فيها  
لاول وهلة متحيزاً ، وصدى وانمى حيوية سكانها ، وفرض طبعه على قوى  
عنصرية ، اطلقتها ظروف غير مؤتية عبر الفراغ ، فعملت الصحراء وئيدة على  
صقلها وتحويلها الى طاقة متألقة ، ثم صنعت من مادتها الخام العناصر الانسانية  
الاكثر نضجاً في العالم العربي : المحارب والشاعر والتاسك .

لم يتعرض الجنس البشري في اية بقعة من العالم ، مثل ما تعرض له في جزيرة  
العربية من ظلم الطبيعة الشديد وعنتها المرهق ، وانفعالاتها العنيفة . لذلك كانت  
الصحراء بالنسبة الى الانسان العربي المكان الذي يتحرر فيه من مشاكلة الخائفة ،  
وحيث كل ما يظالعه هنا في هذه الصحراء يبعث فيه الفخر والاعتزاز بلانته  
الى مملكة البشر . هنا تتعدم المزاحمة والمنافسة بين الانسان وسواه من



المخلوقات . فلا حيوان يغافل المرء وينقض عليه ، ولا شجرة يمكن ان تخفي وراءها خطراً ما ، والسكينة والوحدة تلتفان الأعصاب المتوترة . أي نفع للملكية هنا وهل من يتلف اليها ، عدا ملكية الدابة التي يتنقل عليها الانسان ، و عدا بعض الحاجيات الضرورية البسيطة . الانسان هنا وحده مع اخوانه ، فوق الأرض التي تكونوا عليها ، وجها لوجه امام اعظم روائع الخالق : الشمس والقمر والنجوم . ان جمال الفجر الذي لا يفني به وصف ، وسحر الغسق ، وبريق النجوم ، كلها هتافات تشيد كل يوم بقدره الخالق .

يبدو حب الصحراء أمراً خارجاً عن المنطق ، ولكن غريزة الانسان الفطرية لا تقوى على مغالبتها . وما استطاع انسان عرف الصحراء فترة ، نسيان ذكرها فيما بعد <sup>(١)</sup> .

ان الصحراء لا تكتفي باجتذاب الانسان ، بل هي تصوغه مجدداً وتحوله . فالصحراء اعظم من ان تساوم . انها لتستولي على الانسان في كليته ، ولا تفك قبضتها عنه الا وتكون قد قلبته رأساً على عقب . حتى ان الغريب الذي يمر بالصحراء مروراً عابراً لا بد له من ان يخرج منها انساناً يختلف عما كان ، فلا ينسى ابداً ، أية كانت تقلبات الدهر عليه في ما بعد ، الزمن الذي عاشه فيها ، بل يستبد به الحنين اليها حتى آخر يوم من حياته <sup>(٢)</sup> .

فكم بالاحرى اذن ، ان يرسخ طابع الصحراء على القبائل الهائمة التي قدر لها ان تحيا فيها طيلة قرون ، فاذا بهذه القبائل ، بعد خروجها من اليمن ، سرعان ما تنسى ذكرى وطنها الأبول ويضمحل من ذاكرتها كل شيء ما عدا الصحراء ، فلا تعرف لها وطناً سواها . ثم تبدأ مرحلة التحول والتكيف شيئاً فشيئاً في

١ - جيرالد دوغوري : « العنقاء العربية » .

٢ - لورنس : « اعمدة الحكمة السبعة » .

النفوس والاجساد ، فينقلب هؤلاء المزارعون الخاملون الى محاربين اشداء .  
 فوارد العيش في الصحراء ضئيلة ، والقبائل عديدة ، والتزاحم على الحياة ملح لا  
 يعرف الشفقة . ويصبح المستقبل في هذا الآتون ، حيث لا يمكن الحصول على  
 شيء الا بالعنف أو الحيلة ، ملك من هو اكثر قوة واشد بأساً . ان طبيعة  
 الأمور تؤول الى تنظيم حياة البداوة وفقاً لسلم قيم ، قتها « المروءة » ، وهي  
 مزيج من النبل والرجولة في الانسان ، فيضحى المجتبي فيها رأس القبيلة ، لأنه  
 اكثر من فيها قدرة على تخليدها . فقوة صلبه تعوضها ما يحصده اموت الذي  
 يفتك بها ذريعاً ، وبأس ساعده يشق امام رفاقه السبيل الى الواحات . فالقبيلة  
 التي لا « مروءة » فيها لا يُقدّر لها عيش ، فهي اما ان تنقرض جوعاً أو نسلأ أو  
 ان تسترق لسواها من القبائل الاصلب عوداً ، وهي حالة اشد سوءاً من الانقراض .

وكانت للسلاح دوره الهام ، في ذلك العالم البدائي الشرس ، موطن الجوع  
 والموت ، فتوطد نوع من الصلة الرمزية بين السلاح واليد التي تحركه ، سواء أكان  
 المحارب هو الذي ينقل خصائصه الى سلاحه ، ام كان السلاح هو الذي يبعث  
 القوة في نفس المحارب . وكان السيف يرمز الى الصبر والجلد بصلابة فولاده  
 وقدرته على التحمل ، والى المهارة بانصقاله ، والى الظهارة بيريقي فولاده الصلب  
 العاري : وحدة قائمة بين المادة والروح ، بين السيف واليد التي تستخدمه ، حتى  
 اصبح الفصل بينها نوعاً من الانتحار ، وحتى اصبح الجبان الذي يفقد سيفه  
 ضعيفاً غير مهيب ، فاقداً بين قومه كل اعتبار . وقد يلفظ هذا المحارب الخائب  
 من مجتمعه ، فتأنف اية قبيلة من تبنيه ، وليس هناك ما يحق بالبدوي افدح من  
 حرمانه من الانتساب الى احدى القبائل ، فيمسي بذلك شريداً خارجاً على  
 العرف محروماً من الحماية والرعاية .

وهكذا كانت تجري ، جيلاً بعد جيل ، عملية انتقاء صارمة للعناصر الفضلى ،  
 يضحى فيها بالضعفاء لصالح الأقوياء ، وترفع الى مقام القيادة والزعامة الرجال  
 الأشد حيوية وشجاعة وابداعاً .

وكانت القبائل التي حتمت عليها ضرورات العيش ان تتحارب وتتصارع،  
تتحسس رغم كل شيء لروابط القربى فيما بينها .. قربى اللغة الواحدة التي  
تتخاطب بها والتي هي مصدر اعتزاز كبير لها .

ولكن هذه اللغة نفسها وبالأأسف قد تشعبت في اتجاهات متباينة ، تباين  
السبل التي سلكها كل من القبائل . عثرتان من بطن واحد باعدت بينها حياة  
البداءة زمناً طويلاً ، تلتقيان حول بئر او مرعى ، فتجد كل منهما نفسها عاجزة  
عن التفاهم مع الاخرى ، حتى ان محاربي الحجاز والاحساء بدأوا لا يفهمون ما  
يقوله محاربو حائل . فكان ذلك مبعث أسى للعرب الفخوريين بلغتهم والحريصين  
تبعاً لذلك ، على ان تكون مفهومة وواضحة لدى جميع اهل الجزيرة العربية ،  
والمدركين ان اختلاف اللهجة واللغة عقبة تحول دون اتساع رقعة مجدهم .

ولكن الصحراء التي صاغت الرجل المحارب ، كونت بالمثل الانسان الشاعر  
وبوآته مكانة سامية ، بين قبائل متعطشة الى سير البطولة والاساطير ، فأصبح  
الشاعر حكماً في الخلاف بين العشائر على استعمال كلمة أو لفظها أو تصريفها  
ومرجعاً في تصويب اللغة .

فاستقامت بذلك شيئاً فشيئاً قواعد لغة موحدة بين العرب الذين هم اشد  
الناس تأثراً برقة الكلمة والعبارة بين جميع شعوب العالم . فما من لغة في العالم  
ذات سحر يسيطر على المتخاطبين بها كسحر اللغة العربية على أبنائها . وما زالت  
للشعر حتى الآن منزلة خاصة في الجزيرة العربية وفي دمشق والقاهرة وبغداد ،  
وللاوزان وقعها الأخاذ في النفوس ، رغم ان الكثيرين ممن يتلى عليهم ذلك  
الشعر قد لا يفهمون كل معانيه اللغوية الفصيحة .



ومن هنا تجدر الإشارة الى ان مظاهر الوحدة واعراضها كامنة في اللغة العربية قبل أي شيء آخر . وما كان سوق عكاظ حيث تتهادن القبائل ، ويلتئم شملها من كل حذب وصوب للاستماع الى قصائد أفضل الشعراء ، والترنم بها ، وانتقاء اجودها ، إلا مظهراً من مظاهر تحسس العرب بالشعر واللغة . وكانت الهدنة تنتهي بانتهاء سوق عكاظ فتعود القبائل الى خصوماتها ومنازعاتها وحروبها . ولكنها تعود ايضاً حاملة تراثاً مشتركاً من اللغة والأدب ، ولا تتردد في تناسي أحقادها وتوحيد صفوفها دفاعاً عن ذلك التراث .

نزلت الدعوة الى دين الله الواحد الأحد الفرد الصمد ، يحملها نبي محمد بن عبد الله ، فأنتفى بذلك جهل التعبد ، وجاهلية عبادة السيف والأصنام ، واندثرت الوثنية على ضربات سيف الرسول وصحبه الأولين . وقاد النبي محمد بعد ذلك أمة موحدة من خيرة المؤمنين المحاربين الى أقاصي الدنيا نثر رسالة الاسلام ، في حملات متلاحقة كالأعصار ، أو أشد اندفاعاً ، حتى ادركت جحافلها جبال « حملايا » ودقت ، في مقاطعة « بورغون » ، أبواب فرنسا .

لم يعرف التاريخ فتوحات تحققت بالسرعة التي تحققت فيها الفتح العربي ، هادراً كالعاصفة ، مقتحماً كل ما كان يعترض سبيله ، فترامت الامبراطورية خلال فترة لا تزيد على مئة وعشرين عاماً ، الى مسافات تبعد ١٢ الف كيلومتر عن مركز انطلاقها في الشرق : امبراطورية لم يحقق مثلها « داريوس » ولا « الاسكندر الكبير » . وأصبحت الدعوة الى الاسلام قبلة العالم ومحط نظاره <sup>(١)</sup> .

ولكن الدورة الدموية في جسم الامبراطورية العربية بدأت تختل في الوقت الذي كان فيه علماء الامبراطورية العربية يكتشفون لأول مرة مجرى الدورة الدموية في جسم الانسان .

١ -- هنا يتبسط المؤلف في سرد تاريخ الاسلام وانتشار الدين الحنيف ومن ثم الفتوحات وقيام الامبراطورية العربية .

ولم تعد الجزيرة العربية ، قلب الامبراطورية ، تدفع الدماء الى شرايين الامبراطورية ، وفقدت القبائل التي تطايرت الى شتى انحاء الدنيا كل صلة بمركز انطلاقها وغرقت في ترف بغداد والقاهرة ودمشق والأندلس ، فأضعفت حياة البذخ حيويتها وقوة ايمانها الذي فجرته الصحراء رسالة وامبراطورية وحضارة باذخة استقطبت ملايين الشعوب ، ثم فقدت ، فيما بعد ، رابطتها بالوطن الأم .

وفي الوقت الذي كان فيه طلاب العلم يفدون من مختلف الأقطار الاوربية لتلقي المعرفة في الجامعات العربية ، كانت الجزيرة العربية ، أم تلك الحضارة ، معزولة عن الامبراطورية التي ولدتها . وتحول مركز ثقل الاسلام ، بأتساع الحملات العسكرية ، فنقلت العاصمة الى دمشق فبغداد ثم الى القاهرة ، ولم يعد الخلفاء المتعاقبون يعبأون بما يجري في اليمن او نجد . فعادت الجزيرة العربية منذ القرن العاشر للميلاد ، الى الانطواء ، وبدا واضحاً ان ابتعاد العرب عن صحرائهم قد بدد قواهم ، وان لا سبيل لاستعادة هذه القوة الا بالعودة الى الصحراء .

بذل العرب ازكى دمائهم في توسعهم الهائل من قم حملايا في الهند حتى سهول « بواتيه » في فرنسا ، واستسلمت الجزيرة العربية الى هودها الذي عرفته قبل ظهور النبي محمد ، والذي لم يكن يشبه وضع العصور الوسطى ، ولا عهود ما قبل التاريخ . فالصحراء غير المكتظة بالسكان ساكنة صامته ، والقبائل لم تعد تتحارب لكثرة ما نزل من دماؤها ولأن موارد الجزيرة العربية أصبحت كافية لسكانها المبعثرين .

لم تضحى الصحراء ساكنة وحسب ، بل اشبه بجثة هامدة ، حتى لكأن نفحة من الموت مرت فوق الرمال ناشرة الوحشة والعزلة في كل مكان . ان قلب الجزيرة العربية ما عاد يخفق الا في صعوبة .

ودار الزمن دوراته ، وعاد المستوى البشري الى الارتفاع بصورة بطيئة

تكاد لا تلاحظ، وتزايدت نسبة عدد السكان، وتفاقم اختلال التوازن بين القبائل من جديد، وشحت الموارد، واستأنفت حياة البداوة سيرتها الأولى، واكتظ اليمن بالبشر فراح يلفظ الفائض منهم نحو الشمال، وعاد المد البشري يحرف المجتمعات التائهة ويدفعها عبر أتون نجد والقصيم.

واستعادت الصحراء دورها التقليدي في سحق القبائل بعضها بعضاً، وفي ارغامها على استرداد حيويتها ونضالها، فنجمت عن ذلك، كما في السابق، اشتباكات دامية حول آبار المياه، ومنازعات على الواحات وأشجار النخيل. وأخذ الأشداء يحتلون مكانتهم المرموقة بعد القضاء على العناصر الخائرة الضعيفة، وعادت الجزيرة العربية إلى مهمتها التي خطها لها القدر: بلاد الفرسان، والشعراء، والنساک، وتنشئتهم.

واتاح خسوف مجد الجزيرة العربية، في خلال ذلك، للغرب ان يثار من العرب لنفسه. فظهرت، في العام ١٠٩٧ للميلاد، في «طورس» بالاناضول طلائع الحملة الصليبية بقيادة «كودفروي» وسواهما من نبلاء الفرنجة، وأنحدرت على طول الساحل فاحتلت حلب، ثم سورية كلها وفلسطين وشرقي الاردن. واقامت لها امارت وممالك في انطاكية وطرابلس والقدس، فيم كانت أساطيل جنوى والبندقية تستولي على جزيرتي رودس وقبرص.

وطرقت مسامع الغزاة الجدد الاقاربيل المثيرة عن الثروات الخيالية المدفينة في قلب الجزيرة العربية، فقرر احدهم «رونو دو شاتيون» حاكم شرقي الأردن ان يزحف للاستيلاء على تلك الكنوز، ولا سيما بعد ان اكده له تجار قادمون من الجنوب ان المدينة المنورة تحوي ثروات لا تقدر بثمن وان ضريح النبي الكريم يطفح بالذهب والجواهر النادرة، فمشى في صيف العام ١١٨٢ للميلاد على رأس قوة مؤلفة من الف وخمسمائة فارس وتمكن بسرعة مفاجئة من احتلال ميناء «ايلات» على خليج العقبة فأعدته ليكون نقطة انطلاقه الى غزو الجزيرة العربية،

ثم عبر الصليبيون اللسان البحري الممتد بين الحجاز وشبه جزيرة سيناء وثبتوا اقدمهم على الساحل الذي انطلقت منه قبل عشرة قرون الحملة الرومانية بقيادة « ايليوس غالوس » . ومضى الصليبيون في زحف خاطف نحو المدينة المنورة مجتازين مضيق خيبر حتى لم يعد يفصلهم عن المدينة غير مسيرة يوم واحد ، وفي غمرة النشوة والزهو وقد اقترب النصر فوجيء الصليبيون بغارات متقطعة يشنها عليهم الفرسان العرب ، الذين كانوا يظهرون بغتة فينقضون على المغيرين من مختلف الجهات ، ثم يتوارون وسط عاصفة من الغبار .

ولم يتمكن الصليبيون ، الذين شلتهم اسلحتهم ومعداتهم الثقيلة ، من الصمود امام الهجمات العربية الخاطفة ، فقتل منهم او اسر ثلاثماية رجل ، وتشتت الباقون جوعاً وظماً . واما قائدهم « رونو » الذي كان غائبا عن ميدان المعركة فقد نجا لفترة موقته ، ثم سقط اسيراً بعد ذلك بأربع سنوات في معركة حطين فأمر صلاح الدين بقطع رأسه عقاباً له على مغامرته .

واما الفرسان الصليبيون الذين فروا من المعركة ، فقد وجدت جثثهم ، بعد حين ، متناثرة على طول الطريق الممتدة من خيبر الى المدينة المنورة .

ولم يحاول الصليبيون ابداً ، بعد هذه التجربة الفاشلة ، ان يتوغلوا في شبه الجزيرة العربية ، واحجموا عن اية مغامرة في تلك المناطق المتأججة اللاهبة ، الى ان دالت ممالكهم في الشرق بعد ذلك بسنوات في العام ١٢٥٠

٥

وتخلل الصراع بين العرب والاوربيين صراع مع غزاة اخرين قدموا من اواسط القارة الاسيوية وتكسرت امواجههم عند الحدود الشمالية لشبه الجزيرة العربية . ففي العام ١٠٥٥ غزا السلجوقيون بغداد واسيا الصغرى وحطموا

بقايا الدولة العباسية قبل ان يُسحقوا بدورهم في العام ١١٥٤. ثم جاء جنكيز خان على رأس فرسانه المغول فاجتاح خراسان وتواری بعد ذلك خلف ستار من النيران ( ١٢٢٠ ) وظهر من بعده تيمورلنك ~~مفتحم~~ الاناضول على رأس عصابات التتر وانحدر جنوباً فدمر حلب ودمشق ، ثم انحسر مده فجأة وانكفأ نحو الشرق .

وجاء اخيراً دور العثمانيين ، وهم احسن تنظيمًا من اسلافهم ، فاستقروا على طول حوض شرقي البحر الابيض بعد استيلائهم على البلقان ، ونادى سلاطينهم بأنفسهم خلفاء على المسلمين وارغموا معظم الاقطار الاسلامية على الاعتراف لهم بتلك السيادة .

ولكن الجزيرة العربية بقيت في معزل عن هذه الاحداث ، ولم يجزئ الاتراك على تحطبي حافة الصحراء رغم انهم نصبوا انفسهم سادة البلاد العربية جمعاء واحتلوا الاقاليم الواقعة في اطراف الجزيرة العربية واقاموا حكماً وحميات في دمشق والقدس وبغداد والبصرة .

ان ان كان العام ١٥٥٠ وفيه ضاق السلطان سليمان ذرعاً بتمرد البدو وصمم على ان يضع لهذا التمرد حداً بعد ان تكاثرت شكاوى قادته العسكريين في تقاريرهم من روح المشاكسة لدى قبائل . فستدعى السلطان والي دمشق الى استانبول وامره بتجهيز حملة لاحتلال نجد وحدث وفرض الطاعة على هذه القبائل .

تخوف والي دمشق من هذه الحملة ، وادرك ان فشلها سيكلفه حياته ، فطلب الى السلطان ان يضع تحت تصرفه عددًا من افضل الفرق العسكرية ، وبلغ في طلباته على امل ان يرفضها السلطان ويصرف النظر عن الحملة ، ولكن السلطان وافق على كل شيء حتى انه وضع بامرة واليه عدة فرق من حرسه الخاص ، فعبا الوالي جنوده في دمشق وجهزهم بمعدات المعركة ، وبدأ فرسان السلطان زحفهم في طوابير



متراسة لم تلبث ان توارت في الافق البعيد متجهة نحو الصحراء .

ولم يتعرض استقلال الجزيرة العربية من قبل لأشد من هذا الخطر ، فجنود السلطان اكثر خطراً من فرسان « رونودوشاقيون » او محاربي « ايلوسغالوس » ، فهم ليسوا منظمين ومدربين فحسب بل انهم قد الفوا القتال في اشد المناخات قسوة ، وكان تجهيزهم متفقاً مع ضرورات حرب الصحراء .

ولكن هذه الميزات كافة تضاءلت امام نقص رئيسي . فهم يجهلون كل الجهل البلاد التي سيقاتلون فيها ، ولا يعرفون شيئاً عن المواقع واتجاه الرياح . فاضطروا الى الاستعانة بادلاء عرب اضلوهم ، واستدرجوههم الى منطقة جافة عقيم ، لا اثر فيها لبشر او لقطرة ماء .

طاش صواب الجنود الأتراك من شدة الظمأ ، فراحوا يسعون بين الكثبان وراء أي شيء يتفياون ظله ، أو اية نقطة ماء تبل ريقهم ، الى ان صرعت الحمى قسماً منهم ، وهام الباقون على وجوههم تحت سماء ملتهبة يحكي شحوبها شحوب معدن ينصهر في جوف النار . وأصيب بعض الجنود بعوارض جنون فسددوا اسلحتهم الى صدور رؤسائهم ثم انتحروا ، ولقي الباقون حتفهم بعد عذاب مرير دون ان يشاهدوا ظلاً أو أثراً لعدو .

لم ينج احد . . . انها القصة نفسها تتكرر منذ بدء الخليقة : جماعات غريبة تغوص في الصحراء وتختفي ، فلا تخلف وراءها أثراً ، كأنها نهر تائه تمتصه الرمال .

وأما والي دمشق ، الذي قاد الحملة ، فقد فضل الموت على ان ينقل لمولاه تفاصيل الكارثة ، وعثر عليه جثة متقلصة بجوار احد الكثبان وفي قبضته لوحة سوداء كتب عليها : « كان الاحرى الا يطلب مني قهر الشمس » .

صار الأتراك اكثر حذراً بعد هذه الحملة المفجعة ، فعدلوا عن محاولة اخضاع شبه الجزيرة واقعياً ، واكتفوا بأن يمارسوا عليها نوعاً من السيادة الرمزية .

وبقيت الجزيرة العربية اذن سيدة نفسها ، واستمرت القبائل في حياتها المألوفة .

٦

ان من حق زعماء حائل والاحساء ونجد والحجاز ، ان يعتبروا أنفسهم سادة العرب والطبقة المختارة منهم ، لأنهم وحدهم لم يرضخوا لنير اجني على مدى تاريخهم الطويل ، وبقي استقلالهم مصدر اعتزاز كبير لهم .

وهو اعتزاز على مستوى التضحيات التي بذلوها ، وعلى مستوى الاستياء الذي كانوا ينظرون من خلاله الى الأوضاع في سورية ومصر حيث خضع العرب للسيطرة العثمانية .

فالؤمن الحق - غير المنافق ولا الشرك - هو اذن في جوف الصحراء .. في نجد الرائع الساكن ، قلب العروبة ، ومعبر المهاجرين ، وباعث الحياة في اوصالهم . كان اليمن يصنع المادة البشرية الخام . وأما نجد فكان يصهرها ويحولها من حديد خام الى فولاذ نقي . اليس نجد منبت عطاء العرب ، ومنبع اشجع الفرسان فيهم ، وموطن أفصح من قال وتكلم .

للاخرين من العرب ان ينعموا «بحضارتهم» ولهم ومجالس انسهم وطربهم ، وأما اهل نجد فلا يستهويهم شيء من ذلك كله . فهم ورثة مجد تتضاءل حياله المباهج الدنيوية وحراس صوفية اخلاقية وروحية . لا يشغلهم عن عبادة الله شاغل .

وكانت القبائل وهي تتمزق وتتذابح ، تشعر مع ذلك ، أو لذلك ، بانبعاث موجة جديدة من الحماسة في أعماقها . وكانت قواها المكبوتة تتحول ، كما كانت الأمر دائماً ، الى نزعة مزدوجة للوحدة والعظمة . وكان أبناء تلك القبائل ، من

خلال العذاب الذي يقاسونه ، ينزعون الى التجرد والانطلاق من عالم المادة ،  
ويبحثون عن الجنة في أعماق جحيمهم الخاص .

ومرة اخرى ... فعلت القرون فعلها الوئيد ، واصبحت الجزيرة العربية  
خزاناً للطاقات . كان أشدها انكباتاً يتحين الفرصة السانحة ليتدفق وينسكب .  
كان العصر ناضجاً ومهيئاً للحملة الجديدة من ملاحم الاسلام ، والقبائل تحيا  
بانتظار الرجل الذي سيدعم ايمانها ويعيد لها وحدتها .

وجاء الرجل المنتظر : محمد بن عبد الوهاب .

٧

ولد في بلدة العينية من اعمال نجد في العام ١٦٩٦ منحدرا من بني تميم الذين  
تغنى الشعراء بآثرهم في سوق عكاظ وكانوا من اوائل القبائل التي انضوت تحت  
لواء الاسلام .

شغف محمد بن عبد الوهاب ، وهو بعد يافع ، بالآداب والفنون ، وحفظ القرآن  
في العاشرة ، وقام بعدة رحلات الى دمشق وبغداد والبصرة وإيران اتاحت له  
الاطلاع على مختلف المذاهب الدينية التي كانت تتنازع السيادة في العالم الاسلامي ،  
وانسحب بعد ذلك الى الصحراء متنسكا متعبداً . وراح يفكر وهو في عزلته  
البعيدة بمستقبل الاسلام ، مكتئباً لما آلت اليه حاله . لقد تسربت الوثنيات  
والبدع الخطيرة الى جوهر الدين على يد الخلفاء العثمانيين وفقهاء الشرع ، فخنقت  
الايمان الصحيح وسط اكداس من التعقيدات والتأويلات الفارغة ، وحل البذخ  
والتباهي محل التقشف في كل مكان .. ما حلت عبادة الاولياء محل عبادة  
الله ، وخولفت نصوص القرآن ، ولم يعد ثمة من يراعي شريعة الرسول . كالم تعد  
كلمة الله مسموعة في اي مكان .

ولعل الوضع كان ادعى الى اليأس على الصعيد السياسي . فالعرب في معظم  
ديارهم خارج الجزيرة العربية خاضعون للسيطرة العثمانية . واما عرب الصحراء  
الوسطى الذين نجوا من السيطرة الاجنبية فقد استغلوا استقلالهم ليقتتلوا ، بدل  
ان يعملوا على تحرير اخوانهم .

وادرک محمد بن عبد الوهاب ، ان المهمة الملحة تقضي اولاً بتوحيد جميع  
القبائل الرحل وتعبئتها من جديد وراء مطلب اسمي : هو تعزيز شريعة الله  
التي حملها رسوله النبي محمد ، والعودة بدين الله الى صفائه الاصيل . ذلك لأن  
الأمور وصلت الى حد من التدني لم يعد يدرك العرب فيه ، المعنى الصحيح  
لشريعتهم .

\* \* \*

كانت دعوة محمد بن عبد الوهاب على بساطتها بمثابة ثورة تقضي على مخلفات  
الف عام من التاريخ ، وتهدم الآف الاجتهادات الخاطئة والتفسيرات الضالة  
والبدع الدخيلة . فلا كلمة في مذهبه غير كلمة الله كما وردت صراحة . لا  
تأويلاً - في قرآنه الكريم أو على لسان رسوله محمد بالذات .

وكان طبيعياً ان تصطدم دعوة محمد بن عبد الوهاب ضد الصنمية والوثنية  
وضد الوساطة بين الانسان وخالقه ، بمقاومة عنيفة من جانب ائمة مكة ، فهي  
تهدد مكانتهم وتحط من مستوى حياتهم ، لذلك قاوموا المصلح الجديد بعنف  
وطاردوه وطردهوه من مكة تحت وابل من الحجارة . فأدرك ان دعوته لن  
يكتب لها الانتشار والبقاء ما لم تفرض بقوة السيف . فلجأ الى « الدرعية »  
عاصمة نجد وطلب حماية احد رؤساء القبائل النجدية محمد بن سعود في العام  
١٧٤٩ .

وأدرك محمد بن عبد الوهاب سريعاً ان محمداً بن سعود يتمتع بصفات الرجل

بن محمد بن سعود بطلاقة لسان الأمام النجدي وقوة حجته  
له . فتعاهدا على توحيد قواهما لتحقيق ارادة الله ، واستعادة وحدة  
الشعب العربي المفقودة ، بعد ان تحققت بينها ، لهذا الهدف ، وحدة السيف  
والعقيدة . ودعم محمد بن عبد الوهاب هذا الاتفاق بتزويج ابنته الى محمد ابن  
سعود وترك اليه مهمة ادارة المعركة سياسياً وعسكرياً .

كان الهدف الأول ضم قبائل أواسط شبه الجزيرة العربية الى الدعوة ومن ثم  
السيطرة على الاجزاء النجدية . ثم تأتي الخطوة التالية لتشمل الدعوة شبه  
الجزيرة العربية كلها .

وسرعان ما انضم فرسان نجد متحمسين الى الدعوة المصلحة وانضوا تحت  
لواء محمد بن سعود . وعلم حكام دمشق والبصرة الأتراك ذات يوم بأن قبائل نجد  
المنقسمة على نفسها قد اجتمعت تحت قيادة واحدة ، وبأن اماماً يسهر بنفسه  
على تطبيق قواعد مذهبه الثوري الجديد بقوة السلاح على كل من يعترض  
سبيله .

سادت الدعوة الجديدة القسم الأكبر من نجد . وسحق الفرسان المؤمنون  
مقاومة شيوخ الاحساء . ثم انطلقوا الى اقاصي الحجاز في حملات يبشرون البدو  
باليقظة العربية .

وقلق السلطان العثماني محمود الأول للنجاح السريع الذي احرزته الدعوة  
الوهابية فأمر ولاته في البصرة وبغداد وجدة وباشوات مصر وسورية بتعبئة كل  
القوى لأبادة « الكفرة » والحيلولة بينهم وبين الاستيلاء على الاماكن المقدسة  
- مكة المنكرمة والمدينة المنورة - اللتين يعتبر امتلاكهما من قبل « الوهابيين »  
ضربة قاضية لمقام السلطنة .

ولكن ذلك كله لم يجد ، فالموجة العربية الثانية ماضية في طريقها لاجتياح  
شبه الجزيرة العربية رغم تدابير الباب العالي . وحقق محمد بن سعود الانتصارات



الانتصار . وها هم فرسان « عنيزة » و « وبرة » يعلنون انضمامهم للدعوة وينضون تحت لوائها .

وعندما توفي محمد بن سعود في العام ١٧٦٥ اورث ابنه عبد العزيز من بعده سلطة موطدة مكنته من اتمام فتح نجد واعلان نفسه ملكا عليه ( ١٧٦٥ - ١٨٠٣ ) وتم بذلك تحقيق القسم الاول من الدعوة .

ولما توفي الامام محمد بن عبد الوهاب في العام ١٧٩٢ ، وتولى الامير سعود الملك خلفاً لعبد العزيز ( ١٨٠٣ ) كانت العقيدة الوهابية راسخة الدعائم في الاقاليم الوسطى ، فجاء الامير الجديد ، حفيد محمد بن سعود من الاب ومحمد بن عبد الوهاب من الام ، يكمل المرحلة الثانية . فاعلن نفسه اميراً على نجد ، وإماماً للدعوة ، مما اتاح له مزيداً من الاندفاع فاصبح يُعرف بعد قليل من توليه السلطة بسعود الكبير .

جمع سعود الكبير قواته في « الدرعية » وانقض كالعاصفة على الحجاز ودخل المدينة والطائف ومكة وجدة بعد سلسلة من المعارك المظفرة .

وكان السلطان العثماني على حق ، فان احتلال آل سعود للمدينتين المقدستين اعلى من شأنهم في نظر العرب . وبادر سعود الكبير بنفسه الى هدم قبور الاولياء في مكة وازالة الزين والبدع وكل ما يتنافى مع جوهر الاسلام . واعاد للكعبة بساطتها الاولى ( ١٨٠٤ ) ثم توغل في « عسير » الذي استسلم دون مقاومة ، ومن ثم في اليمن حيث سقطت صنعاء بعد مقاومة عنيفة . وجاء هذا النصر الاخير يلهب مشاعر المحاربين ، فما من قوة تستطيع بعد الان الوقوف في طريقهم . فسعود الكبير قد انهي بالفعل احتلال الجزيرة العربية ، واصبحت مملكته تضم نجداً والحجاز ، والعسير ، واليمن ، وحضرموت ، والاحساء والبحرين والبصرة . واما في الشمال فقد ترامت سلطته حتى حدود حوران وكانت قواته المرابطة في وادي السرحان تهدد دمشق وبغداد .

وكانت أوروبا في ذلك الحين ترتعد خوفاً من نابليون ، والصراع بين الفرنسيين والانكليز قد امتد الى البحر الابيض المتوسط فالشرق الادنى .

وكان نابليون اثناء حملته الى مصر ( ١٧٩٨ - ١٧٩٩ ) قد اصطدم بمقاومة مزدوجة من الاتراك والبريطانيين . وجاءت عودته المستعجلة الى فرنسا ، واغتيال الجنرال « كليبر » الذي خلفه وراهه ، ومعاهدة باريس ( ٢٥ حزيران ١٨٠٢ ) التي تخلى بموجبها للباب العالي عن مصر ، تضع حداً مؤقتاً للتوسع الفرنسي في الشرق .

ولكن نابليون لم يكن قد نسي حلمه الاكبر الذي راوده في ظلال الاهرام : غزو الهند وتوجيه ضربة قاضية للنفوذ البريطاني ، فأوفد الكولونيل « سيستياني » الى سورية للاطلاع على مدى قوة العثمانيين والبريطانيين فيها ، والجنرال « ديكاين » الى الهند للتفاوض مع بعض امراءها المحليين ( ١٨٠٢ - ١٨٠٣ ) وقال في اجتماع له مع الامراء الالمانيين : « لم يعد هناك ما نفعله في أوروبا ففي الشرق مجال الاعمال العظمى ... وهناك الاجاد والثروات الكبرى » .

ولما فشل نابليون في جر السلطان سليم الثالث الى حلف ضد بريطانيا ، اقترح على قيصر الروس الكسندر مشروعاً لاقتسام تركيا « يفتح أمام الدولتين ابواب الشرق على مصراعها » ( ١٨٠٧ ) .

وكان لا بد للامبراطور الفرنسي ، في غمرة مشاريعه هذه من الاهتمام بالجزيرة العربية ، فملكة سعود اصبحت اهم من ان تهمل ، لذلك اوفد نابليون الى « الدرعية » رسولاً دبلوماسياً يدعى « لاسكاريس » في نهاية العام ( ١٨١١ ) تمكن من عقد عدة اجتماعات سرية مع الامام السعودي .

اصغى سعود بأهتمام زائد الى عروض رسول نابليون الذي كان يطلب تسهيل مرور القوات الفرنسية عبر البلاد العربية الى الهند بعد القضاء على الدولة العثمانية ، وهي خطة تتناسب الى حد كبير مع اهداف سعود في تحرير البلاد العربية من الحكم العثماني الذي حاربه اسلافه زمنياً طويلاً والذي يعتبر تحقيقه بعثاً لحلم الوحدة العربية الأكبر ، ولملحمة ثانية من ملاحم الاسلام شبيهة بملاحم ابي بكر وعمر بن الخطاب .

ولكن الانكليز لم يكونوا غافلين عما يجري فقد بلغت مسامع عملائهم في السويس وجدة ومسقط وعدن ، تفاصيل المباحثات الدائرة في عاصمة نجد ، فبادرت حكومة لندن - التي كانت تتخوف من تحالف عربي - فرنسي في المنطقة - الى ايفاد مبعوثيها لمقابلة سعود ومحاولة اقناعه بالابتعاد عن الفرنسيين لقاء وعد بحمل السلطان العثماني على الاعتراف بالسلطة السعودية .

ووازن سعود طويلاً بين العرضين المتناقضين ، فوجد في النهاية ان العرض الفرنسي اقرب الى تحقيق آماني الشعوب العربية ( ١٨١١ ) .

ولما تم توقيع الاتفاق ، اصدر سعود اوامره بالاستعداد للمعركة وبدأ الهجوم في نهاية العام ١٨١٢ وسط موجة من الحماسة . وسرعان ما انتقض الفرنسيون الوهابيون على بلاد ما بين النهرين فاستولوا على مدينة كربلاء ثم هاجموا حلب المحصنة تحصيناً قوياً فأرغموه على الاستسلام ، في حين كانت قوات اخرى ترتقي وادي السرحان وتترك ضواحي دمشق . وكانت حماسة المهاجمين تزداد توقداً كلما وجدوا أنفسهم في الطريق الى القسطنطينية ، والى نشر الويتهم على سواحل البحر الأبيض المتوسط .

كان مقدراً لهذه الحملة الرائعة ان تبلغ قمة النجاح ، لو انها شنت قبل ذلك بسنوات ، أما في العام ١٨١٢ فقد فات الأوان . وجاءت نتائج المعركة الفرنسية المفجعة في روسيا توجه ضربة قاضية لنفوذ نابليون . فحريق موسكو والعواصف

الثلجية التي حطمت آخر آمال الامبراطور كانت نقطة تحول في تاريخ العالم  
انعكست اثارها حتى على اعماق شبه الجزيرة العربية .

4

ساعد وجود الفرنسيين في القاهرة بين عام ١٧٩٨ و عام ١٨٠١ على تسهيل مهمة  
سعود ، فقد شل القوات التركية عن الحركة حتى بعد جلاء القوات الفرنسية عن  
مصر ، لأن الأتراك ظلوا متخوفين من حملة جديدة يشنها قادة الامبراطور .

فلما استبعد الخطر من هذه الناحية وعجز الفرنسيون بعد هزيمتهم في روسيا  
عن اي تدخل في الشرق ، اصبح في وسع الاتراك تكريس الجزء الأكبر من  
قواتهم للقضاء على الثورة العربية ، فأصدر السلطان أوامره الى محمد علي واليه  
على مصر بوضع حد لسعود وأنصاره .

عهد محمد علي الى طوسون باشا بقيادة أول حملة ، فشلت هذه الحملة وأرغمها  
سعود على الالتجاء الى مدينة « ينبع » والاحتماء فيها . ثم جهز محمد علي حملة ثانية  
تولى قيادتها بنفسه ولكن حظها لم يكن افضل من سابقتها فقد هزمه سعود في  
« تربة » واخرجه من « قنفدة » وحاصر قواته في الطائف . وكان محمد علي على  
وشك الانسحاب والتخلي عن المعركة بعد هزائمه المتلاحقة ، عندما قتل سعود  
قضاء وقدرأ أمام اسوار الطائف ( ١٨١٤ ) .

وكان لوفاة سعود ، في تلك الفترة الحرجة ، وقع الكارثة على الجزيرة  
العربية .

فأبناء ملك نجد الراحل الاثنا عشر ، لم يكن احد منهم على استعداد للحلول  
محلّه ، فألت السلطة الى عمه عبد الله الذي كان حكم الجزيرة العربية في تلك المرحلة  
العصيبة عبئاً ثقيلاً عليه ، فاستأنف محمد علي الهجوم ولم يطل به الوقت حتى

حقق بعض النجاح ، وتمكن بعد سلسلة من المعارك الضارية من الاستيلاء على الطائف والانتصار على السعوديين في « كولاخ » قرب قنفذة ( ١٠ كانون الثاني ١٨١٥ ) ثم امر بقطع رؤوس جميع الاسرى ~~فخماً~~ وأوقع بذلك الرعب في النفوس والقى عبد الله سلاحه ووقع اتفاقية اليمه مع طوسون باشا .

وتذرع محمد علي في العام التالي ، بأن عبد الله لا يطبق بنود الاتفاقية فجهز حملة ثالثة ضد السعوديين عهد بقيادتها الى ابنه ابراهيم باشا ، الذي تمكن من اخضاع نجد خلال ثمانية عشر شهراً فأحتل على التوالي مدن « عنيزة » و « بريدة » و « شقراء » ... ثم عسكر في الثاني والعشرين من آذار ١٨١٨ عند اسوار « الدرعية » .

وصمد عبد الله امام الحصار الذي انهك قواه طوال سبعة أشهر ، ثم اضطر للاستسلام ، فأمر السلطان محمود الثاني بنقله الى القسطنطينية ، حيث طاف به الجنود الأتراك مكبلاً بالحديد ، مدة ثلاثة ايام ، في شوارع العاصمة التركية ، ثم امر بقطع رأسه أمام مسجد اياصوفيا ، وعرض جثته على الجمهور سحابة اسبوع .

وفي اواخر ايلول دمر جنود ابراهيم باشا مدينة « الدرعية » عاصمة نجد وخلفوها خراباً .

ولم يقف الامر عند هذا الحد .

فبعد سنوات اراد فيصل النجل الاصغر للامير عبد الله غسل الالهانة التي لحقت بأسرته وبدأ بتجميع بعض القبائل حوله ، فلم يدع له محمد علي اية فرصة للعمل ، ووجه الى الجزيرة العربية اربع فرق من جيشه ليظفيء شرارة الثورة الجديدة بسيل من الدماء ، في الوقت الذي كان فيه المصريون يشرفون على موسم الحج ، وكان البريطانيون يستقرون في عدن .

هاجمت الفرقة الاولى بقيادة خورشيد باشا ، المناطق النجدية حتى ادركت



فيصلا في سهل « الدلم » فهزمته ، وواصلت سيرها الى الخليج العربي مختربة بذلك شبه الجزيرة العربية من البحر الاحمر الى الخليج . واندفعت الفرقة الثانية بقيادة خوتشوك باشا الى اليمن ، فاستولت على صنعاء ، وارغمت الامام على التنازل لمصلحة السلطان . اما الفرقتان الثالثة والرابعة اللتان كان يقودهما احمد باشا فقد اخضعتا ، بجدال سيف ، القبائل الناقمة في العسير والحجاز ( ١٨٣٦ - ١٨٣٨ ) .

ولم يبق ثمة داع للبقاء في هذه البلاد فانسحب منها الاتراك بعد ان اثخنوها جراحاً وخلفوها ممزقة ، فمدنها تحولت الى أنقاض ، وقراها الى رماد ، وواحاتها اتلفت الى عدة اجيال ... لا شيء سوى الفناء والخراب .

١٠

وهكذا قمت تلك الوثبة التي كانت مؤهلة لتجديد ازهى عهود الاسلام ، وكُبتت في الصحراء التي كانت قد خرجت منها وهي أشد ما تكون زهواً وعنفواناً . فالموجة الاسلامية الاولى بقيادة النبي محمد وابي بكر وعمر بن الخطاب حققت كل الظفر ، اما الموجة الثانية بقيادة محمد بن عبد الوهاب وسعود الكبير ، فقد آلت الى فشل ذريع .

فالمملكة ( الوهابية ) قد سحقت ، وعاصمتها « الدرعية » تحولت الى انقاض ، وتهدمت اسوارها وانهارت حصونها ، وظلت شهادة على ضراوة الاتراك في الانتقام منها .

عادت الجزيرة العربية الى جمودها الاول : شعراء تأثنون . ايجاد مندثرة . فروسية بائدة . لقد انتهى كل شيء الى العدم ، وأصبح حلماً من الاحلام . ولم يعكر صفو السكون الشاحب الكبير الا بعض الغزوات الكثيثة

لفرسان القبائل ، في نضالها ضد الفناء حول منابع المياه . فما من يد قوية تحكم وتوجه . ومن حين لآخر كانت طلقة نار ، او صرخة مكتومة ، أو هرولة جواد أدهم ، وحدها الشاهد على ان الجزيرة العزيبية لم تمت .

ولم يبق من شيء هناك سوى الفراغ . . . وخلود الصحراء ، ولم يبق من شيء سوى شروق الشمس وغروبها .

ولم يبق من شيء بعد سوى الرياح ، الرياح الرملية الرهيبة تطمس المعالم وتكفن اثار الماضي ، وتحيل الى مستوى الذكريات ، كفاحا غير مجدٍ ، حاول بوساطته قوم ذوو طموح تلطيف حرارة تلهفهم الى العظمة والمجد .



الجزء الثاني  
فتح نجد  
(١٨٨٠ - ١٩٠٥)





كان ذلك هو الوضع في الجزيرة العربية عندما ولد مع أذان الفجر في الرياض ، في ربيع الأول من العام الهجري ۱۲۹۸ الموافق لشهر شباط ۱۸۸۱ ، طفل اطلق عليه ذووه اسم عبد العزيز .

كانت والدته سارة السديري ابنة احمد شيخ « الدواسر » احدي قبائل الجنوب المشهود لها ببأس محاربيها الأشداء . وقد تميز عبد العزيز منذ طفولته ببنية قوية ، كما تميز بذلك أيضاً اشقاؤه الثلاث الذين ولدوا من بعده : محمد ، وعبد الله ، وسعد .

أما والد عبد العزيز فهو عبد الرحمن ، ابن فيصل الذي دحرته قوات خورشيد باشا في سهل « الدلم » . وقد لقب بالامام عبد الرحمن بصفته حفيد سعود الأكبر المتحدر مباشرة من صلب الأمير محمد بن سعود وزوجته ابنة الامام محمد بن عبد الوهاب .

وقد أدت مظالم الأتراك الى تشدد وتصلب الائمة والعلماء من أتباع دعوة محمد بن عبد الوهاب في عقيدتهم والى تحصنهم بكبرياء مشوبة بالحذر ، وبصلابة مذهبية متعصبة ، فلا فخفخة ولا بهرجة . بيوتهم شبه عارية ، ومساجدهم دون زخرف أو زينة . كانوا يعرضون عن كل مباحج الحياة من خمر وطعام دسم وتبغ وثياب حريرية ، فلا طرب ولا هزل ولا متعة في الحياة تصرفهم عن

هدفهم الأساسي : تركيز افكارهم كلها نحو الله ، ورد الناس جميعاً الى عبادته وطاعته .

ان الطفل عبد العزيز الذي ولد في العام الهجري ١٢٩٨ ينتمي الى سلالة عريقة ، وتسري في عروقه دماء من أشرف الدماء العربية ، ويرقى بنسبه الى عدد من الملوك والى امام الدعوة الأول ، كما يرقى عبر ٨٤ جيلاً من الفرسان المغاوير الى قبيلة بني تميم العريقة التي تلاحت امجادها مع بزوغ فجر الاسلام .

حسب ونسب اصيلان ، منحها القدر للمولود الجديد وبخل عليه بكل ما عداها . فالأسرة فقيرة معدمة تحت وطأة الهزيمة ، وسلطتها موضع جدل . ثم انه أبصر النور في أعماق قصر متداع في مدينة ما يزال نصف اسوارها مهدماً مخرباً .

كانت مدينة الرياض قد حلت محل « الدرعية » عاصمة نجد القديمة التي محاها الأتراك قبل ستين سنة . ولكن : هل تنطبق كلمة عاصمة على هذه القرية البائسة التي ما تزال جدرانها المتصدعة شاهدة على مدى غضب ابراهيم باشا وحقده عليها ؟ صحيح ان أسوارها قد أقيمت من جديد ولكن ذلك كان أشبه بالترميم الذي لا يستند الى أي نظام . أبراج شيدت في فوضى ودعائم خشبية رصت جنباً الى جنب .

والقصر ؟ أهمل يسمى ذلك البناء قصراً ، تلك المجموعة من الانشاءات غير المتناسقة التي تربط فيما بينها مجموعة من المسالك والأروقة الضيقة . وكانت المساكن الجديدة تضاف الى المبنى الكبير اعتباراً حتى أصبح القصر يحتل قلب المدينة كله .

بقي عبد العزيز في عهدة والدته حتى بلغ الفطام ، ثم تولى والده امر العناية به وتربيته تربية صارمة ، فبعث به الى مدرسة الرياض حيث تلقى مبادئ القراءة على مقاعد الخشبية وبدأ يحفظ القرآن .

ولكن الغلام لم يكن متحمساً كثيراً للدراسة وكان يقضي معظم أوقاته في التأمل والتفكير ، أو في التعارك مع زملائه في الصف، وكان اهتمامه من الدراسة منصباً على الفقه والدين فلا يشغله عن ذلك شاغل . وكان عبد العزيز منذ السابعة من عمره يؤدي الصلوات الخمس ويرافق والده خمس مرات يومياً الى المسجد ويصوم شهر رمضان ويحفظ قسماً من القرآن .

وكان الامام عبد الرحمن رجلاً ممعناً في الزهد متعبداً رقيق الحاشية ، ومع ذلك فانه رغبة مكبوتة كانت تعمل في نفسه : توطيد قوة الاسرة ونشر الدعوة في الربوع العربية كلها. واخذ على هذا الأساس يهيء عبد العزيز للمهمة التي انتدبه لها القدر ويقول له : « انه لشرف كبير خصك به الله العلي القدير ولكن عليك ان تدرك عمق الواجبات التي تترتب عليك ... فهناك عقبات كثيرة ستحول دونك ودون توحيد البلاد العربية ... يجب ان تعد نفسك لحياة تقشف ونضال ... وتركز افكارك كلها على تحقيق ذلك الهدف ... وعندما تجد نفسك تائهاً في دروب الظلمات فتذرع بالصبر الى ان يمن الله عليك بالفرج » .

كذلك أولى الامام عبد الرحمن تدريب ابنائه على قواعد الشجاعة والفروسية عناية خاصة لشعوره بأنهم سيواجهون في المستقبل تبعات وواجبات خطيرة . ففي الثامنة من عمره كان عبد العزيز قد تدرب على استعمال السيف ، واطلاق النار ، والوثوب على ظهر جواد يعدو دون سرج أو لجام .

وعهد به والده الى رؤساء بعض القوافل يجوب معهم الصحراء لكي يألف خشونة الحياة . وكان يرغمه على الاستيقاظ من نومه قبل ساعتين من الفجر حتى في شهر كانون الأول حيث يصفر النسيم البارد بين النجوم . وكان يجبره على السير حافي القدمين صيفاً على الصخور الملتبحة بشمس الظهيرة ويدفعه الى ترويض قواه البدنية بتحدي رفاقه والتشابك معهم . كما كان يعوده على تنمية جلدته وقوة احتماله بتقنين غذائه اليومي ويقول له : « على البدوي الصحيح ان يتعود على

الاكتفاء بحفنة من التمر وجرعة من الماء وثلاث ساعات من النوم . ان هذه القواعد هي التي مكنت اسلافنا من تأسيس امبراطورية .

وشب عبد العزيز بسرعة ، مديد القامة ، لا يهدأ ولا يستكين ، هوايته المفضلة المصارعة والجري ، قوياً كالأسد خفيفاً حذراً كالفهد . كان عنيفاً مخيفاً ، شديد الغضب اذا استثير ، ولكن غضبه سرعان ما يزول ، ويستعيد السيطرة على نفسه كما يستعيد هدوءه وبشاشته .

وكان مع ذلك لا يعرف شيئاً عن الحياة ولا تتخطى انظاره أسوار المدينة . وكان ما يجري في أزقة الرياض القائمة المتلوية كافياً للاستئثار بكل اهتمامه .

ذلك لأن شبح الموت كان يحوم في كل مكان من الرياض ، يترصد الناس لدى كل منعطف ويكمن في الظلال ، ويتسلل حتى أروقة القصر الصامته . الخطر في كل حدب ووصوب ، خفي ولكنه قائم . كان الأمان كلمة مفقودة ، وكان كل انسان يعيش تحت رحمة وشاية أو دسيسة ، كأن المدينة لم يكفها ما حل بها على يد الأتراك من خراب ، فجاءت الحرب الاهلية تجثم فوق صدرها وتزيد في فدح المأساة .

لم يكن الإمام عبد الرحمن الأبن البكر في اسرته ، بل كان له شقيقان اكبر سناً : محمد وعبد الله يتنازعان السلطة ، مما أدى الى انقسام السكان الى فئتين متعاديتين تؤيد كل منهما احد الاخوين ضد الآخر ، وتحوض من أجل ذلك صراعاً مريراً لا هوادة فيه ولا رحمة ، حتى اصبحت عاصمة نجد مسرحاً لاعمال العنف والاضطرابات والانقلابات الدامية .

وحرص الامام عبد الرحمن على البقاء بعيداً عن هذه المنازعات فعاش منعزلاً مع اسرته في جناح خاص بالقصر منصرفاً الى مهامه الدينية ، وظلت ، مع ذلك ، حياته اشبه بالكابوس . فكل من الاخوين يتخوف منه ، ويتهمه بالتآمر ضده ،

ويتحين الفرصة للانقضاء عليه . كان محاطاً بالجواسيس ينقلون الى كل من اخويه كل شاردة وواردة من تصرفاته او اقواله .

وارغم هذا الجو المفجع كل فرد على حياة الحذر والترقب ، فلا يستقر فكر ولا تهدأ أعصاب . فان اية غفلة يمكن ان تؤدي الى اسوأ الاحتمالات . ولنا ان نتصور اية مدرسة لتنمية الطاقات وتوقد الذكاء ومواجهة الاخطار ، كانت هذه الحياة بالنسبة الى صبي قوي البنية شديد المراس في سن عبد العزيز .

وجاءت الاخطار من الخارج تعزز هذه الاخطار من الداخل ، بما لا يقل عنها اثارة ورعباً .

ففي الشمال الشرقي من الرياض تقوم مدينة « حائل » ، وهي مركز اتصال وتجمع قبائل « شمر » التي تمكن محمد بن الرشيد ، الرجل الطموح الحقود ، من جمعها تحت سلطته ، ومن استغلال العداة القديم العهد بين الشمريين والنجديين ، والافادة من الشقاق المسيطر على الرياض ليستولي على المدينة ويطرده السعوديين ، ويضم نجدا الى حائل ، ويحطم كبرياء السعوديين .

وزاد في خطر ابن الرشيد انه كان يتمتع بتأييد كامل من الاتراك الذين كانوا يعتمدون عليه في سحق السعوديين ، ويقدمون له ، هذه الغااية ، المعونة المالية والسلاح .

بدأ ابن الرشيد حملته في ربيع ١٨٩٠ فلم يلقَ مقاومة جدية من القبائل النجدية المنقسمة على نفسها المنهوكة القوى . وتمكن بمساعدة ابن عمه عبيد قائد الجناح الايسر من جيشه من الاستيلاء على الرياض بعد معركة دامية قتل خلالها شقيقا عبد الرحمن : عبد الله بيد ابن الرشيد ومحمد بيد عبيد . وعين المنتصر احد اصدقائه المدعو « سليمان » حاكماً على المدينة وامره باستعمال اقصى الشدة لدى اول بادرة ثورة او تمرد

وفي ساعة من ساعات الغفلة ندم عليها كثيراً فيما بعد ابقى ابن الرشيد على



حياة الامام عبد الرحمن وجماعته وسمح له بالبقاء في الجناح الذي كان يحتله من القصر . كان يخاله سالماً مستسماً .

١٢

أسفر انتصار ابن الرشيد عن نتيجة لم تكن في الحسبان . فقد اصبح الامام عبد الرحمن ، بعد القضاء على شقيقه ، زعيم الاسرة السعودية . وكان الارث الذي آل اليه ، مع ذلك ، زهيداً . فهو يجيا غريباً في قصر آباءه ، ولا يقيم في الرياض الا بفضل تسامح الغاصب وتساهله . كان في السابق محاطاً بجواسيس اخويه ، فأصبح اليوم خاضعاً لرقابة عدوه .

لم يقو الامام عبد الرحمن على تحمل ذلك الوضع المهين طويلاً ، فقرر خلع نير ابن الرشيد بتحريض الشعب على ثورة سرعان ما قمعها الحاكم سليم ، وامر بشنق اربعين ثائراً على رؤوس المآذن عبرة وتحذيراً .

ولم تثبط همة عبد الرحمن فأستأنف الدعوة الى الثورة حتى ترامت أنباؤها الى مسامع ابن الرشيد ، فأصدر الى سليم امراً بوضع حد نهائي « لشعب » السعوديين وبفرض عقاب على المدينة يذهب مضرب المثل .

وكانت تلك هي الفرصة التي يتحينها سليم ، فشرية الحرب في الصحراء لا تعرف الرحمة وليس للمغلوب ان يطمع في تساهل الغالب . لقد استثنى ابن الرشيد ، الامام عبد الرحمن ، من القتل . فدللت التجربة ، مرة اخرى ، على خطأ كبير .

وضع سليم خطته لآبادة الاسرة السعودية ، وحدد نهاية شهر رمضان موعداً لتنفيذها ، عندما يحل عيد الفطر ويذهب لتهنئة الامام عبد الرحمن بالعيد . وكانت الحطة تقضي بأن يطلب سليم الى مضيفه ان يعرفه على جميع افراد

الاسرة ، فما ان يجتمع هؤلاء في قاعة الاستقبال حتى يحاصرم حراس سالم  
السبهان وينبجهم عن بكرة أبيهم . تلك كانت الوسيلة الوحيدة للخلاص  
من السعوديين .

ولكن الخطة التي بيثها سالم تسربت في الوقت المناسب الى الامام عبد الرحمن  
فاستدعى الى القصر صبيحة يوم العيد عددا من انصاره المخلصين وزودهم بالسلاح  
وامرهم ان يكونوا على استعداد للتدخل لدى اول اشارة .

ووصل سالم يحوطه حراسه حوالي الظهر ، فاستقبله الامير عبد الرحمن بكل  
حفاوة ، وشكره على مبادرته بالمعايدة والزيارة . وادخله قاعة الاستقبال حيث  
جمع عدداً من ابناء الاسرة لكي لا يثير الشكوك في نفس الحاكم . وكان بين  
الموجودين الفتى عبد العزيز البالغ الحادية عشرة من عمره انذاك والى جواره  
عبد زنجي عملاق .

وتبادل عبد الرحمن وسالم عبارات المجاملة والاطمئنان عن الصحة بينما كان  
كلامهما ، وهو يحتمي القهوة ، يراقب عدوه بحذر ويتهاياً للانقضاض على عنقه .  
وقال سالم فجأة ، بعد احاديث شتى :

- سيدي .. انني لا ارى هنا سوى قسم من افراد اسرتكم ، فهل لكم  
باستدعاء الاخرين حتى اكون سعيداً بالسلام عليكم جميعاً .

وفوراً أستل الامام عبد الرحمن خنجره ، اشارة لانصاره المترقبين ، فاقتحموا  
القاعة شاهري السيوف ، واطبقوا على سالم فكبنوا يديه ورجليه والقوقه في بشر  
بعد ان قتلوا جميع حراسه . كانت مذبحه رهيبه شهد عبد العزيز فصولها من  
فوق كتف الزنجي الذي حماه بجسمه ودفع عنه الاذى ، ولقد تلتخ عبد العزيز  
مع ذلك بالدماء وظلت صورة المعركة محفورة في ذاكرته .

في ذلك اليوم تعلمت - كما قال عبد العزيز فيما بعد - ان على المرء ان يبادر  
الى توجيه الضربة الأولى عندما يشعر بأنه مهدد بالخطر .

واذا انتشرت انباء المذبحة في المدينة ، هرع الأهليون الى اسلحتهم فطردوا  
حامية سالم ، وحصنوا ابواب الرياض واستعدوا لمقاومة ابن الرشيد وانضم الى  
الثورة سكان القرى المجاورة .

وانتفض ابن الرشيد غضباً لمصرع سالم ، فعبا جميع قواته وغادر « حائل »  
على عجل متجهاً الى الرياض وقد عقد العزم على ابادة عبد الرحمن واسرته وذريته  
كلها . فلن يهدأ له بال ما بقي سعودي واحد على قيد الحياة .

وجمع الامام عبد الرحمن ، من جهته ، أنصاره ووزع عليهم ما خلفته حامية  
ابن الرشيد من عتاد وخرج لملاقاة المغير . فالتحم الفريقان طيلة أسابيع في  
معركة دامية ، في السهل المنبسط الى الجنوب الشرقي من « عنيزة » ، حتى تمت  
السيطرة في النهاية لابن الرشيد المتفوق عدة وعدداً . فأضطر عبد الرحمن الى  
التراجع والأنكفاء خلف أسوار الرياض .

فرض ابن الرشيد الحصار على المدينة وعمد الشمريون الى قطع اشجار النخيل  
وتحريب أقنية الري ، وتسميم الآبار واتلاف المزروعات المحيطة بالمدينة . وطال  
الحصار حتى شحت مياه الشرب في الخزانات ، وتناقصت الاغذية والمؤن ، فجاء  
أهل المدينة يلتمسون من الامام ان يستسلم ، فرفض الاستسلام الذي يعني  
تعريض جميع أسرته للموت .

وأخيراً ... هدد سكان الرياض إمامهم بالتمرد، وتخلي عنه انصاره المتخوفون  
من انتقام ابن الرشيد الواحد تلو الآخر ، ولم تثبت على الولاء له سوى بقية قليلة  
من قواته ، ففضل النجاة بنفسه وبأفراد أسرته على الوقوع حياً في يدي عدوه  
فهياً لهذه الغاية عدداً من الجمال وحوالي عشرين شخصاً من الأنصار الأوفياء ثم  
حزم أمتعته وودع اصدقاءه . وغادرت القافلة الرياض وفي المقدمة حمل يقل  
الفتى عبد العزيز وشقيقه محمداً ، متسترة بالظلام متسللة الى ما وراء خطوط  
العدو .

ولما دخل ابن الرشيد عاصمة نجد هرول مسرعاً الى القصر على رأس عدد من جنوده وراح يقفز درجات السلام قفزاً ليشفي غليله من عدوه فألقى القصر خاوياً . لقد نجا السعوديون وفاته التمتع بلذة الانتقام .

١٣

اتجه عبد الرحمن جنوباً وحل ضيفاً على زعيم قبائل العجمان ، الذي انزله في حماه آمناً ، مراعاة لتقاليد الضيافة العربية . ولكنه اختصر بعد ذلك اقامته في ربوعهم غير المأمونة ، وشطر قافلته الى شطرين ، بعث بأحدهما ، وهو يضم زوجته وبعض النسوة والمرافقين ، الى البحرين ، بينما جد هو في المسير مصطحباً عبد العزيز باتجاه الجنوب . وحسناً فعل . فزعم « العجمان » كان يتهاى لقتله وقطع رأسه ليعث به هدية الى ابن الرشيد ، طمعاً في حظوة لدى المنتصر وفي هباته . ولكن رحيل عبد الرحمن المفجىء ، احبط الخطة واثّر حفيظة العجمان فأقسموا على قتله في أول سانحة .

توقف الأمام السعودي بعد سير متواصل استمر عدة ايام في واحة « الحريق » حيث لقي مفاجأة في انتظاره ، فقد وافاه رجل مجهول وطلب التحدث اليه على انفراد . وكان الرجل مبعوثاً يحمل عرضاً مغريباً من لدن الأتراك . فآبى الرشيد بدأ يتغطرس في تعامسه مع الأتراك بشكل اثار قلق المسؤولين في الاستانة . واخذ زعماء شمر يتحدثون عن نزع الحماية التركية بعدما انتشوا بخمرة الضفر وساورتهم نزعة الاستقلال .

وعرض العثمانيون على الامام عبد الرحمن تطبيقاً لسياسة التوازن التي كانوا يتبعونها في البلاد العربية ، تمكينه من استعادة الرياض بشرط ان يوافق على اقامة حامية تركية في المدينة وان يعترف رسمياً بتبعيته للسلطان .

كان عبد الرحمن معدماً مشرداً ، يفتقر حتى الى منزل يأوي اليه أفراد أسرته ، ومع ذلك ، فان مجرد افتراض الركوع امام الذين دمروا بلاده ، وقضوا على والده ، وقطعوا رأس جده أمام مسجد ايا صوفيا ، بداله مذلاً معيباً ، فلم يستطع كبح جماح غضبه ، وانهاه بالسوط ضرباً على وجه الرسول التركي وقال له :

- سوف اقتلك اذا اعدت الكرة ، اذهب وقل لاسيادك : ان شرف عبد الرحمن ليس سلعة تباع وتشترى .

وأخذت الاستانة علماً بفشل رسو لها في مهمته وبالطريقة التي عومل بها ، فأباح السلطان دم عبد الرحمن وحلل قتله بتهمة الاساءة الى امن الامبراطورية الداخلي . وأدرج اسمه رجلاً خارجاً على القانون في القائمة السوداء .

قرار شكلي في ذاته لمعجز الحكومة العثمانية عن تنفيذه ، الا انه احاط السعوديين بمزيد من الاخطار ، مما جعل حياتهم اكثر اضطراباً واشد قلقاً . فقد صار بوسع اي انسان ان يقتل الامام عبد الرحمن لثأر شخصي فلا يناله اي عقاب ، باعتباره منفذاً للأمر الشاهاني . لقد ألب والد عبد العزيز على نفسه في وقت واحد ، وفي ظروف حرجة ، غضب ابن الرشيد وحقد العجمان ، وعداء حكومة الاستانة .

وكان ذلك كثيراً ، على رجل وحيد اعزل ، بلا نصير .

اخطار من كل جانب ، والموت مترصد لدى كل خطوة ، والجواسيس والاعداء في كل مكان . وما من حمى امين يلجأ اليه عبد الرحمن وولده عبد العزيز . فواصل المسير ، مع حاميتها الصغيرة ، جنوباً حتى ادركا واحة « جبرين » حيث خلفا وراءهما اخر اثر من اثار المدنية متوغلين في الصحراء الكبرى الملتهبة القاحلة التي يطلق عليها البدو اسم : « الربع الخالي » والتي لا تغامر أية قافلة بولوجها .

انها ليست الصحراء بالمعنى المفهوم بل هي مزيج فوضوي لا ضابط له ولا انسجام من حجارة وصخور نجمت عن التقلبات الجيولوجية في عصور ما قبل التاريخ . مملكة للجهاد لا دغل فيها ولا عشبة تحجب وجه الأرض المجمع المليء بالحفر والاختاديد . وأما المياه فنادرة ، وان وجدت فهي غير صالحة للشرب طافحة بالمواد المعدنية . لا شيء يلقاه المسافر الا الظمأ وضربة الشمس والخبيل ... فالموت .

ولئن كانت هذه المنطقة واحدة من أشد المناطق قسوة في الكرة الأرضية ، فهي مع ذلك مسرح لأقوام هم الأكثر بداءة في شبه الجزيرة العربية : « المرة » .

لقد أرغمت قبائل « المرة » على النزوح عن اليمن خلال العهود القديمة ، شأنها شأن القبائل الأخرى ، ولكنها لم تبق في مجرى التيار البشري الصاعد شمالاً الى سورية ، بل أُخرجت منه واقصيت نحو الجنوب . وكانت من الضعف الى حد تعجز فيه عن فرض وجودها حول موارد المياه ، فلبأت ، مضطرة ، الى هذه المتاهات الخاوية التي لا ينازعها عليها منازع .

١٤

لجأ عبد الرحمن وابنه عبد العزيز الى الربع الخالي ، فأمنوا شر مطاردة الأعداء ، لأن ما من عدو عاقل أو غير عاقل يجازف باقتحام ذلك الجحيم . وكانت حياة مرهقة صلبة حولت الفتى عبد العزيز الى بدوي مكتمل . فالرياض منحته القوة والرشاقة والایمان . واما تطوافه في الصحراء فقد اكسبه قدرة السيطرة على نفسه ورغباته وروضته على الجلد الشديد ، وعلى ان يكتفي من دنياه بجفنة تمر ، وجرعات من اللبن ، وبخيمة من جلد المساعز يستظلها . واصبح الفتى القوي البنية المفتول العضل يافعاً ناشئاً مصقولاً بأعنف التجارب والمحن .



كان افراد « المرة » نماذج بائسة لبني البشر . فهم مديدو القامة ، نحلو الجسم يكسور رؤوسهم شعر أشعث يعلو وجوهاً شاحبة ، لا يتوفر لهم من الغذاء غير ما يحول دونه الموت جوعاً : قليل من التمر ، جردوث مشوي أو فأر ، بيضة نعامة ، وفي احيان نادرة ، غزال شارد . واذا استبد بهم الجوع شنوا غزوات يقطعون خلالها اربعماية كيلومتر لنهب ماشية القبائل الاسعد حظاً ، القاطنة عند اطراف المنطقة التاسعة .

وكانت هذه الحياة بالنسبة الى عبد العزيز عذاباً مريراً . لقد ردد والده على مسامعه منذ طفولته انه مدعو لأن يكون يوماً ملكاً على شبه الجزيرة العربية كلها . فيكفي الآن ان يلقي نظرة حوله ليرى انه ليس شيئاً يذكر : اكثر من مشرد منفي دون مأوى ولا اسرة ولا اصدقاء أو سلاح ، مرغم على التواري خشية الخصوم والاعداء .

ومع ان عبد العزيز شارك « المرة » في بعض غزواتهم فقد كان يشعر نحوهم بمقت عميق ، اذ لا تقل اخلاقهم ، سوءاً وانحلالاً عن مظهرهم وقذارتهم . وكان الفتى السعودي الذي نشأ على الفضيلة والشهامة والتمسك بأهداب الدين ، يثور ويفضب لما يراه من سلوك « المرة » واستهتارهم بقواعد الدين وتعاليمه ، لا يحترمون اية شريعة ولا يرعون الزمام ولا العهد . بل انهم لا يرقون الى اي مستوى من مستويات الشرف والمرؤة . لقد كانوا حثالة الجريرة العربية .

فكم من مرة تنعى عبد العزيز عن صحبتهم ، وانسحب الى قفر موحش من الصحراء للتعبد والتأمل . اليس العزلة هي التي امدت افضل ابناء الاسلام جيلاً بعد جيل بأسمى الوحي والالهام ؟ كانت نفوس في اغوار نفسه لينجو من عذابه ، ويفمض عينيه عن الجحيم الدنيوي الذي يتلطي بنيرانه ... نيران تلتهم كل شيء بالسنة عمياء من اللهب . لقد اكدوا له مراراً انه خلق لتحقيق امر عظيم ، فأمر عظيم هذا ان يحيا حياة المنبوذين وسط اناس لهم ، بالكاد ، سحنة البشر .

فهل ضل سبيل الهدى حتى يكون في هذا المصير ويقضى عليه بالشقاء الابدي ؟  
وهل كان من الذين أصمَّ الله أذانهم عن سماع كلامه ليستحق ما هو فيه ؟

ويسجد عبد العزيز ويمضي في الصلاة خاشعاً دون كلل ، وحيداً .. وحيداً  
الا من ايمانه بالله . ويسأل الله بادرة تنبئ بأنه ليس محكوماً بان يشقى الى الابد ،  
فتشعره الصلاة براحة واطمئنان وتوقد في نفسه جذوة الحماسة ، ويسمع من اعماق  
يأسه هاتفاً يحذره من القنوط من رحمة الله .

وخيل اليه في احدى الامسيات ، وهو يؤدي صلاة المغرب والشمس تتوارى  
ملونة الرمال والحجارة بلون ارجواني ،بانه يرى في الافق ، سعوداً الاكبر ومحمداً  
ابن عبد الوهاب ، وفي الافق الأبعد ، قادة الفتح العربي وخلفاء النبي  
الاولين .

ما اعظم ان يكون المرء واحداً من هؤلاء ، خادماً لدين الله ، قائداً للشعوب  
ومؤسساً للممالك . يقبض بيد من حديد على ناصية القبائل الغفيرة المتناحرة  
ويقودها لبناء صرح الوحدة العربية .

كان عبد العزيز يشعر بالهام وقوة لتحقيق تلك الفكرة ، اذا منحه الله القدرة  
وممكنه من بلوغ مبلغ الرجال . فانه سينتصر بأرادة الله وعونه ، سواء بالسلاح  
او بالعقيدة . ولسوف يجمع بين يديه السلطتين الدينية والسياسية ليتمكن من  
تحقيق الوحدة العربية ، مقتفياً كل خطوات الرسول العظيم .

ولكن لحظات الحماسة هذه لم تكن لتدوم طويلاً ... احلام فتى مراهق  
اضناه الصيام والحرمان ، اقرب الى هذيان المغموم . وسرعان ما تبدد الاحلام  
ويعود الفتى الى واقعه المرير .

وعصفت رياح الخريف الرملية العاتية تكنس الصحراء وتلفها بكفن من  
الغبار الكثيف . فالحشائش الاخيرة حول الابار تذوي . وجذور الخلفاء

المسحوقة لم تعد تصلح للطعام ، والطرائد قد اختفت ، والمؤن تتضاءل . وما هي الا اسابيع حتى تبلغ الرحلة نهايتها ، ولا يبقى امام الجوع والظمأ والحمى الا ان تفعل فعلها السريع الرهيب .

اوشك عبد الرحمن ان يستسلم . فبنو البشر لم يحطموا ارادته واكن الصحراء اقوى وسيكتب لها النصر . فهل قدر اذن للسعوديين ان ينقضي مصيرهم ها هنا ويضمحل كجدول تائه يغور في الرمال ؟ وهل يأتي الربيع عليهم هياكل عظيمة بيضتها اشعة الشمس فلا يعرف انسان اية آمال كانت تجيش في نفوس اصحابها ؟

جمع عبد الرحمن في خيمته ابنه والحراس الثلاثة الذين بقوا بصحبته وقال لهم وهو يستجمع اخر قواه :

- بات من واجبي ان احدثكم صريحاً ، فقد شاءت ارادة الله ، فيما يبدو ، ان اموت هنا ، ولا مرد ولا اعتراض على مشيئته والشكر والحمد له على كل حال . وليس لنا الا ان نتلو الفاتحة حتى يقضي الله امرأ كان مفعولاً .

- لا .. - قال عبد العزيز - لن نموت هنا .

- وما الذي جعلك واثقاً من ذلك ؟

- لانني ساصبح ملكاً على الجزيرة العربية عندما اكبر .

دهش عبد الرحمن لعبارة ولده ونظر اليه ملياً ففوجيء برؤية بريق في عيني الفتى ، لم يكن قد شاهده ابدأ من قبل .

١٥

لاحت لعبد الرحمن عند الافق في اليوم التالي ، بعد ليلة لم تنقطع فيها الصلاة ،

جماعه من الفرسان او فدهم امير الكويت حاملين دعوة الى الامام السعودي وافراد اسرته للاقامة آمنين في بلاده . وعرض عليه تأمين حاجاتهم كلها وتوفير مسكن ومستوى حياتي يتناسبان ومكانتهم .

لقد نجح السعوديون في اللحظة الاخيرة . ولكن ... ما هي الدوافع الكامنة وراء ذلك العرض السخي غير المنتظر ؟ ...

عندما كان الامام عبد الرحمن مشردا في الربع الخالي ، اغترب ابن الرشيد بانه اصبح سيداً واسط شبه الجزيرة العربية بدون منازع ، فحنث بيمين ولائه للاتراك حتى اخذ سادة الاستانة يشعرون بفدح الخطأ الذي ارتكبه عندما افسحوا لابن الرشيد ، مجال القضاء قضاء مبرما على منافسه السعودي ، فأصبح بعد ذلك طموحاً مناوئاً . لهذا قرر الاتراك تبديل سياستهم ومساعدة الامام عبد الرحمن على استعادة ممتلكاته ليقف في وجه ابن الرشيد .

ولكن المسؤولين في الاستانة وقد خبروا كبرياء عبد الرحمن واعتزازه في محاولة سالفه ، تحاشوا الاتصال المباشر به هذه المرة وعمدوا الى المداررة والاستعانة بطرف ثالث من وراء ستار .

فالشيخ محمد امير الكويت صديق لهم . وهو اذ يعرض مساعدة عربي لعربي دون قيد ولا شرط ، فلن تكون لدى الامام عبد الرحمن اية اسباب تدعوه لرفضها .

وعلى هذا ، تفاهم الاتراك مع امير الكويت على استضافة الامام في بلاده وتكريمه وتأمين نفقاته . وغني عن القول ان الحاكم الكويتي كان يأمل في ان يجني هو الآخر ، بعض الفوائد من وراء دعوته .

وإذ لم يعرف الامام وهو في صحرائه ، شيئاً عن ذلك الاتفاق ، قبل الدعوة سريعاً وانتقل مع اسرته للاقامة في الكويت في العام ١٨٩٥

والكويت ... ليست الرياض بأزقتها الملتوية ولا الفراع الرهيب في الربع الخالي . بل هي الميناء التجاري الهام قريباً من مصب نهر الفرات .

والكويتيون شعب مضياف ، تعج شوارع مدينتهم وارصفتها بنشاط يجتذب الناس من مختلف الاقطار والجنسيات ، ويتلاقى فيها التجار الوافدون من طهران وبومبائي ، والسوريون من حلب ودمشق ، والارمن والأتراك والاوربيون . وكانت القوافل تنطلق من الكويت في مختلف الاتجاهات : الى ايران واواسط الجزيرة العربية ومصر وسورية ، فازدهرت فيها التجارة ، كما ازدهرت الجاسوسية . وكان لمعظم الدول الكبرى ممثلوها في الكويت : قناصل ، وعملاء سريون متنكرون في اثواب تجار او مبشرين او علماء اثار .

بدأت حياة عبد العزيز في عالمه الجديد ، شبيهة بحياة اقرانه من الفتيان العرب ، فهو يتجول على رصيف الميناء ملتقطاً احاديث البحارة والتجار القادمين من عدن او غوا وسيلان ، مستمعاً الى حكايات المسافرين عما يجري في دمشق وبغداد والاسنانة ، فيشعر بأنه يعيش في وسط الكون . ولكن ذلك لم يصرفه عن هدفه : فتح الجزيرة العربية . ألم ينقذه الله لهذه الغاية ، من الموت في الصحراء .

وأشد ما كان يثير عبد العزيز ، احاديث أصدقائه الكويتيين من ابناء الطبقة الثرية الذين كانوا يتباهون بتعداد ما تحويه متاجر اباؤهم من ثروات وبالأموال التي سيرثونها . فكان عبد العزيز يتباهى بأنه حفيد سعود الأكبر وان اسمه سيحجب يوماً اسم جده العظيم ، مؤكداً انه سيعيد تحقيق الوحدة العربية ويقسم على ذلك . الايمان ، فيبتسم سامعوه سخرية ثم ينفجرون ضاحكين كلما اسرف في التأكيد .

لذلك قرر ابن عبد الرحمن ان يلقنهم درساً لا يُنسى ، وان يثبت للهازيين ما هو جدير بتحقيقه ، فقد صادف في السوق قبل ايام رعاة قادمين في قافلة من نجد ، فأستطلعهم احوال البلاد ، فأسروا اليه بأن أهل الرياض متألون من

ظلم ابن الرشيد وبأنهم لا ينتظرون سوى عودة السعوديين ليقفوا الى جانبهم .

سارع عبد العزيز الى استعارة جمل من والد أحد أصدقائه ، وانطلق وحيداً في الصحراء ليؤسس مملكته . ولكن الأمور لم تجر كما توقع . فإما ان يخبره كانوا متفائلين اكثر من اللازم وأما انهم خدعوه مستغلين تلهفه لتصديق كل ما يقولون ، فان اية قبيلة لم تتحرك أو تتحسس لاستقباله ، وعرج جملة الهرم الجرب بعد ثلاثة أيام ثم انكسرت رجله فأستلقى على الرمال ورفض ان يخطو اية خطوة .

بكى عبد العزيز حنقاً وغيظاً ، وقطع مرحلة من طريق العودة سيراً على قدميه . الى ان صادف قافلة اصطحبته بعد ما ناه يوماً كاملاً في الصحراء . وقفل راجعاً الى الكويت على ظهر حمار يحمل بالامتعة . فيا لها من رحلة بالنسبة لفلام مؤهل لفتح الجزيرة العربية .

وسمع أهل الكويت جميعاً ، بتفاصيل المغامرة الفاشلة . ونقلت فيم بعد الى الاستانة فتلقاها السؤلون هناك بالسخرية ، وجاءت ضربة موجعة لهيبة السعوديين . فاذا كان هذا هو كل ما في وسعهم ان يفعلوه ، فيا لضيعة اموال يدفعها أمير الكويت من حسابهم للانفاق على الامام عبد الرحمن واسرته .

عاد عبد العزيز يتسكع في شوارع الكويت وارصفتها التي فقدت جاذبيتها بالنسبة اليه . ولم يعد ينتشي بمشاهدة المراكب تجوب الميناء ولا بروايات البحارة وحكايات المغامرات .

أصبح جو الكويت مثقلاً خانقاً ، يثير فيه الحنين الى الصحراء . فهبوب العواصف على الخليج يفرق المدينة بالرطوبة الكثيفة ويبعث الروائح النتنة من المجاري والاحواض . لقد مل عبد العزيز حياة البطالة وكبت ما تجيش به نفسه من حيوية وحماسة للكفاح ، واستبد به الالم لعجزه عن استخدام هذه الامكانيات ، حتى راوده شعور الفائص في مازق سحيق القرار .



وزاد الأمور سوءاً في تلك الفترة ، تعقد أوضاع الإمام عبد الرحمن المالية ،  
 إذ انصرفت الحكومة التركية عن الاهتمام بالمنازعات الدائرة في أواسط شبه  
 الجزيرة العربية لانشغالها بقضايا أكثر أهمية . فاليونان تثير مشكلة جزيرة  
 كريت ، والدول الكبرى تكشر عن أنيابها ، والخزانة العثمانية تشكو الخواء .  
 فمن ذا يفكر بعد هذا ، في الأستانة ، بالصراع بين آل الرشيد والسعوديين .  
 وتوقفت المساعدات المالية التركية المخصصة لعبد الرحمن فما عادت تصل حاكم  
 الكويت ، فاحجم هو الآخر عن الاهتمام بحاجات الأسرة السعودية .

ما العمل ؟ فالمستقبل يبدو مظلماً ، وهل كتب على السعوديين الذين نجوا  
 من الهلاك في الرمال ان يغوصوا في أوحال ميناء صغير على الخليج العربي ؟  
 وكان عبد العزيز يتساءل : هل سأضطر للعمل في المرفأ لاعالة الأسرة ؟  
 عندما حدثت المفاجأة الثانية ، وكانت أشد اثاراً من ظهور فرسان امير  
 الكويت في صحراء الربع الخالي ..

١٦

كان لمحمد امير الكويت شقيق يدعى مبارك عاش واياه على خلاف وسوء  
 تفاهم وكان مقامراً مبذراً بدد ميراثه ثم تشاجر مع اخيه وسافر الى بومبياي ،  
 حيث اقام عدة سنين يشغل نفسه « بمشاريع » يبدو انها كانت ناجحة لان مبارك  
 كان ينفق عن سعة ويبدد كثيراً من الأموال على موائد القمار .

من أين كان يأتيه المال ؟ ... ذلك سره ؟ ولكن ثمة امر مؤكد هو ان المال  
 كان متوفراً بين يديه على الدوام .

رجع مبارك الى الكويت في العام ١٨٩٧ فرفض شقيقه استقباله في قصر  
 الامارة ، واخضعه لمختلف انواع المراقبة ، كما عرضه لمختلف دواعي الاستفزاز .

فتحمل مبارك هذه المعاملة القاسية برحابة صدر اثارت اعجاب الجميع .

وكان مبارك يسعى الى قتل الوقت بالنوم على الامام عبد الرحمن ، فيستعرضان مشكلات اواسط شبه اجزيرة العربية ، رغم ان الامام السعودي لم يكن يطمئن الى مبارك ولا يستسيغ ما ترمى اليه من أقاويل حيال ماضيه ومغامراته المالية وتعلقه بالخمرة . ثم ان عبد الرحمن كان يتخوف من ان تجلب له هذه الزيارات استياء محمد حاكم الكويت .

وأما شعور الشاب عبد العزيز فكان مغايراً . فمبارك يحدث بارع ، حلو النكتة غني بالتجارب التي اكتسبها خلال رحلاته ، وهو راوية للتاريخ لا يحارى ، فلا يمل عبد العزيز المتعطش الى المعرفة ، من الاصفاء الى احاديثه طوال ساعات

وابتهج مبارك بالعثور على مستمع شديد الانصات ، ولم يطل به الوقت حتى اكتشف ما يتحلى به ابن عبد الرحمن من مزايا تجمع عمق التفكير الى قوة الارادة وسداد الرأي والحماسة ، مما اثار اعجاب مبارك ، وجعله يتوقع له مستقبلاً كبيراً . أما عبد العزيز الذي بلغ الثامنة عشرة من عمره انذاك ، فمع انقطاعه عن الدراسة منذ خروجه من الرياض ، كانت الحياة القاسية التي عاشها منذ طفولته قد انضجت رأيه ووسعت ادراكه ، وجاء مبارك يعرض على الشاب ما فاته بتدريسه التاريخ والجغرافيا والحساب ، كما علمه قليلاً من الانكليزية واتخذة فيما بعد اميناً على اسراره .

فمبارك يخفي تحت مظهر الرجل الحامل ، نشاطاً كبيراً اطلع عبد العزيز منذ البداية على بعضه ، ثم تكشف له البعض الآخر . واخذ الفتى يحضر اجتماعات مبارك الخاصة ، حيث عرف اموراً كثيرة يجهلها ، والتقى رجلاً من مختلف الاقطار والأديان : تجاراً ومساهمين في شركات ، وعملاء بورصة ، وصيارفة وموظفين ورجال سياسة ومغامرين وعملاء للدول الكبرى من بريطانيين والمان

وفرنسيين وروس ، فدهش لمدى اتساع واهمية علاقات مبارك الذي كان يبدو ان له اصدقاء في عواصم العالم كلها .

ولم يكن مبارك يصبر عبثاً على سوء معاملة اخيه ، بل كان يتحين الفرصة المناسبة . . . الى ان حان موعد الثأر في اواخر العام ١٧٩٩ .

١٧

ذات يوم تسلل مبارك الى قصر الامارة تحت جناح الظلام برفقة اثنين من العبيد ، بعد ان رشح الخراس ، فذبح اخاه في فراشه ، ونصب نفسه اميراً على الكويت . واستقبل الكويتيون هذه الضربة المفاجئة باللامبالاة . لقد ارهقهم محمد بالضرائب ، فراودهم الامل بأن يكون مبارك اكثر تساهلاً من سلفه .

ولما استتب الامر للامير الجديد ، بادر الى تسوية اوضاع الاسرة السعودية . وجاء بعبد العزيز الى القصر ليستوفي دراسته .

كان الفتى السعودي خلال الاجتماعات والمحادثات التي يعقدها مبارك ، ينتحي زاوية من القاعة ، متدثراً بعباءته لاهياً بسبحته في الظاهر عما يدور حوله . ولكنه في الواقع ، كان شديد اليقظة يسجل في ذاكرته كل شاردة وواردة ، متعمقاً يوماً فيوماً ، في تفهم الشؤون المحلية المعقدة ، والقضايا العالمية الاكثر تشابكاً وتعقيداً .

وجاءت ردة الفعل في الاتراك وشيكا . فقد كان الامير محمد ممثلاً لهم في الكويت ، فقتله مبارك ، وتولى الامارة دون مشورتهم او رضاهم . وان جرماً كهذا لا يمكن ان يظل في منجى من العقاب .

ووجد الاتراك انفسهم بحاجة الى وسيط يتولى بالنيابة عنهم انزال العقاب

إذ لم تكن لديهم قوات مهيأة للقتال في الكويت، لذلك عادوا تحت ضغط الظروف إلى استرضاء ابن الرشيد موضحين له أن الذي يمتلك نجدا والرياض لا بد له من امتلاك الكويت كمنفذ إلى البحر، ووعده بالتنازل له عن هذا الميناء إذا طرد مباركاً واعترف من جديد بسيادتهم.

وكان ابن الرشيد مستعداً للموافقة، ما دام الأمر يتعلق بتوسيع ممتلكاته، فلما حظي بمساعدة الأتراك، عبأ قواته ومشى إلى الكويت لطرده «المغتصب».

جند مبارك عشرة آلاف متطوع لمواجهة الحملة، فتوفر لديه جيش يضم محاربين من قبائل شتى: «المنتفق»، و«العجمان»، و«الضفير»، وسواها. ومقاتلين قدموا فرادى من الرياض على ملل تحطيم سيطرة الرشيديين.

وعهد الأمير مبارك إلى الإمام عبد الرحمن بقيادة القسم الهام من قواته. بينما وضع عبد العزيز على رأس فصيلة مستعدة مهمتها لقيام بتدويرات الهدم للعدو، على أن يتجه جنوباً نحو الرياض فيشير القبائل النجدية وينشر الاضطراب خدف صفوف ابن الرشيد ويستقر السعوديون في ديارهم. كان أمير الكويت عامراً بالتفكير مطمئن إلى النصر كل الأطمئنان.

تحمس عبد العزيز لفكرة تولى القيادة لأول مرة حتى يتبت كفاءته. ويحور ذكرى غزوته السابقة الأليمة. فحقق المهمة الموكولة إليه بنجاح. وخذت القبائل بحمته والدفاع، فانتفضت جميعها، وقدمت له لتصوعين. فمد يده إلى الطرف الجنوبي لرياض، كان على رأس قوة لا يستهان بها من المحاربين.

وفجأة... وردت الأنباء المفجعة من الشمال حيث تدور معركة رئيسية. فقد التحم مبارك بقوات ابن الرشيد قرب قرية «الصريف»، فبدأت اشتد وطأة القتال لاذ محاربو «المنتفق» بالفرار، ونكص «العجمان» على أعقابهم. وهزم مبارك. ولم تنج بقية جيشه من الأباد إلا بفضل عاصفة هبت على المنطقة. كان الاندحار كاملاً والتراجع سريعاً نحو الكويت.

وتفككت قوات عبد العزيز بدورها عندما بلغت انباء الكارثة . وخشيت القبائل المتمردة ، من انتقام ابن الرشيد ، فسارعت بالعودة الى قراها . ولم يبق حول عبد العزيز سوى قبضة من المخلصين فعجل بالانسحاب الى الكويت حيث الفى والده ومباركاً منصرفين الى تنظيم الدفاع عن المدينة .

وتقدم ابن الرشيد على مراحل مضرماً النار في القرى والواحات . وشنق في « بريدة » التي انضمت الى السعوديين مئة وثمانين من اشراف المدينة . وفرض جزية باهظة على سكانها ، ثم اتجه نحو الكويت ساحقاً في طريقه آخر قوات مبارك في الجهرا على مسافة عدة كيلومترات من الساحل . وتهياً للوثوب على الميناء .

كان الامير مبارك امام كارثة ساحقة ، في مدينة مكشوفة ، بلا جيش ولا سلاح ولا انصار . واصبح سقوط الكويت في ايدي الاعداء امراً لا نزاع فيه ولا جدل . كما اضحى السعوديون مرة اخرى بين شذقي الخطر . كانوا يتوقون ان يدخلوا الرياض دخول الفاتحين ، ولكنهم لعبوا الورقة الخاسرة فانهارت احلامهم ولم يبق امام الإمام عبد الرحمن من نخرج سوى مواصلة الفرار حتى لا يقع غنيمة باردة في يد ابن الرشيد .

هياً عبد الرحمن وابنه الجمال استعداداً للرحيل ، ولغربة طويلة عبر الرمال . وكان كل شيء يبدو ضائعاً عندما لاحت في عرض البحر بارجة بريطانية ، القت مرساتها على مسافة قريبة من الميناء وسلطت مدافعها نحو المدينة ثم انزل قائد البارجة زورقاً الى البر ليعلن رسمياً ان مباركاً « صديق » لصاحب الجلالة ملك بريطانيا ، وان حكومة لندن اخذت على عاتقها حمايته ولا توافق على اخراجه من مدينته . ثم اوفد الضابط البحري رسله الى ابن الرشيد منذراً اياه بوجود سحب قواته . وفي الوقت نفسه ابلفت الحكومة البريطانية السلطان العثماني ان قرارها قطعي لا يحتمل المناقشة او الجدل .

ولم يسع الحكومة التركية الا الرضوخ للانذار، فنصحت ابن الرشيد بالتعقل،  
فجلا عن المنطقة وهو يضطرم غيظاً، وتنفس اهل الكويت الصعداء ونجا مبارك  
وكذلك السعوديون .

١٨

لم يدرك عبد العزيز مغزى تلك الاحداث في حينها الى ان اوضح له مبارك  
كل شيء . لقد اصبحت الكويت في الاونة الاخيرة احد المراكز الحساسة في  
الشرق الاوسط . وعلى هذه المساحة الصغيرة من الرمال التي تصارع عليها  
الاشوريون والبابليون والرومان والفرس والأتراك والعرب عبر القرون تتنافس  
وتتزاحم اليوم الدول الكبرى الحديثة وتوشك على الاصطدام : المانيا وبريطانيا  
وروسيا .

ففي نيسان ١٨٩٩ وقعت الحكومتان الالمانية والعثمانية اتفاقاً على مد خط  
حديد طويل من برلين - ماراً باستانبول - الى بغداد ، وكان مقررأ له ان  
ينتهي في الكويت . وهو مشروع يثير قلق الانكليز من اجل محافظتهم على  
استعمار الهند ، ولان تلك الطريق البرية ما كانت تريد بريطانيا ان تكون بيد  
دولة منافسة .

ان بريطانيا تشرف على كل الطرق « البحرية » المؤدية الى الهند : طريق  
الرجاء الصالح حول القارة الافريقية ، والطريق الثانية التي تمر بقناة السويس  
وعدن عبر البحرين الابيض المتوسط والاحمر ، وعبر المحيط الهندي . وكان  
يفلت من يدها امتلاك الطريق البرية المارة في اراضي المملكة العثمانية ، تلك  
الطريق التي كانت مقررة ان تجعلها تحت رقابتها عاجلاً او آجلاً .

ووضعت روسيا في الوقت نفسه مشروعاً لمد خط حديدي اخر يبدأ من



مدينة باكو ، فاصفهان ، ثم يعبر إيران حتى يصل الى الخليج العربي ، ولم تكن لحكومة القيصر الطامعة في المنطقة اي رغبة في رؤية الالمان او الانكليز يتمركزون على الخليج .

فالمخطط الألماني كان يتجه من الشمال صوب الغرب ، والمخطط الروسي من الشمال صوب الجنوب . واما المخطط البريطاني فلا ينطلق من انكلترا بل من الهند ، من الجنوب الشرقي الى الشمال الغربي ، عبر المحيط الهندي وخليج عمان . وهكذا فالمخططات كلها ، على تباينها ، كانت تلتقي عند نقطة واحدة هي الكويت .

ومن هنا كان مصدر الاهمية التي حظيت بها فجأة تلك البقعة من العالم . وكانت بريطانيا تراقب باهتمام ما يدور على الساحل الغربي من الخليج العربي وتتفاهم ، بمختلف الوسائل ، مع الامراء الصغار الذين يحكمون المنطقة ، تحسباً للازمة المتوقعة التي نشبت في العام ١٩٠١

كان محمد امير الكويت يحكم المدينة لحساب الاتراك حلفاء الالمان . وكان الابقاء عليه يعني ترك الباب مفتوحاً امام المطامح الجرمانية ، لذلك عزم الانكليز على التخلص منه واستبداله بأخيه مبارك المتقاعد سراً للعمل لحساب المصالح البريطانية منذ كان في الهند وتعرف فيها على عملاء الاستخبارات الهندية ، فعينت له مرتباً ضخماً ثناً « للخدمات » التي سيكون في وسعه تأديتها فيما بعد .

وقد رتب العملاء بانفسهم ، بكل دراية وعناية ، عملية اغتيال الامير محمد وشجعوا مباركاً الذي حل محله على مقاومة ابن الرشيد ووعده بالمساعدة المادية والعسكرية المطلقة ، فاندفع الى المغامرة مليئاً بالتفاؤل رغم ضآلة استعداده الحربي ، واثقاً من النصر ومطمئناً الى ان الانكليز لن يدعوه فريسة لابن الرشيد فتضيع عليهم الفائدة المتوخاة من ازالة الامير السابق محمد .

ولكن الأمور لم تجر ، بالضبط ، كما توقعها مبارك . فقد ظن الانكليز انه سيصمد امام ابن الرشيد بفضل الاموال التي اغدقوها عليه والمتطوعين الذين جندهم من مختلف القبائل المجاورة . ولم يكن في ودهم ابدا ان يتدخلوا بصورة مباشرة ، ولا ان يكشفوا الاهمية التي يعلقونها على منطقة الخليج العربي . لذلك فوجئوا ، بل انزعجوا ، لهزيمة مبارك ، وترددوا كثيراً في كشف اوراقهم امام القنصليات والبعثات الاوروبية الاخرى . فلما لم يجدوا مناصاً من التدخل قرروا القيام بتظاهرتهم البحرية لمنع ابن الرشيد من الاستيلاء على المدينة .

وكانت تظاهرة هامة اوصدت باب الكويت ، بعنف ، في وجه ابن الرشيد والاتراك والالمان ، وأرغمت هؤلاء على وقف العمل في الخط الحديدي ، وحرمتهم من اي منفذ على البحر . واكتفى الانكليز بهذا القدر من التدخل تجنباً لاثارة ازمة عامة فانسحبوا من الخليج متظاهرين بعدم الاهتمام بمبارك الذي ادى عجزه العسكري الى فتور البريطانيين .

وانثار هذا التحول في الموقف دهشة عبد العزيز وحمله على كثير من التفكير : فيمكن اذن ، ان يخسر الانسان جيشه ، وان يسقط في ساحة المعركة مثخناً بجراح ثم ينجو مع ذلك بأقل ما يمكن من الخسائر .

وتلك قدرة السياسة فهي ترغم الغالب على الانكفاء امام المغنوب !! فأى دور واسع تلعبه الدبلوماسية في تسيير شؤون العالم !

الا انه تبين ايضاً مدى ما يدور حيال البلاد العربية من مطامع . فالدول الكبرى تتربص بالامبراطورية العثمانية ، مترقبة ساعة انهيارها لتتقاسم في بينها الاشلاء . لقد سمع هذه العبارة مراراً اثناء محادثات مبارك دون ان يعلق عليها اهمية خاصة . اما الآن فهو يفهم بوضوح ماذا تعني . « فأشلاء » الامبراطورية ليست شيئاً اخر سوى البلاد العربية ، وأي وهم يعيش فيه العرب اذ يحسبون ان محض طرد الاتراك سيحقق لهم الاستقلال !

ادرك عبد العزيز ان الامور ليست بهذه البساطة . ان الدول الاوروبية  
تضرب النطاق حول « الرجل المريض » لتستولي على تركته ، وتفرض سيطرتها  
بديلة لسيطرتة .

وفهم عبد العزيز ان عليه ان يعمل وسط ظروف دقيقة في سبيل الوصول  
الى الهدف الذي يسعى اليه : توحيد البلاد العربية وتحقيق استقلالها . ان  
الاصطدام بهذه القوى الضخمة يجلب الدمار والهلاك . فالحكمة تقضي بالترقب  
والتريث ، والافادة من منازعاتها دون الاستسلام الى وعودها او قبول « حمايتها » .  
فقد دلت الانكليز على انهم لا يقيمون وزناً لغير مصالحهم ، من خلال الهمال  
الذي عاملوا به مباركاً ، بعد ان استخدموه لقطع الطريق على الاتراك .

وتعلم عبد العزيز ان القتال وحده لا يضمن النصر ، فلا بد من اللجوء الى  
الحيلة والمناورة وترصد الظروف المؤاتية ، كما اثبتت له الوقائع ان الوحدة لن  
تتحقق الا بأرادة العرب وان لا بد لهم من رجل قوي يقودهم في طريق الوحدة  
أو يفرضها عليهم فرضاً .

١٩

ناهر عبد العزيز الحادية والعشرين ، « وكان ، كما يقول ارمسترونغ ،  
صنديداً مهيباً ، وعملاقاً فتياً ، يبلغ من الطول مترين وأربعة سنتيمترات ،  
وتعلو هامته على جميع البدو في الصحراء . تنظر الى منكبيه القويين وحركاته  
الطلقة وخطواته الواسعة ، فتوحى اليك بالرجولة والنبيل . تم عيناه عن حدة  
مزاجه . وليس فيه صفة واحدة من صفات الضعة أو النقص . »

لقد نجا مبارك ولكن ابن الرشيد لم يهزم ، بل بقي يحتل نجداً بما في ذلك  
مدينة الرياض العاصمة . . . وكان مجرد التفكير بذلك هو مصدر قلق لعبد العزيز  
الذي لا يعيش الا على امل استئناف المعركة ، بينما يحاول والده اقناعه بصرف  
النظر عنها الى الوقت المناسب .

وكان الوالد يردد :

- الزمن لم ينضج لهذا بعد ، علينا ان نتذرع بالصبر ثم نهيء معاً حملة جديدة فيما بعد .

ولكن عبد العزيز لم يعد يطيق الانتظار . فها هو منذ سنوات سبع يروح ويحيى في شوارع الكويت ويهدر وقته في الاصفاء الى النجديين اللاجئين يحاول كل منهم ان يزيح التبعة عن نفسه ويلقيها على الاخرين . حتى « محاضرات مبارك بدأت تضجره وتفقد طلاوتها واهميتها . ان الحياة التي يحياها ليست جديدة بسعودي . فعبد العزيز لم يخلق ليكون تاجراً او موظفاً ، بل هو رجل حرب وقاتل ، وفي حاجة الى الحركة اياً كان الثمن ، لان الجلود الذي قاده اليه ظروف حياته يحطم اعصابه . فأفاق الكويت المحدودة تضيق بسعة طموحه ولا بد له من آفاق ارحب ، وياحبذا لو يتاح له ان ينطلق في الصحراء على متن مهر اصيل ، فالصحراء مليئة بالمناسبات السانحة لرجل من طرازه . كان واثقاً من النصر ، بمعونة الله ، ثقته بسعد نجمه واقتناعه بأن اهل نجد اذا تولى قيادتهم فسيهبون للسير وراءه وطرده ابن الرشيد من الرياض . غير انه لن يحقق شيئاً من هذا ما دام في عوز الى الرجال والسلاح والجمال والمال .

حاول عبد العزيز المرة تلو المرة حض مبارك على استئناف المعركة ضد ابن الرشيد فلم يلق اي تجاوب لان المغامرة الاخيرة الفاشلة جعلت مبارك اشد حذراً واكل رغبة في التورط بعملية جديدة قد تفقده نهائياً ثقة الانكليز .

ولكن ... هل يقنط عبد العزيز ؟ انه يواصل مساعيه بالحاج وعناد . ويطلب من مبارك ان يمكنه من تجربة حظه منفرداً ، حتى انتهى مبارك الى القبول تخلصاً من الحاحه فمنحه ثلاثين جملاً وثلاثين بندقيية مع ذخيرتها ومئتي ريالاً ذهباً ، ورجا اليه الا يعود ثانية الى ازعاجه .

ولم يكن عبد العزيز يطمع في اكثر من ذلك ، فهو لاول مرة ، سيد نفسه

يملك قوة وان كانت صغيرة ، ولكنها لا تأثر بأمر احد سواه . فقرر ان يثبت  
لامير الكويت كيف انه يحسن استخدامها .

وبدون ان ينتظر رأي احد من اهله ، بدأ عبد العزيز بوضع خطة لعملياته :  
سوف يستولي على قصر الرياض اولاً ، ثم يسيطر على المدينة . ويفرض بعد ذلك  
سلطانه على قبائل نجد ومنها يمضي في سبيل اهدافه الواسعة وبها يثبت اقدامه  
ويلفت اليه الانظار .

لقد ضاق ذرعاً بهذه الحياة القلقة ، وكفاه ان يكون العوبة في يد الاحداث .  
وان يتطاير في مهب الريح كورقه ذاوية . وسيقبض ، بغض النظر عن الافضل  
والاسوأ ، على ناصية مصيره بكلتا يديه ويوجهه في الوجهة التي يختارها .

في خريف ١٩٠١ غادر عبد العزيز الكويت على رأس قبضة من الفدائيين  
وتوغل في الصحراء ، بينما تخلف شقيقاه تركي وخالد لحماية الاسرة .  
وكانت بداية مغامرة كبرى .

٢٠

جهز عبد العزيز جيشه الصغير باقل ما يمكن من الضروريات حتى يوفر  
لرجاله اعظم ما يمكن من الطاقة على الحركة والتنقل : غطاء مطوي تحت السرج ،  
بندقية وذخيرة وكمية من التمر واللبن تكفي لثلاثة ايام .

شق طريقه وسط الكثبان وبدأ بشن سلسلة من الغارات الخاطفة على القوافل  
دون تحديد او تعيين ، فيغتم ما يغتم ويختفي سريعاً على رأس رجاله ، ليظهر في  
في اليوم التالي في مكان يبعد ٥٠ او ٦٠ ميلاً عن موقع الغارة الماضية مستفيداً من  
سرعة حركته وتنقله ليأمن شر المطاردة والملاحقة وليضرب ضربته حيث لا  
يتوقع احد ان يكون .

ولما كان عبد العزيز قد اعتاد الاكتفاء بساعات قليلة من النوم ، فلم يجد صعوبة في امتطاء جواده طوال النهار ، وتولي الحراسة في الليل بينما يكون رفاقه نياماً . انه في ذروة انسجامه مع نفسه

وغزا في احد الايام مضارب « العجمان » الذين ارادوا قتل والده خلال فرارهم من الرياض ، فغنم صندوقاً مليئاً بالذهب ، فتطير الخبر في شتى الانحاء وتناقل البدو الروايات عن ثراء عبد العزيز وجوده ، وعن سخائه حيال المحاربين الى جانبه ، فتهافت البدو من كل حدب وصوب ينضمون الى الجيش الصغير .

لم يكن عبد العزيز بالطبع ، قرصاناً ، ولا غازياً ، ولا كان هدفه الاثراء وجمع المال ، بل كان يرمي الى اثاره الحماسة والشعور في اهل نجد ، واثبات وجوده بين ظهرانيهم قبل ان يدعوهم للانضمام اليه .

غير ان القبائل النجدية لم تتحرك الآن . . . فقد ابيت نداءه من قبل ، خلال هجوم مبارك الفاضل . وتعرضت لانتقام فظيع ، وليس في نية زعماء هذه القبائل ان يُسئقوا اليوم كما شئق من سبقهم على رؤوس المآذن .

وحلت بعد ذلك . اسابيع الفشل والبؤس ، وفقدت غزوات عبد العزيز عنصر المفاجأة الذي كانت تعتمد عليه ، فقد نشر ابن الرشيد حاميته في كل مكان ، وتطوع الكثيرون للتبليغ عن تحركات عبد العزيز في الوقت المناسب ، وتيقظت القبائل فلم تعد تؤخذ على حين غرة ، وتبخرت الاموال ، وسقطت الجمال المرهقة فريسة المرض ، ونفدت الذخيرة ، وفر البدو المرتزقة بعد تقلص الغنائم ، وارسل ابن الرشيد قوة صغيرة حسنة التجهيز لمطاردة عبد العزيز فلم تلق كبير عناء في اخراجه من نجد ، فأنكفأ نحو الاحساء ليصطدم بقوة تركية خرجت لملاقاته فأرغمته على الانسحاب من المنطقة . ودفعه اليأس الى طلب



الحماية من « العجمان » فامتنعوا ، لانهم لم ينسوا بعد انهم كانوا ضحية احدى غزواته ، فأنحدر عبد العزيز جنوباً بعد ان سدّت في وجهه كل السبل ، ولم يعد امامه سوى مخرج واحد رهيب : العودة الى الربع الخالي .

ان مجرد التفكير بالعودة الى تلك الصحراء الكبرى القاحلة التي اشرف فيها على الهلاك ، كان كافياً ليبعث القشعريرة في جسده ، غير انه لم يكن ثمة مجال للاختيار ، فاما الربع الخالي ، واما العودة الى الكويت مهزوماً مقهوراً ، فقرر والألم يعصر فؤاده ان يقود جماعته الى الربع الخالي ...

فلما وصل الى واحة « جبرين » على حدود الصحراء الكبرى ، وجد في انتظاره رسالة من والده يقول له فيها :

« يا بني ! اننا قلقون على مصيرك ... عد الى الكويت ، هذه نصيحتنا اليك ، فان الوقت لم يحن بعد للعمل . »

اخذ عبد العزيز علماً بهذه الرسالة . فجمع من بقي معه من الرجال ، وعرض عليهم الموقف ولم يخف عنهم انهم في وضع يائس وخاطبهم قائلاً :

... لا يسعني ان اضمن لكم اية غنيمة ولا اي نصر ، بل لا استطيع ان اعدكم الا بسلسلة طويلة من الجوع والحرمان . اما انا فقد قررت مواصلة المعركة وما من قوة في العالم يمكن ان تشدني عن عزمي ، حتى ولو بقيت اقاتل وحيداً ، وحتى لو اقتصر انتصاري على الموت في ساحة القتال ... وانني سأفقد ، بمعونة الله ، من الظروف والفرص التي تهيؤها لي الصحراء . ولما كنت لا اريد ان ارغم احداً على اتباع خطواتي ، فأني اترك لكم حرية البقاء معي او العودة الى اهلكم .

وابدى معظم الرجال رغبتهم في النكوص والانسحاب . لقد تزعزعت ثقتهم وجزعوا امام الصورة القائمة التي رسمها لهم . ولم يثبت الى جانب عبدالعزيز سوى اخيه محمد وابن عمه جلوي والثلاثين رجلاً الذي خرجوا معه من الكويت

وعشرة رفاق آخرين قدموا من الرياض : خمسون رجلاً في مجموعهم بما في ذلك العبيد .

وانتضى عبد العزيز سيفه وقال لرفاقه : اقساموا على حد هذا السيف انكم ستظلون مخلصين لي مهما حدث .

ومر الرجال امام عبد العزيز واحداً بعد الآخر يرددون القسم .  
وقال عبد العزيز :

— ها نحن الان جميعاً اخوان بالله يرتبط كل منا بالآخر ، برباط لا تنفصم عراه .

ثم توجه الى رسول والده الامام عبد الرحمن وخاطبه بقوله :

— عد من حيث اتيت واخبر والدي بما رأيت ... قل له انني لن اطيق بعد اليوم روءية بلادي خاضعة لني ابن الرشيد ولا اسرتنا مشردة مطاردة يفرها العار . سأغامر بكل ما املك من رصيد في وجه الموت ، ولن اعود الا منتصراً فالموت اقل مرارة من الهوان .

جمع عبد العزيز رجاله فأسرجوا الجمال وسارت القافلة على مهل صوب الجنوب الى ان توارت عن الانظار .

٢١

اسقط عبد العزيز من حسابه اية محاولة لمهاجمة الرياض هجوماً مكشوفاً بالنظر لضعف عدد رجاله وقوة الحامية الرشيدية التي تحتل في المدينة مختلف المواقع الحصينة . كان امله الوحيد يرتكز على عامل المفاجأة . ولهذا بات عليه ان يختفي ويتوارى الى ان يظنه ابن الرشيد ميتاً فيرخي قبضته ويسحب حامياته ودورياته من الصحراء ويطمئن الى انه أصبح آمناً .

خمسون يوماً قضاها عبد العزيز وصحبه في اعماق الربع الخالي ، والاختباء في الصحراء عملية شاقة فكل شيء يفضح وجود الانسان : جذوة فيها بقية لهيب او ظل او اثر قدم .

ورجال عبد العزيز عاشوا حتى الان في غمرة القتال ، منتشين برائحة البارود ، يأكلون ما يغمونه من ماشية العدو . اما اليوم فقد خفضت جرايتهم اليومية الى ضالة تكاد ، او هي ، لاترد غائلة الجوع . يحرم عليهم الصيد حتى لا تفضح الطلقة وجودهم ، ولا يأكلون الطريدة الانيسة حتى لا يكشف الدخان مكانهم ، ويحظر عليهم الدنو من الآبار النادرة الا زحفاً على البطون وبعد هبوط الظلام . وكانوا مرغمين على اختزان الماء في قريهم الجلدية طيلة ايام فينتن ويصبح أجاجا . وجابتهم مشكلات اطعام الحيوانات في هذه الارض القاحلة . وكان عليهم ان يجترحوا في كل يوم معجزة لينقذوا الجمال من الموت جوعاً .

وبدأ رجال عبد العزيز يضيقون ذرعاً بهذه الحياة ، ويزدادون يأساً كلما امتدت اقامتهم في الربع الخالي .

« انها كانت اسوأ حقبة في حياتي - كما صرح عبد العزيز فيما بعد - فقد التحق بي اولئك الرجال ليقاتلوا . وكانت الحرب بالنسبة اليهم صناعة ولها ، فلم يدركوا الحكمة في ان افرض عليهم العزلة والنفي ، ورأوا في انسحابنا الى الصحراء عملاً عقياً ، فهم يريدون القتال او الرجوع الى نساءهم ، فحياة بغير نساء ولا قتال ، ليست في نظرهم جديرة بأن يحياها الانسان . ومع ذلك فقد اضطررت الى منعهم من السفر لرؤية ذويهم ولو لمدة اربع وعشرين ساعة . فقد كنت اعلم انهم لن يكتفوا السر وان اية كلمة ستفضح وجودنا وتكون لها عاقبتها الوخيمة . لقد علمتني المتاعب التي واجهتها في تلك الفترة ان حمل الرجال على الحرمان ونكران الذات اشد صعوبة من دفعهم الى ركوب الاخطار ! »

ويوماً بعد يوم ، كان على عبد العزيز ان يؤنب بعض الرجال او يشدد من

عزائمهم وان يذكرهم بقسمهم في « جبرين » :

– الم تقسموا على الولاء والثبات الى جانبي مهما حدث ؟ الم تتعهدوا بالسير ورائي ولو الى الموت ؟

فيجيبيون :

– نعم ... يا عبد العزيز . اننا دائماً على العهد ولكن هذا الذي نلقاه لأشد هولاً من الموت ...

وكان عبد العزيز يجعل من نفسه مثلاً في الصبر ويردد لهم الآيات والاحاديث التي تقوي معنوياتهم ، متحملاً من الارهاق النفسي ما هو فوق طاقة البشر ، بالاضافة الى الارهاق الجسدي ، اذ كان يؤدي الواجبات التي يؤدونها ويأكل مثلما يأكلون ثم يتولى الحراسة ليلا ساعات اطول مما يتولون .

وجاء شهر رمضان يضاعف الشدة ويزيد في العذاب ، ولكن الرجال تحمّلوا ذلك يجلد وصبر ، وبايمان شحذ قوة ارادتهم وزاد في تصميمهم على تحدي القوى البشرية ، وبدأوا يشعرون بالفخر من قدرتهم على تحمل ما لا يطاق حتى اجتازوا تلك العتبة الغامضة من الشعور الانساني حيث يتساوى بعده الممكن والمستحيل . ونحلت اجسادهم واتسعت احداقهم بفعل الجوع والحمى ولكنهم كفوا عن التبرم وانقطعت الشكوى .

وقال عبد العزيز فيما بعد :

– لو تقدمت – انذاك – نحو الجحيم وامرت رجالي بأن يلقوا بأنفسهم فيه ورائي ، لفعّلوا ذلك مغتبطين وهم يطلقون صيحات الابتهاج .

في العشرين من رمضان ، بعد صلاة المغرب ، ابلغ عبد العزيز رجاله ان ايام المحنة قد انتهت واصدر اوامره بالاستعداد للمسير . فحزمت الجماعة امتعتها وسلكت طريق الشمال ، وعندما وصلت عند بشر « ابو جفان » توقفت قليلا حيث احتفلت بعيد الفطر ثم ادركت في الليلة التالية سلسلة الهضاب الواقعة على بعد حوالي عشرة كيلو مترات جنوبي الرياض .

وعندها ترك عبد العزيز الجمال في ذلك الموقع قرب بشر « ديل العشب » بعهدة عشرين من الرجال وقال لهم :

... لا تلحقوا بي الامتى دعوتكم ، وان لم تصلكم مني اشارة ما خلال اربع وعشرين ساعة ، فعودوا الى الكويت وقولوا لعبد الرحمن ان ابنك عبد العزيز قد مات .

وتقدم عبد العزيز بصحبة الرجال الاربعة الاخرين سيرا على الاقدام خلال واحات النخيل المترامية جنوب العاصمة النجدية الى مسافة عدة كيلومترات ولم تكن لديه اية خطة معينة ، وليس له حليف يعول عليه ، بل انه ترك الحكم للظروف يتصرف بوحياها وعلى ضوء تطورها . لقد اسلم امره الى الله ليهديه سواء السبيل .

توقف عبد العزيز ورجاله مرة اخرى في « الشمسية » حيث تنتهي واحات النخيل وتبدأ بساتين الرياض ، فقطعوا شجرة نخيل فقصوا فروعها واحتفظوا بالجذع . ودعا عبد العزيز ابن عمه جلوي وستة رجال لمرافقته ، وترك بقية الجماعة الصغيرة قرب خزان للمياه بأمره اخيه محمد بعد ان اوضح لهم مهمتهم :

البقاء على اتصال بالمؤخرة وانتظار تعليماته « واذا لم يصلكم رسول من قبلي

حتى ظهر الغد ، فانطلقوا بعيداً والتحقوا بالآخرين . لأن ذلك يعني اننا متنا جميعاً ولا حول ولا قوة الا بالله .

وحمل عبد العزيز وابن جلوي والرجال الستة جذع النخلة على اكتافهم وتوغلوا في البساتين متسترين بالظلام ، وكانوا يتوقفون بين الفينة والفينة وراء دغل او في منحدر ، ليطمئنوا الى ان احدا لم يشعر بوجودهم . وهكذا وصلوا حتى قاعدة الاسوار قريبا من المدافن الواقعة على طريق مكة فهبطوا في حفرة وانصتوا : سمعوا كلباً ينبح من بعيد ، ثم وقع خطوات الحراس يروحون ويغدون في اعالي الاسوار . انها ساعة تبديل الحراسة . واصفوا الى حارسين يتبادلان الحديث ، ويغيبان بعد ذلك في الظلام . ثم خيم الصمت على مختلف الارحاء وتم كل شي على ما يرام .

اسندوا جذع النخلة الى حافة السور ، واتخذوا منه سلماً تسلقوه واحداً بعد الآخر . ثم قفزوا فوق الحاجز الى الزقاق وراء السور .

انه منتصف كانون الثاني (يناير) والليل بارد والهواء قارس . لذلك لجأ اهل الرياض الى بيوتهم واحكموا اقفال النوافذ والابواب . وخبأ عبد العزيز ورجاله اسلحتهم تحت عباءتهم تفادياً لاية ضجة ، وتسللوا بمحاذاة الجدار حتى ادركوا اخر الزقاق المقفر وانتهوا الى بيت راع يدعى « جويسر » الذي يواجه بيت الحاكم .

طرق عبد العزيز باب المنزل طرقتاً ناعماً فردت عليه امرأة من الداخل تسأل من الطارق ؟

فقال عبد العزيز بصوت منخفض :

— رجل من طرف الامير عجلان الى « جويسر » ابغي شراء بقرتين .

فصاحت المرأة :



– امض في طريقك ... ان ابواب الشرفاء لا تطرق في مثل هذه الساعة  
من الليل .

ورد عبد العزيز :

– افتحي الباب فوراً يا امرأة والا شكوت « جويسرا » الى الحاكم فيعاقبه  
اشد العقاب .

ثم انتحى مع رفاقه جانب الحائط ، ومرت فترة صمت وسكون انشق  
بعدها الباب واطل منه بواب يحمل بيديه مصباحاً ، فأمسك اثنان من الرجال  
بعنقه لمنعه من الصباح ودخل عبد العزيز ورجاله الستة المنزل واغلقوا الباب  
خلفهم بهدوء .

كان حامل المصباح خادماً قديماً لدى الامام عبد الرحمن واسرته ، فهمس ابن  
جلوي في اذنه ، وهو يشير الى اطول شخص بين الموجودين :

– انه عبد العزيز !

فقال الرجل منفعلًا :

– انه سيدنا ، وجثا على ركبتيه وهو يردد : كم اصبح كبيراً .

فأردف ابن جلوي :

– سيصبح اكبر من ذلك اذا قدمت له المساعدة .

– وماذا تبغون ؟

– معلومات عن الحاكم .

فقدم لهم الرجل مغتبطاً كل ما يريدون وقال :

– ينام الحاكم عجلان عادة في حصن «المصمك» زيادة في الحرص والاطمئنان .  
ويغادر الحصن بعد شروق الشمس بقليل فيتفقد الجياد التي تجلب له الى الساحة

الكبيرة . ثم يمضي في نزهة على جواده او يتوجه الى منزله سيراً على الاقدام .  
وهو في كلا الحالين يظل محاطاً بجمع من الحراس .

ولم يكن هنالك سوى بيتين يفصلان بين منزل « جويسر » ومنزل الحاكم  
الذي لا تقوم عليه اية حراسة ما دام لا يبيت فيه .

صعد عبد العزيز ورفاقه الى سطح البناء ومضوا يزحفون على صدورهم حتى  
اجتازوا سطح المنزل الثاني ووصلوا الى البيت الملاصق لمنزل الحاكم ، حيث  
وجدوا رجلاً وامرأة نائمين فكهوها بسرعة وقيدوها الى السرير .

اصبح بيت الحاكم في متناول ايديهم ولكنه كان يعلو السطح الذي بلغوه  
بطابق واحد ، فجعلوا من اكتافهم سلماً صعدوا عليه الواحد تلو الاخر ، فلما  
ادركوا سطح بيت الحاكم استلقوا ارضاً وظلوا فترة من الوقت حابسي الأنفاس  
لا يسمعون الا ضربات قلوبهم . ان احداً لم يشعر بوجودهم ، وكل شيء من حولهم  
هاديء ساكن . فخلعوا احذيتهم وولجوا المنزل حفاة وهبطوا الى الطابق الارضي  
فوجدوا فريقاً من الخدم فسجنوهم في قبو واحكموا اقفال الباب . وامر عبد  
العزيز احد رجاله بحراسة السجناء ثم صعد مع رجاله الخمسة الى الطابق الثاني  
واستدل على غرفة نوم الحاكم ، فأبقى رجاله على الدرج وحشاً بندقية بهدوء  
ودخل الغرفة مع ابن جلوي فوجد شخصين نائمين في السرير : زوجة الحاكم  
عجلان واختها .

انتصبت زوجة الحاكم في هلع ، فاطبق عبد العزيز بيده على فمها ، في حين  
كم ابن جلوي المرأة الثانية . وكانت زوجة الحاكم امرأة من الرياض تدعى  
« مطلبة » وهي ابنة رجل عمل في خدمة الامام عبد الرحمن ايضاً ويعرفه عبد  
العزيز حق المعرفة ، فقال لها :

— لا تتحركي يا « مطلبة » والاقتلتك ، الاتحجلين من الزواج بواحد من  
هؤلاء الرشديين .

فقلت المرأة :

— لقد تزوجته بعد رحيلكم ولم يكن في وسعي ان ارفض . ولكن ماذا  
جئت تفعل هنا ؟

فأجابها عبد العزيز بهدوء :

— جئت ابغي زوجك الحاكم .

قالت :

— عجلان في الحصن ومعه ٢٤ رجلا على الأقل .

فسألها عبد العزيز متالك الاعصاب :

— متى يرجع الى البيت ؟

— بعد ساعة من الفجر .

— عليك اذن بالتزام الهدوء وهذا كل ما نبغيه منك .

ثم سجنها عبد العزيز مع اختها في الطابق الارضي حيث احتجز الخدم .

كان قد انصرم الليل الا اقله ولم يبق على شروق الشمس سوى اربع ساعات  
فقام عبد العزيز بجولة تفقد خلالها المكان . البناء يتألف من عدة غرف ، ومن  
قاعة امامية فسيحة تطل على الساحة العامة من مقصورة في زاويتها الامامية ،  
مقصورة مخصصة للنساء ذات نوافذ خشبية مقفلة ، ولكن بها فتحات صغيرة  
تمكن من رؤية ما يجري في الخارج .

وتطلع عبد العزيز من خصاص المقصورة فوجد الساحة غارقة في السكون  
والظلام ورأى شبح قصر « المصمك » الضخم عند الطرف الآخر من الساحة .

ووضع عبد العزيز خطته للهجوم ، فقرر الانقضاض على الحاكم لدى خروجه

من القلعة واستغلال الاضطراب الذي سوف تحدثه المفاجأة لاقتحام الحصن والاستيلاء عليه . وبعث برجلين لاستدعاء شقيقه محمد ورفاقه الذين كانوا ينتظرون اشارة منه عند واحة النخيل ، فلما وصل المدد الصغير وضع عبد العزيز رجلين للحراسة والمراقبة من وراء الشبابيك وطلب اليها تحذيره لدى اول بادرة .

وامضى الرجال بقية الليل في الاصغاء الى آيات من القرآن يرتلها احدهم بصوت منخفض قاموا بعدها الى تأدية صلاة الصبح ، فلما دنا الصباح اتاهم الخادم الامين بالقهوة والطعام فأكلوا بشهية ، ثم توجهوا نحو القبلة فأدوا صلاة الفجر ، وتفحصوا بعد ذلك اسلحتهم وترقبوا ما يخبئه لهم النهار من مفاجآت .

٢٣

كانت خيوط شمس الاولى تشق استار الظلام ، عندما اعطى احد الرجلين اشارة التحذير ، فتطلع عبد العزيز من خلال النافذة فرأى في الساحة عدداً من العبيد يسوقون جياد الحاكم . ان حامية القلعة بدأت تستيقظ وكانت اوامر عبد العزيز لرجاله واضحة :

اربعة يترصدون خلف شبابيك لاطلاق النيران على رجال عجلان الذين يحرسون مدخل الحصن ، عندما يعدو عبد العزيز مجتراً الساحة . ومضى على الباقيين الا ان يتبعوه بأسرع ما يمكن .

وفتح اخيراً احد مصرعي باب قلعة نكبير وظهر حاكم عجلان على رأس السلم محاطاً بحراسه ، ثم نزل متمهاً نحو الساحة لتمتد الجياد . وحلت اللحظة الحاسمة .

هتف عبد العزيز برجاله وهبوا درجات السلم قفزاً من التطبيق الاول الى

الطابق الارضي ، وانطلق من الباب الخارجي نحو الساحة وراح يعدو بكل قواه حتى ادرك « عجلانا » فانقض عليه بسرعة البرق الخاطف . وفي خلال ذلك كانت طلقات الرجال الاربعة المتحصنين في منزل الحاكم قد بدأت تنهمر على الحراس .

بادر عجلان الى امتشاق سيفه وحاول ضرب عبد العزيز فتلقى الضربة بعنق بندقيته ثم طوق الحاكم بيديه ورفع عن الارض ، ولكن « عجلانا » تمكن من ان يشبك بقدمه ساق عبد العزيز ، فأفقده توازنه وسقط الرجال ارضاً متشابكين يتمرغان في التراب . ولم يدرك الحراس في بادىء الامر ، ماذا حدث بالضبط ، فتبعثوا يتراكضون ينشدون الامان داخل الحصن ، وصرع ابن جلوي احدهم فيما كان يهم بتسديد سيفه الى ظهر عبد العزيز ، واخذ عجلان يقاوم وقد فقد السيطرة على نفسه تحت وطأة غريمه ، فلما اتيح له التملص من بين يديه اندفع نحو الباب وهو يصيح : « الى السلاح » فالتقط عبد العزيز بندقيته ورماه بطلق اصابه في ذراعه وارغمه على القاء سيفه ووثب عليه مرة اخرى وامسك بساقه في اللحظة التي اوشك فيها ان يبلغ باب الحصن .

واندفع رجال عبد العزيز خلال ذلك كتلة واحدة نحو الحصن واختلط الحابل بالنابل على درجات السلم : مجموعة متشابكة من الرجال يتداحجون بضربات السيوف او طعنات الخنساجر ، فيما كان بعض جنود الحامية يقذفون المهاجمين بالحجارة من اعلى السور وبعضهم الاخر يطلق النيران الغزيرة من المرامي .

تمكن عجلان من تحرير احد ساقه ، فلبط عبد العزيز لبطة قوية اصابته في اسفل بطنه ، فترنح من الالم وتخلي عن غريمه الذي جذبه بعض الجنود وادخلوه الى الحصن فاختفى . وحاول عدد من الحراس اغلاق الباب خلفه ولكن ابن جلوي وثلاثة من الرجال اندفعوا نحوهم فامسكوا بمصراع الباب وحالوا دون اغلاقه ودخلوا الى القلعة ، ثم تبعهم عبد العزيز بعد استرداد وعيه ، فعثر على

الحاكم عجلان يعدو هارباً في باحة الحصن مخلفاً وراءه خيطةً من الدماء . فهرع عبد العزيز وابن جلوي في اعقابيه ، فادركاه وهو يصعد درج المسجد للاحتواء فيه ، وبادره ابن جلوي بضربة قاصمة من سيفه ، فمات صرخة واحدة وهوى متدحرجاً على الارض .

ولم يضع عبد العزيز وابن جلوي اية لحظة بل رجعا مسرعين لمؤازرة رجالهما الذين كانوا بأمس الحاجة اليهما ، بعد ان قتل منهم اثنان واصيب اربعة بجراح خطيرة ، وهم يقاتلون واحداً ضد عشرة رجال ، قتالاً ضارياً زحزح حامية القلعة عن مواقعها ، ثم اصبح اشد ضراوة بوصول عبد العزيز وابن جلوي ، حتى تمكنوا من قتل او جرح عدد من الجنود الرشديين بلغ النصف ، والقوا بهم من على الاسوار . ثم حاصروا بقية الجنود في احد الاروقة المسدودة فأرغموهم على الاستسلام .

ولما انتهت المعركة بعث عبد العزيز بالنادين يعلنون على الملأ استيلاءه على الحصن ومصرع عجلان ، فلما وعى اهل الرياض النبأ ، تراكضوا جميعاً الى اسلحتهم واستولوا على المواقع الاخرى المحصنة في المدينة وابدوا ما تبقى من حامية ابن الرشيد ورحبوا بالمنتصر أحر ترحيب .  
وعند الظهر كان عبد العزيز سيد الرياض .

٢٤

اوفد عبد العزيز رسولاً يحمل البشرى الى والده في الكويت ويقول له :  
- لقد استعدت عاصمتنا على رأس عشرين رجلاً ، فتعال سريعاً لأن الشعب بانتظارك .

غادر الامام عبد الرحمن الكويت ، فلقني في منتصف الطريق الى الرياض



كوكبة من الفرسان ارسلهم عبد العزيز لمرافقته . ولما وصل موكب عبد الرحمن بعد ايام الى عاصمة نجد احتشد سكان الرياض على جانبي الطريق وهتفوا طويلاً للامام .

انها اول مرة يطأ فيها عبد الرحمن تراب الرياض منذ العام ١٨٩٠ . أحد عشر عاماً مرت منذ رحيله عنها ، وبدأ الآن يشعر بالتعب والارهاق . لقد اضنته حياة المنفى واهرمته قبل الاوان ، فدعا العلماء وائمة الشرع واشراف المدينة الى اجتماع في القصر اوضح لهم فيه نواياه :

- ارى انكم بحاجة الى رجل اشد حيوية وانضر شباباً ليحكم بينكم ، وقد عرفتم ولدي عبد العزيز وخبرتموه وقدرتم ما يتمتع به من مزايا وصفات خارقة لذلك قررت التنازل له عن كل سلطاتي السياسية والعسكرية مكتفياً بمهامي الدينية مكرساً بقية عمري للصلاة وعبادة الله .

فانحنى العلماء والشيوخ أمام ارادة الامام .

وجرى الاحتفال في اليوم الثاني بانتقال السلطة الى عبد العزيز في الساحة العامة بحضور جموع السكان . وقدم عبد الرحمن لابنه سيف عمه الأكبر سعود الكبير الذي يتوارثه السعوديون جيلاً بعد جيل ابتداء من الامام محمد بن عبد الوهاب الذي ورثه عن اجداده التميميين ، فقدمه الى محمد بن سعود ، وانتقل منه الى ولده عبد العزيز ومنه الى سعود الكبير .

جثا عبد العزيز امام والده فقبل نصل السيف ثم نهض فأمسك « بالربان » ولوح به في الفضاء الى الجهات الاربع ، واقسم بالله العظيم على ان اي عدو لن يجتاز عتبة الرياض ما دام هذا السيف في قبضته .

وأصبح عبد العزيز امير الرياض .

انتفض ابن الرشيد غيظاً وهو يتلقى انباء الضربة الجريئة التي ولت عبد العزيز على الرياض وقال :

- لقد وضع نفسه في الفخ .

ولكن عبد العزيز لم يهدأ وكان يعلم ان بينه وبين كسب الجولة ، جهداً شاقاً طويلاً ، وادرك بحس استراتيجي مدهش في شاب من عمره انه سيمنى بالهزيمة اذا بقي مرابطاً في المدينة وان عليه ان يغادرها بأسرع ما يمكن ليملك حرية الحركة والتنقل . فتوجه على رأس نخبة من خيرة فرسان الرياض الى « الحوطة » جنوبي نجد ، وتمركز في اقليم « الافلاج » بين قبائل « الدواسر » التي تنتمي اليها والدته . وراح من قاعدته هذه يشن سلسلة متواصلة من الغارات على القوافل الرشيدية ، بينما بقي الامام عبد الرحمن في المدينة فرمم اسوارها ، واتخذ الاحتياطات الضرورية لجعل الرياض قادرة على تحمل حصار طويل الامد .

شرع ابن الرشيد في مطاردة عبد العزيز . واتخذ من « الدلم » ، حيث هزم ابراهيم باشا الامير فيصلاً ، مقراً لقيادته ، ففاجأه عبد العزيز بهجوم صاعق وهزمه في الواحة الممتدة غربي المدينة ورده نحو الشمال . فانضمت منطقة « الافلاج » الى عبد العزيز واقرت له بالسيادة .

ولكن ابن الرشيد عاد فزحف في حملة ثانية متجهاً نحو الكويت متوخياً استدراج غريمه الى خارج المناطق التي يتمتع فيها بتأييد السكان ويحظى بكل مساعدة منهم لعملياته الحربية . ودب الذعر في قلب مبارك فطلب النجدة من عبد العزيز . . . عبد العزيز نفسه الذي كان منحه بالأمس ثلاثين جملاً اجرّب وطلب اليه ألا يعود بعدها لازعاجه .

ولم يتردد امير الرياض في نجدة صديقه القديم وسارع على رأس قواته لادراك ابن الرشيد قبل ان يدرك « الكويت » .

ولكن حملة ابن الرشيد لم تكن سوى خدعة حربية ، فلما تأكد من انها انطلقت على عبد العزيز وانه اصبح بعيداً عن عاصمته ، استدار هو على اعقابيه وطوق الرياض ، فصمدت المدينة للحصار بفضل ما عززه عبد الرحمن من وسائل الدفاع عنها .

وادرك عبد العزيز انها خدعة اخذ بها . لقد كيّف خطته الحربية حتى الآن بخطط ابن الرشيد ، مما افقده الكثير من القدرة والوسيلة ، فقرر ان يتحول الى المبادرة ، فلم يرتد الى الرياض لأنقاذها من الحصار كما كان منتظراً بل مشى نحو الغرب الى ديار الشمريين ، ومر شمالي العاصمة قاطعاً بذلك طريق الانسحاب على العدو وشرع في تدمير القرى والمضارب الشمرية التي يؤلف ابناؤها القسم الاكبر من قوات ابن الرشيد . فلما علم الجنود وهم يحاصرون الرياض بأن عبد العزيز يحرق قراهم ويتلف محاصيلهم ومواشيهم انسحبوا بسرعة عائدين الى بلادهم . وفشل ابن الرشيد مع ما بذل من محاولات في كبح جماح المنسحبين ، حتى تبخر جيشه في خلال ايام ولم يستطع غير تغطية انسحابه واللجوء الى « حائل » .

واستغل عبد العزيز الى اقصى حد ما حققه من انتصار فاحتل على التوالي ، مدينة « شقرا » والبلدان المجاورة وطهرها من حاميات ابن الرشيد واصبح يسيطر بعد اسابيع على منطقة تمتد الى مسافة ثمانين كيلومترا شمالي الرياض .

٢٦

استمر القتال سجالا بين عبد العزيز وابن الرشيد طوال العامين ١٩٠٣ و ١٩٠٤ ، دون ان يتمكن احدهما من الوصول الى نتيجة حاسمة ، حتى اتبح لعبد العزيز في العام ١٩٠٤ ان يوجه الى عدوه ضربة كبرى .

تقع منطقة « القصيم » وهي اخصب اراضي نجد ، بين الرياض وبلاد شمر وبرز مدنها « بريدة » و « عنيزة » ، وفي كل منها حامية لابن الرشيد . ولكن الاهالي كانوا ساخطين عليه وناقمين . وفي بداية موسم الامطار الذي يسجل عادة بدء توقف العمليات الحربية ، تغيب ابن الرشيد لبعض الوقت عن المنطقة ، فأغتنمها عبد العزيز فرصة للاغارة على قلب « القصيم » فاستولى على « عنيزة » على حين غرة وقتل حاكمها ، ثم حاصر « بريدة » المنيعه . فأرسل ابن الرشيد فرقة من المحاربين الشمرين بقيادة ابن عمه عبيد لانقاذ المدينة . وكان عبيد هو نفسه الذي قتل الامير محمداً شقيق الامام عبدالرحمن وعم عبد العزيز في موقعة « البكرية » ومزق جيشه واخذه اسيراً .

وكان عبد العزيز يمتطي صهوة جملة عند ما جيء بعبيد اليه .

فقال له وهو على الجمل :

— انت هو اذن عبيد ، الذي قتل عمي محمداً .

وقفز عبد العزيز ارضاً واستل سيفه من غمده وبرقت عيناه بالغضب ، والتمع السيف في يد عبد العزيز وهو يهوي به بسرعة البرق الخاطف فمزق احشاء عبيد وجندله متخبطاً بدمائه فوق الرمال

واستسلمت « بريدة » في اليوم نفسه واعترف القصيم كله ، حتى حدود بلاد شمر ، بسيادة عبد العزيز ، وتلاه « الحرج » ، فضعها الى « الافلاج » . فشمّل سلطان عبد العزيز معظم مملكة نجد السالفة .

٢٧

ادى مقتل عبيد المفجع ، بعد اربعة عشر عاماً من مصرع سالم ، الى تفجير

غضب ابن الرشيد : « ان السعوديين هؤلاء حقاً من طينة واحدة ولن تعرف الجزيرة العربية الامان والاطمئنان الا بالقضاء عليهم وابدانهم . »

وتطلع ابن الرشيد الى الاستانة يطلب المساعدة والعون من الأتراك ... او ليس حليفهم وموضع ثقتهم ؟ ودرست الحكومة التركية طلبه بعناية، فرأت ان من الضروري وضع حد لمطامح ذلك الشاب السعودي الذي اصبحت جرأته ومطامعه وتعطشه الى الفتح مثار قلق. فأصدرت وزارة الحربية التركية اوامرها الى والي بغداد ليضع حداً للتأثر المتمرد ويقبض عليه حياً او ميتاً ويقطع رأسه ويرسله الى الاستانة .

وهكذا ... تمركزت في مطلع حزيران ١٩٠٤ ثماني كتائب تركية من الجنود المشاة تؤازرها بطاريتان من المدفعية المتحركة في « سامراء » على ضفاف دجلة حيث كان ابن الرشيد قد استدعى جميع القادرين على حمل السلاح من المحاربين الشمرين . واتجهت هذه القوة الكبيرة في اواخر حزيران جنوباً وتقدمت على مراحل صغيرة نحو حدود « القصيم » .

كانت سرية من الجنود تكفي قبل سنوات ، لحسم الموقف مع عبد العزيز ، اما اليوم ، فقد دلت ضخامة الوسائل التي استخدمها الاتراك ، بصورة قاطعة ، على مدى تعاضم قوته ، وعلى ان مكانته قد تحطت النطاق المحلي واثارت اهتمام الوزراء العثمانيين . كل ذلك كان مدعاة للاعتزاز . وكان في الوقت نفسه مصدر خطر كبير ، فحرص عبد العزيز على الا يخطيء في تقدير حرج الموقف : فالتهرب من المعركة يعني ضياع الهيبة والانحدار الى مستوى ادنى مما كان عليه قبل الاستيلاء على الرياض ، كما ان لمجاهة العدو محاذيرها الهائلة نظراً للتفاوت الكبير في القوى . ووازن عبد العزيز بين الامور طويلاً ، ثم قرر خوض المعركة وبادر فور اتخاذ قراره هذا الى العمل بكل ما يمد البأس من اقدام فعياً كل قواته في جوار قرية « البكرية » واستعد للمعركة الحاسمة التي بدأت فجر الخامس عشر

من تموز ١٩٠٤ ، وهو يوم لم تكد تشرق شمسهُ حتى أصبح قائظاً لاهباً . وبدأ عبد العزيز الهجوم لتغطية ضعفه بالنسبة الى قوة العدو ، فألقى بكل ثقله على الجناحين حيث تجمع فرسان « شمر » فتمكن من اختراق صفوفهم مرات اربعاً متتالية وارغمهم على التشتت والتفرق .

ثم اختلف الامر عندما اراد التوغل في صفوف المشاة الاتراك اذ تكسرت محاولته المرة تلو المرة امام مربع كثيف من الرجال والفولاذ ثابت كالصود لا يتزعزع كان بمثابة نقطة التقاء لاعادة تجمع البدو الشمرين .

كانت خطة عبد العزيز سيئة ، وما تبين خطأه الا بعد فوات الأوان . فلما حل العصر وبدأت علائم الأرهاق تبدر على رجاله فتحت المدفعية التركية نيرانها وامطرت السعوديين بوابل من القذابل فأثار دويها هلع السعوديين الذين لم يألفوا ذلك النوع من الأسلحة من قبل ، وشاء عبد العزيز ان يثبت لهم ان هذه المتفجرات تحدث من الضجة اكثر مما تؤدي فترجل عن جواده واندفع وسط سيل من الطلقات لمهاجمة العدو مهيباً بالرجال ان يسيروا على غراره . وفجأة . انفجرت قبلة امامه على مسافة امتار عدة فأصابت يده اليسرى ، واصابته بجرح بليغ في ركبته ، فنزفت دماؤه غزيرة ونقل فقد الوعي الى خيمته .

ولما افتقد المحاربون لسعوديون قائدهم فلم يجدوه ، ظنوه قد مات واخذ بعضهم يلوذ بالفرار على غير هدى ، فلما سترد عبد العزيز وعيه ادرك انه سيخسر المعركة اذا لم يلتحق فوراً برجاله ، فضمدت جراحه على عجل واستوى على جواده ، رغم الآلام المبرحة التي كان يعانيها ، وظهر مرة اخرى وسط المعركة فأثار ظهوره غير المنتظر حماسة المقاتلين ورد اليهم معنوياتهم ومنع تحول الانسحاب الى تشتت وانهيار . ونجح ، متغلباً على آلامه ، في وقف موجة الدعر والهلع ورد الفارين الى صفوفهم وعادة شيء من النظام الى تشكيلاته المضعفة . ولكنه لم يستطع تفادي الخسار جيشه نحو الجنوب .



لقد هزم ابن عبد الرحمن . ولكن العثمانيين ، لحسن حظه ، لم يحسنوا استثمار النصر الذي حققوه . ولو كان الامر بيد ابن الرشيد ، الذي خسر الفأ من جنوده ، لما تردد في مطاردة عدوه والقضاء عليه . ولكن المشاة الاتراك كانوا متأثرين جداً بحرارة الشمس ، فتخلوا عن مطاردة انفريسة وانصرفوا الى قرى «القصيم» لاعادة النظام اليها . . . اي بالاحرى لنهبها .

٢٨

مر عبد العزيز بفترة من الضيق الشديد ، حتى لكأن كل شيء تحالف ضده . واخذت الحمى تنتابه من جراء جرحه الذي لم يعالج كما ينبغي ، وتبخر جيشه . وتهرب رؤساء القبائل الذين طلب منهم المساعدة والعون . وكان الاتراك ، في خلال ذلك ، يتجمعون لتوجيه الضربة القاضية اليه .

لعل الحظ قد تخلى عن عبد العزيز بقسوة تدعو الى اليأس . . . الى يأس اي انسان آخر غير عبد العزيز فهو «فهد الصحراء» كما لقبه اصداقائه ، والمتاعب اية كانت وطأتها لن تنال من همته وارادته ، بل ستشجذهما . لقد شب على الاخطار وواجهته ظروف يائسة فلم تفقده الثقة بنفسه ولا بسعد نجمه ، ولم تززع قناعته بان الحظ لا يد ان يقف ، ولو في اللحظة الاخيرة ، الى جانبه .

شرع عبد العزيز في العمل سريعاً وأبى ان يستسلم للآلام التي كان يعانيها من جراء جروحه . وبحث عن الحلفاء في كل مكان ، وبعث بالرسل الى «مطير» و «عتيبة» و «الدواسر» والى «عنيزة» في اقصى الشمال .

ولما لم يفلح الرسل في تحقيق المهمة لافتقارهم الى قوة الاقناع الكافية ، تولى الامر بنفسه وطاق بالقري يلتمس العون من رؤساء العشائر لرد المغير ، وهو يردد على مسامعهم :

- ان الحرب التي اخوضها ، هي حربكم انتم ايضاً ، فالواجب يقضي بأن تساعدوني على قهر ابن الرشيد ، وليس في وسعكم الوقوف على الحياد مترقبين نتيجة المعركة لان ابن الرشيد قد ارتكب جريمة لا تغتفر بأدخال الاتراك الى اواسط شبه الجزيرة العربية ، فاذا اتيح لهم تثبيت اقدامهم فقد مضى وانتهى عهدكم بالحرية والاستقلال . هبوا الى سلاحكم وقاتلوا معي .

ولكن رؤساء القبائل ما كانوا ممن يسهل اقناعهم ، فلقد كانوا حذرين مشككين يرددون في قرارة نفوسهم : ان مؤازرة السعوديين تحمل في طياتها خطر الوقوع تحت سيطرتهم . فالوحدة العربية التي ينادي بها عبد العزيز شيء جميل ، ولكن لفوضى الصحراء جاذبيتها وسحرها ... فلم لاندع السعوديين والرشيديين يتصارعون ويأكل بعضهم بعضاً ، حتى اذا سقطوا اعياء جثنا نحن فسلخنا جلود الفريقين .

وخاطبهم عبد العزيز بمزيد من الحماسة وقوة الحججة ، ولم يترك سييلاً الى ذلك الا سلكه ، حتى بدا لهم وكأنه بطل الاستقلال العربي الذي يملك ثقة بالنفس لا تلين ولا تتزعزع . وانتهى بهم الى الاخذ بوجهة نظره ، بعد موازنة طويلة بين السلب والايجاب ، فوعده بتقديم ما في وسعهم من المعونة له .

وهكذا تنقل امير الرياض الشاب من بلد الى بلد ، على عكازه وهو يعرج . موضعاً للسكان ان نزاعه مع ابن الرشيد ليس نزاعاً على سلطة او عرش ، ولكنه قضية حياة او موت بالنسبة الى جميع قبائل الصحراء . وكانت يتكلم بأندفاع اشد اثاره من الخطب الحماسية ، وبشجاعة أخذ بها السكان فوافقوا على استئناف المعركة ، فعبا عبد العزيز كل من كان في عمر يمكنه من حمل البندقية ، والهب مشاعر القبائل ، وصادر كل دابة تصلح للنقل . وانقض على الاتراك وابن الرشيد فجأة على رأس جيش جديد . ودارت الملحمة هذه المرة شمالي الرياض قرب قرية «شناة» .

وتخلى عبد العزيز عن خطته التي اتبعها في السنة الماضية ، فقرر مستفيداً من التجارب ان يترك الشمريين وشأنهم وان يركز هجومه على المدفعية التركية مباشرة فيقضي على مركز تجمع العدو ورجاله في ذروة قوتهم . وكانت تلك الخطة هي الفضلى .

وهجم الفرسان السعوديون بحماسة مضطربة على الكتائب التركية حتى التوى خط دفاعها تحت وطأة الصدمة وتزعزع . واخترق عبد العزيز ورجاله جبهة العدو من المقدمة الى المؤخرة ثم استداروا يعاودون الهجوم ، فمزقوا التشكيلات التركية التي ارتجت وفقدت مواطيء اقدامها ، فأركن الشمريون الى الفرار .

كان المشاة الأتراك جنوداً ممتازين فتمكنوا من اعادة تنظيم صفوفهم في شكل مربع ، وكسروا الطوق الذي ضربه السعوديون حولهم ، وقاموا بعملية انسحاب تكررت في اليومين التاليين . ثم تراجع الاتراك مرة اخرى في اليوم الثالث لتفادي الحصار عند هبوط الظلام ، فضلوا الطريق وراحوا يهيمون على وجوههم دون هدى بعيدين عن خط الابار الى ان نفذت مؤنتهم من المياه ، فاستبد بهم الظمأ وتشققت شفاههم وايديهم والتهبت عيونهم بفعل الحرارة والغبار ، وفقد كثيرون احذيتهم فمشوا حفاة على الرمل الملتهب وتحولت اقدامهم الى كتل حمراء . وما هي الا ايام حتى تحولت الكتائب العثمانية الى طابور من الفارين المترنحين يشقون طريقهم وسط الكشبان .

واستمر ذلك النزوح طيلة ايام ستة ، لم يكف الفرسان السعوديون خلالها عن مطاردة المنهزمين واصطياد المتخلفين منهم عن الطابور فيجردونهم من اسلحتهم ويتوارون وسط عاصفة من الغبار . وساهمت نساء المحاربين «الدواسر» في قتل مئات من الجنود الأتراك الضالين ، فلم ينج من المذبحة سوى عشرين جندياً تمكنوا من الوصول الى البصرة وهم على اخر رمق من الحياة .

لم يكن بوسع الأتراك ان يصبروا على هذه الهزيمة الشنعاء ، او يسكتوا عن كارثته « شنانة » التي تقوض هيبتهم وسمعتهم في انحاء الجزيرة العربية كلها . فأنب السلطان عبد الحميد والي بغداد على سوء تقديره لقوة خصمه وأمره بتعبئة فرق عديدة لاستئناف المعركة . واما المحيطون بعبد العزيز من قادة الحركة الوهابية فكانوا ، في غمرة النصر ونشوته ، يتحدثون عن سحق الأتراك والزحف الى الاستانة وخلع السلطان ووزرائه .

ولكن عبد العزيز كانت له نظرته الواضحة والبعيدة الى الموقف فلم ينحرف في تيار الفرحة العامة . فهو يعرف مقدار الجهد الذي عبثه من اجل قهر ابن الرشيد والقضاء على حملة تركية كانت لا تقبل عن عشر كتائب . فاذا شاءت الامبراطورية العثمانية اليوم اخذ الأمور على محمل الجد وبذل الثمن المطلوب فبوسعها ان تعي وضه قوات لا يستهان بها وان يكون هناك اي شك بالنتيجة . فلسوف يقضى على قوات عبد العزيز وتسحق سحقاً . ورأى عبد العزيز بشقب نظره ان مواصلة القتال امر مستحيل وان لا بد من التفويض ، ولكن ... هل يقبل الأتراك بذلك ؟

أسر عبد العزيز بفكرته وما أقر عليه رأيه ، اني مبارك حاكم الكويت وطلب اليه ان يكون الوسيط بينه وبين الأتراك . وكان مبارك على علاقة حسنة مع « مخلص » باشا والي البصرة فنظم لجنة عملاً بين مخلص والامير عبد الرحمن . واتفق الطرفان بعد مناقشة حامية على عدد من النقاط ، يعترف سلطان الاستانة بموجبها بسيادة عبد العزيز على نجد بكامله . وفي مقابل ذلك يوافق عبد العزيز على قامة قوة عسكرية عثمانية في « حامية » حامية في

« عنيزة » و « بريدة » .

وصدق عبد العزيز على الاتفاق مرغماً مع انه اتاح له الفرصة ليتنفس الصعداء . اما بعض الشيوخ وانصار الحرب بأي ثمن وبعض القادة العسكريين الذين توهموا بأنهم حرموا من نصر سهل ، فقد شجبوا الاتفاق وذهبوا الى حد اتهام اميرهم بالخيانة ! وراحوا يخاطبون انفسهم :

– اي استسلام هذا للاستانة ؟ انه لغير جدير بسعودي . انها سياسة جبانة تنطوي على الخيبة . ان اسلافنا سيخجلون اذا رأونا نتصرف هكذا .

ويحاول عبد العزيز تهدئة خواطرهم قائلاً :

– صبراً ... فان الجولة لم تنته بعد ، ان هذه السياسة تحمل الخيبة للأتراك اكثر مما تحمل الينا فالمهم في هذا الظرف ان نكسب الوقت .

– إلام الصبر ... هل هذا كلام يليق بالمحاربين ... ان قليلاً من الصبر ايضاً وينتهي بنا الامر الى اسوأ مصير .

٣٠

وصلت الحاميات التركية ، وتمركزت في « القصيم » وسار كل شيء ، في البدء ، طبيعياً تقريباً . ثم ساءت الامور سريعاً وبرزت المتاعب امام المحتلين بصورة غامضة وغير متوقعة : عصابات تقطع الطرق وتنهب القوافل التركية القادمة من البصرة ، فيعجز جنود السلطان رغم جهودهم الفائقة ، عن وقف هجماتها ورد غاراتها ، ورغم الدوريات العديدة التي كانوا يرهقون انفسهم بأطلاقها في مختلف الاتجاهات .

وازدادت الحالة سوءاً خلال الاشهر التالية وعم الاستياء انحاء المنطقة كلها ،

وتضاعفت الغارات والهجمات ، ليلة بعد ليلة ، على القوافل التركية ، حتى بدا واضحا ان الاتراك عاجزون عن توفير الامن للمناطق التي اخذوا على عاتقهم حمايتهم ، وباتت المؤن والاسلحة والذخيرة لا تصل الى اهدافها الا نادرا ، وأصبحت الحاميات التركية معزولة عن قواعدها .

وانقضى عام فاهترأت ثياب الجنود الاتراك وبدأوا يموتون جوعاً ، ولا يجدون في بعض الانحاء ما يأكلونه سوى لب النخيل . وكانوا يبيعون ، في انحاء اخرى ، بنادقهم للحصول على الطعام . وعجزوا عن الاستمرار في تحمل قسوة المناخ وشدة الحر ، ومعظمهم من الاناضوليين الذين الفوا المناطق الباردة . واخذ المشاة العثمانيون يلوذون بالفرار .

وأسقط في يد حكومة الاستانة ، حتى لم تعد تعرف ماذا تفعل ؟ فلجأت الى عبد العزيز تطلب معونته ومساعدة حامياتها على وقف اعمال الغزو ، فاستقبل الطلب بأبتسامة ، وابدى مظاهر الود للضباط الاتراك ، كما ابدى اسفه لأضطراب حبل الامن واختلال سبل المواصلات ، ونصح الاتراك بالتزام حصونهم لالتقاء الاذى ، ولكنه لم يقدم لهم اية مساعدة فعلية ، بل شاءت المصادفات بعد ذلك ان تتعاضد اعمال النهب في الاشهر التالية .

وفي خلال ذلك ، كانت الحكومة تركية في حالة يرثى لها . فنظام عبد الحميد ، يواجه مختلف المتاعب . واليمن والحجاز كآلة على ابواب الثورة . بينما تتأجج ، تحت الرماد ، نيران ثورات اخرى في القاهرة ودمشق ، وسالونيك ، وتنتظر الوقت المناسب للانفجار .

وكان الاتراك مرغمين على توزيع قواتهم في ارجاء الامبراطورية كافة ، بحيث لم تعد تتوافر لديهم قوات كافية للتدخل الجدي في شبه الجزيرة العربية . ولم يكن بوسعهم التفكير بتعزيز حامياتهم في « القصيم » في الوقت الذي كانت فيه ارمينيا

والبلقات في ذروة الغليان . ولم يخف ذلك الوضع على عبد العزيز ، ولا جهل ان بوسعه ان يغتتم الفرصة ، فيهاجم الاتراك ويطردهم من البلاد، ويستعيد هيئته التي تأثرت باتفاقه مع الاتراك . ولكن عبد العزيز لم يشأ التراجع عن الخطة التي رسمها ، وهي تقضي بأخراج الاتراك بواسطة حرب العصابات . وكان يراقب بسرور نجاح خطته وبلوغها النهاية التي توقعها فلم يرهق نفسه في تحمل متاعب كبرى ، في سبيل الوصول الى غاية سوف يعمل الزمن على القائها بين يديه غنيمة باردة دون قتال .

ولما بلغ الاتراك منتهى اليأس لجأوا الى الرشوة كوسيلة حققت لهم الغاية احيانا كثيرة ، وعرضوا الذهب على عبد العزيز ثمنا لمساعدته . ولم يكن امير الرياض ثرياً ، بل كان بأمس الحاجة الى المال ، عصب الحرب ، الذي يمكنه من شراء السلاح وتجنيد الرجال واكتساب بعض الحلفاء . ومع ذلك فقد رفض قبول المال من الاتراك وردم خائبين .

كان عبد العزيز يعتقد بان قوة العثمانيين آخذة الى الاضمحلال ولهذا رأى انه من غير المستحسن اقامة اية رابطة منهم . وادرك الاتراك اخيراً ، انهم سقطوا في فخ محكم . وان افضل ما يفعلونه هو التملص من ذلك الفخ والابتعاد عنه لانقاذ البقية الباقية من حامياتهم في القصيم . وهكذا انسحبت اخر القطعات التركية في العام ١٩٠٥ واختفت معها عصابات السلب والنهب بسحر ساحر . لقد ربح عبد العزيز الجولة دون ان يخرج عن حياده الظاهر .

وكان المفروض فيمن عارضوا الاتفاق مع الاتراك ان ينظروا بأرتياح ، الى الطريقة المرننة ، التي تمكن بواسطتها عبد العزيز من التخلص ، لولا انهم كانوا مسرفين في التشارم والتجهم ، لا يرون سوى الجانب الاسود من اية قضية . لقد اخذوا على عبد العزيز اتفاقه مع الاتراك ، وترقعوا ان يؤدي الى كارثة . فلما انسحب الاتراك حنقوا لان عبد العزيز خيب ظنهم .



ان في طبيعة عبد العزيز شيئاً ما ، يُدرك ولا يفسر ، ولكنه لا يسرهم .  
فتلك الثقة بالنفس ، وتلك اللامبالاة في الاستماع الى نصائحهم ، ما كانتا مما يوحى  
لهم بالثقة ، ويبعث على الاطمئنان .

ويتساءل هؤلاء بكثير من القلق وفيما بينهم : ما عساه يكون مستقبل نجد في  
ظل رجل من هذا الطراز ؟ ...

٣١

جلا الاتراك . ووجد عبد العزيز نفسه ، مرة اخرى ، وجهاً لوجه امام ابن  
الرشيد ... لقد تبدلت الآن ميازين القوى ... لقد اصبح ابن الرشيد وحيداً ،  
باهت النجم ، بينما كان نجم عبد العزيز آخذاً في التآلق واللمعان ، تتسابق القبائل  
الى كسب مودته والانضواء تحت لوائه بعد النصر الذي احرزوه على الاتراك في  
« شنانة » والذي ادى الى تعاظم هيئته . وكان عبد العزيز اخيراً مسلحاً تسليحاً  
جيداً بفضل المعدات التي توفرت لديه من غزو القوافل العثمانية .

ومع ذلك ، فأبن الرشيد ، رغم محنته ، كان ما يزال محارباً يخشى بأسه ،  
جديراً بأن يسدد الى غريمه ضربات مفاجئة . واي خطأ في التقدير قد يؤدي الى  
عواقب وخيمة . فالحياة في الصحراء متقلبة كالرمال ، وربما نجمت عن هزيمة  
واحدة ، او خطوة في غير موضع ، محادير تسفر عن تمزق الحلف الطري العود  
الذي نسجه عبد العزيز من حوله .

ومنذ ان اتم الاتراك انسحابهم ، شرع عبد العزيز يشن سلسلة غارات  
ومناوشات على ابن الرشيد فما عاد يعرف الاستقرار ، واخذ هذا المحارب العنيد  
يشعر بالارهاق لأول مرة ، منذ مارس صناعة الحرب ، وبعد ان ادركته  
الشيخوخة وفقد مرونة الشباب وجلده .

وصل ابن الرشيد وجيشه في احدى الامسيات الى جوار قرية «مهنا» فنصب معسكره هناك ، واهمل اقامة الحراسة لتوفير الراحة لجنوده المرهقين من جهد متواصل بذلوه خلال الايام السابقة ، ولعلمه علم اليقين بأن عبد العزيز بعيد عن هذا المكان ، وان لا خطر يتهده البتة

وكان عبد العزيز في الواقع على مسافة عشرة فراسخ من روضة «مهنا» فلما ابلغه جواسيسه ، نبأ وجود ابن الرشيد واقامته في معسكر مكشوف على ارض عراء ، اصدر اوامره الى رجاله بامتطاء جيادهم واطلاق الاعنة لها الى المدى الاخير . وجد عبد العزيز ورجاله في السير طوال الليل ، فلم يتوقفوا لالتقاط انفاسهم حتى وصلوا الى حافة معسكر ابن الرشيد في الساعة الثالثة صباحاً . وهبت رياح الشمال قبيل الفجر فأثارت زوبعة من الرمال ، فترجل عبد العزيز ومحاربوه وتقدموا وسط واحة النخيل متسترين بسحابة كثيفة من الغبار فلم يشعر بوجودهم احد ، حتى دهموا معسكر ابن الرشيد ، وفاجأوا جنوده النيام ، فقتلوا معظمهم طعنًا بالخنجر تحت خيامهم قبل ان تتاح لهم فرصة المقاومة والدفاع عن النفس .

كان بوسع ابن الرشيد ان يلوذ بالفرار تحت ستار البلبلة العامة ولكنه لم يكن جباناً ، فحمل سلاحه وخرج من الخيمة . وكان النهار لم ينبجج بعد والريح ما تزال مزججة عاصفة ، ونادى ابن الرشيد رجاله ، فلم يلب نداءه احد . هل قتلوا جميعاً ؟ ام تبدد صوته وسط العاصفة ، فاذا به وحيد هائم في وسط المعسكر المهشم في عتمة الصباح المبكر الذي لم ينجل بعد ، تلفه زوبعة كثيفة من الغبار . وعثر به بعض الجنود السعوديين ، فأردوه قتيلاً بنيران بنادقهم ، وهو يحاول الاحتباء خلف شجرة نخيل .

وسار نبأ مقتل ابن الرشيد في انحاء نجد كلها . وتردد صدها بعيداً في الصحراء . . . ان السعوديين قد انتصروا وان ابن الرشيد قد مات ، وان لا

خوف بعد اليوم من تأره او انتقامه .

وخلف ابن الرشيد أميراً مرهق قليل التجارب ، فذبحه احد اشقائه ، ثم ذبح هذا الاخير بيد ابن عمه ، واخذ جميع الذكور في الاسرة الرشيدية يتنازعون الارث والخلافة ، وانجرفت قبائل « حائل » في الصراع فتحاربت ومزق بعضها بعضاً ، وانتشرت الفوضى كالوباء . ولم تعد « حائل » تشكل اي خطر على الرياض

٣٦

ولما دخل عبد العزيز الرياض منتصراً ، توافد الناس جميعاً لتهنئته وتجديد الولاء له . ونودي بعد الصلاة وببشارة من الامام عبد الرحمن ، بالأمير الشاب ملكاً على نجد وإماماً ، بحضور الشيوخ ورجال الدين ورؤساء الاقاليم والقادة العسكريين . وقبض عبد العزيز على السلطتين الدينية والسياسية ، وبدأ حله صباحاً يتجسد حقيقة واقعة ، واصبح عبد العزيز ، ابتداء من ذلك اليوم ، يلقب بأبن سعود وان كان رفاق السلاح القدامى قد استمروا في تلقيبه على سبيل الدالة « بفهد الصحراء » تذكراً للمفزة الرائعة التي نقض بها على عنق عجلان ، واستعاد على اثرها عاصمة بلاده بقبضة يده .

واقام اهل الرياض وضواحيها لاحتفالات لمدة اسبوع . وذبخوا الذبائح ، بعد سنوات من الهول والكفح . ولكن عبد العزيز لم يكن راغباً في ان يتراخى القوس الذي احكم شده ، وما كان فتح نجد ، في نظره ، سوى مرحلة اولى نحو المهمة الكبرى والهدف الاعظم . فم نقضت ايام ثمانية على تسنمه العرش حتى دعا خيرة محاربيه الى اجتمع في ساحة المدينة ليعرض عليهم مشاريعه . وكانت تقف في مقدمة الحشد ، بقيادة ابن جلوي ، سرية صغيرة من

المحاربين المشوهين بالجراح . انهم الاحياء الخمسة عشر من فريق الفدائيين  
الاول ، الذين اقساموا له بين الولاء في واحدة « جبرين » . فتحدث اليهم ابن  
سعود من على سلم القصر وشكرهم على ما ادوه من خدمات بوفاء ونكران ذات ،  
واعاد الى اذهانهم كل ما حققوه معاً : احتلال الرياض ، وفتح الافلاج والخرج  
والقصيم ، ومعركتي البكرية وشنانة ، وطرده الاتراك ، والانتصار النهائي على ابن  
الرشيد . ثم قال :

– لقد اجتزتم معي تجارب قاسية .. اني اعلم ذلك ... واعلم ايضاً مدى  
الشجاعة التي كانت سلاحكم للتغلب عليها ... ان ما حققناه لكثير ولكنه قليل  
بالنسبة الى ما يتوجب علينا تحقيقه . لست اريد ان ارغم احداً على اطاعتي  
ولكنكم اذا مشيتم ورائي فاني اعدكم ، بعون الله ، بأن اضفر لكم اكاليل المجد ،  
وبأن اجعل منكم امة عظيمة ذات سيادة وكرامة ومنعة . اني اعلم كم تتحرقون  
شوقاً الى طرده الاتراك الغرباء والمنحرفين عن الدين الصحيح ، من بلادنا . ولهذا  
اقول لكم : لا تتركوا اسلحتكم عرضة للصدأ بل هيئوها لمعارك اخرى ... والى  
الامام لنشر العقيدة وفتح الجزيرة العربية ان شاء الله ...

وفي الحال ، امتشقت السيوف من اغمادها ، وبرقت النصال في وهج الشمس ،  
وتعالت الهتافات من اعماق الصدور ، وماجت شوارع الرياض وساحاتها طوال  
الليل بالغناء والرقص . ثم تفرقت الجموع عائدة الى قراها . وأصبحت خلال  
الايام التالية ، الكلمات المثيرة التي قالها الملك الشاب لجنوده ورجاله المخلصين ،  
تدوي في جميع انحاء نجد :

– الى الامام ... لنشر العقيدة وفتح الجزيرة العربية ، ان شاء الله ! ..

الجزء الثالث  
فتح جزيرة العرب  
(١٩٠٥ - ١٩٢٨)



ابن سعود هو الآن في السابعة والعشرين ، نحيل الجسم مديد القامة . شامخ كالضود ، تحيط به هالة من نشوة الظفر ، لا يخطر ببال أحد ان يجادل في كفاءته العسكرية ، ولا يجهل احد كيف هزم الأترك ، وسحق بن الرشيد ، وفتح نجداً بحد السيف . ولكن سلطته ، لم تكن مع ذلك ثابتة الدعائم بعد .

فقبائل اواسط شبه الجزيرة العربية التي تدرست بالحرية المطلقة طوال قرون من البداوة ، لم تكن مستعدة ابدأ للخضوع لسلطة سيد كائناً من يكون . وكان كل نظام بالنسبة اليها بمثابة ارغام لا يطاق واعتداء على كل ما لديها من مقدسات . فالروح العشائرية كما يحدثنا الدكتور فيليب حتي تقضي ، قبل كل شيء ، بالولاء الكامل غير المشروط للقبيلة ، تقابله على صعيد أعلى ، نزعة فردية لا تحب . وكان الولاء للقبيلة والتعصب لها ، يجعل منها وحدة تامة قائمة بذاتها مكثفية مطلقة . وكانت كل قبيلة اخرى بالنسبة اليها ، فريسة مشروعة ، او هدفاً محللاً للغزو والنهب .

وبعبارة اخرى فان القبائل لأشبه ماتكون برمال الصحراء ، لا يمكن جمعها الا في قبضة مشدودة ، حتى اذا تراخت القبضة قليلاً تسربت ، كما تسرب الرمال من خلال الاصابع ، وعادت اكثر تباعداً وانفصلاً .

ومعظم القبائل التي ساندت ابن سعود لم تفعل ذلك بدافع مبدأ او سعي



وراء مثل اعلى انما حالفته لمصلحة خاصة، ممنية النفس بالتخلص من ابن الرشيد، حتى يتسع لها بعد ذلك مجال العودة الى هواياتها المعتادة. كان البدو يعتبرون تحالفهم مع عبد العزيز امراً عابراً لا جدوى منه بعد مقتل عدوهم ابن الرشيد.

الم يسهم عبد العزيز نفسه في خلق هذه المفاهيم؟ الم يتقدم الى رؤساء القبائل وشيوخها كبطل من ابطال الاستقلال العربي؟ وماذا تعني هذه الكلمات سوى دعوتهم الى معركة يستعيدون بعدها حريتهم في العمل والعيش على هواهم؟

غير ان ابن سعود لم يكن ينوي ابدأ ترك القبائل تعود الى فوضاها القديمة بل شدد قبضته عليها بشكل بدا اقسى مما كان منتظراً او متوقفاً. فلما رأت القبائل ان الملك الجديد يحظر عليها شن اية غزوة الا بعد موافقته، ويعاقب بشدة من يتجاهل ارادته، بدأت تهمهم وتتعامل ويراود التمرد افكارها.

تعيش قبائل « مطير » في منطقة تقع بين نجد والكويت وليس لها حدود واضحة تماماً. ولهذه القبائل شهرتها في التمرد على كل نظام، وفي مقاومة كل محاولة للاشراف على شؤونها. وكان على رأس هذه القبائل محارب من طراز فذ: الشيخ فيصل آل الدويش، وهو شديد التمسك بامتيازاته، فلم يطق ابدأ تحمل سلطة ابن سعود، وقرر الانتفاض على هذه السلطة قبل ان ترسخ جذورها في الارض. واجرى الدويش لهذه الغاية محادثات مع الفئة القاطنة في « القصيم » من قبائل شمر فاقنعها بالتمرد على ابن سعود، كما اقنع حاكم « بريدة » بالعصيان على السعوديين.

وقد وضحت لعبد العزيز خطورة الموقف لما تمنع حاكم « بريدة » عن تنفيذ أوامره ورفض استقبال الرسل الذين بعث بهم اليه، فمضى الى المدينة على رأس

الف من المحاربين ، واصطدم في منتصف الطريق بين الرياض و « بريدة » بفصيلة من الشمريين المتمردين ، فهاجمهم بسرعة ، وشتت شملهم ، ووقع فيهم خسائر فادحة . ثم تحول الى « المطيريين » الذين هرعوا لنجدة « الشمريين » فهزمهم بدورهم وقذف بهم الى داخل اراضيهم . ولكن القضية في نظره ، لا يجوز ان تنتهي عند هذا الحد . فلا بد من معاقبة المحرضين حتى يكونوا عبرة لسواهم وحتى ينزع من رؤوسهم اي تفكير بتكرار ذلك . لقد عرف المطيريون طيلة تاريخهم بالتقلب والانتقال من معسكر الى آخر ، فلا بد ان يتلقوا اليوم درساً يقنعهم بأن ذلك الزمن قد ولى ، لذلك اقتحم ابن سعود ديارهم ، واحرق قراهم حتى حدود الكويت ، وقتل زعماءهم ، ولكن الدويش تمكن من الفرار والنجاة من الموت .

واستمر ابن سعود في مطاردة المتمردين حتى جاؤوا خيراً طالبين الرحمة والعفو . وانتقل بعد ذلك الى « بريدة » فوجد ابوابها مقفلة والمدينة في حالة حصار . ولكن عبد العزيز لم يعدم انصاراً اوفياء في الداخل فتحول له الابواب ، بينما كان جميع رجال الحامية متجمعين في المسجد لصلاة المغرب . ودخل المحاربون النجديون « بريدة » دون مقاومة تذكر ، وجيء بحاكم المدينة المتمرد ، فجثا امام الملك وراح يبكي ويعفر جبهته في التراب . لقد كان يتوقع ان يفقد رأسه . ولكن ابن سعود لقي عليه نظرة احتقار وامره بالنهوض وبمغادرة المدينة فوراً مع جميع افراد أسرته .

وكانت قلعة « بريدة » مفتاح نجد الشمالي ونقطة اتصال هامة في طريق القوافل ، فعين ابن سعود ، ابن جلوي ، حاكماً على المدينة ليحول دون وقوع حوادث مماثلة في المستقبل .

وكان ابن جلوي ، رفيق الجهاد المخلص ، الرجل المطلوب لمثل هذه المهمة . يوحي ذكر اسمه بالرهبة في نفوس اشد البدو تمرداً . وهكذا اخمدت ثورة اقاليم الشمال ، ولم يعرف « القصيم » منذ ذلك اليوم اي شغب او اضطراب .

ما هدأت ثورة « القصيم » حتى انفجرت ثورة اخرى في الجنوب . وكان « العجمان » هذه المرة هم الذين حاولوا التمرد على سلطة ابن سعود . واندلعت شرارة ثورتهم من مدينة « ليلي » بتحريض جماعة من المتعصبين المتزمتين ، وكانت اشد خطورة من سالفها . فهي اقرب الى الرياض وتهدد بالامتداد الى العاصمة ، وتثير في الوقت نفسه اضطراباً دينياً مسمماً للأفكار . لذلك كان سخط عبد العزيز كبيراً ، فقرر ان يقمع الفتنة بقسوة وعنف بالغين . انها في هذه المرة معركة بين الاصلاح والتطور .. وبين الجمود والتخلف ...

اقتحم عبد العزيز مضارب « العجمان » واجتاح ديارهم ، وامر فرقتين من جنوده بتدمير قريتي « القطين » و « الحوطة » ومحوها من الوجود بعد اخلائها من السكان ، وعدم الابقاء على حجر فيها فوق حجر ، ولا على اثر ينبيء بمكان وجودها .

فلما نفذت ايامه بدقة ، مشى الى مدينة « ليلي » فهاجمها وتغلب على مقاومتها ، وارغم حاميتها على الاستسلام ، وحكم بالاعدام على تسعة عشر شخصاً كانوا نواة الثورة ومتازعميةا .

أجل ابن سعود تنفيذ احكام الأعدام لمدة اربع وعشرين ساعة ، وأوفد الرسل الى مختلف الاقاليم يدعون الناس الى « ليلي » ليشهدوا انزال العقاب بالمجرمين . وامر باقامة منصة مكشوفة امام المدينة خارج الاسوار حيث تتجمع القوافل عادة ، فأحتشد عند الفجر سكان المدينة والقرى المجاورة وعدد كبير من البدو ، واحاطوا بالمنصة من جوانبها الثلاثة ، بينما اصطف الحرس النجدي في الجانب

الرابع امام المنصة . ووصل ابن سعود ، فاجتاز الساحة وسط صمت رهيب ، ثم صعد الى المنصة محاطاً بالشيوخ والحرس الخاصين . وكانت قامته المديدة والغضب الشديد المرتسم في تقاطيع وجهه ، يثيران الرعب في النفوس .

وفتحت ابواب المدينة وقتيد المحكومون مكبلين بالاصفاد، وارغموا على الخشوع امام المنصة ، فأوماً ابن سعود بيده مشيراً الى الجلاد وهو يردد : « لا حول ولا قوة الا بالله » فبرز في الساحة زنجي عملاق عاري الصدر بيده السيف وخلفه مساعده ، فوقف على رأس صف المحكومين .

وتلا احد الفقهاء نص حكم الاعدام معدداً الاسباب التي أوجب موت المتمردين . وروعت بكل دقة المراسم والشكليات التي ترافق عادة احكام الاعدام . فقد كانت ابن سعود حريصاً على التأكيد بأنه لا يتصرف بدافع الانتقام ، بل ليفرض على رعاياه طاعة القانون .

ومضى الجلاد يمارس مهمته في المجرمين و حداً بعد الآخر . ثماني عشرة ضربة فاصلة ، وثمانية عشر رأساً تدحرجت فوق الرمال . فلم تقدم المحكوم التاسع عشر الى مصيره اشار الملك الى السيف وامره بالابتعاد ، وخاطب الرجل الخاشع امامه بقوله :

— انني اعفو عنك ، اذهب فانت حر ، وحدثني كل مكان بما شهدت ، وانقل الى اهل الصحراء كلها كيف يضيق ابن سعود العدالة .

ولما انتهى تنفيذ الاعدام خطا ملك نجد الى مقدمة منصة وخاطب الجمهور موضحاً الجريمة التي ارتكبها العصاة ، والعقاب الرهيب الذي سيتعرض له كل من يحذو حذوهم . ثم طلب ان الحاضرين ان يقتربوا من المنصة وبدأ صوته ينخفض وهو يحدثهم بلهجة اكثر وداً ويقول :

— انتم رعاياي الذين احبهم ، وما من امر أشق علي من معاقبة احدكم بهذا

الشكل فلا تضطروني لذلك مرة اخرى ، واختاروا من بينكم حاكماً عادلاً اضع فيه ثقتي ، انني اترك لكم تدبير شؤونكم بأنفسكم ، شرط ان تقسموا على الوفاء والولاء لي .

علت غمغمة من الدهشة بين الجمهور . لقد كانوا يتوقعون ان يفتك بهم الملك او يسترقهم ويستعبدهم ، فها هو يترك لهم حرية اختيار حاكمهم . لقد كان لهذه البادرة من الشهامة تأثيرها الشديد على الافكار . لقد بقيت جثث المعدومين معرضة على المآطوال ثلاثة ايام ، حتى ينطبع مشهدها الرهيب في الازهار ويكون انذاراً لمن تحدته نفسه بالتمرد او بالتحريض على ثورة جديدة .

وتناقل الرواة تفاصيل ما جرى في « ليلي » من قرية الى قرية ومن مضرب الى مضرب ، حتى اصبحت حكاية تروى في الامسيات حول مواقد النيران .

فأن العقاب الصارم وما تلاه من عفو وتسامح ، اثارا اعجاب البدو والهبا خيالهم فأخذوا يرددون :

« هذا هو الحاكم الجدير بالحكم بيننا . انه محارب فذ ، وحاكم صارم ، ولكنه عادل . انه زعيم يتحمل مسؤوليته ويعرف ماذا يريد . »

حتى القبائل النائية سمعت بما جرى في « ليلي » واعتبرت به . كانوا يعلمون ان سعوداً قويا جباراً ، فعلموا اليوم انه عادل ، وانه عازم على فرض احترام ارادته ، وان من الافضل اطاعته بدل التعرض لعقابه .

وقعت ثورة الجنوب بصورة نهائية .

بينما كان ابن سعود يواجه متاعبه لداخلية ، كان الوضع في الخارج قد تطور وتبدل . فالثورة التي ارغمت بوادرها الاتراك على سحب حامياتهم من «القصيم» قد انتهت في العام ١٩٠٨ الى الانفجار ، واستولى رجال «تركيا الفتاة» على السلطة ، وخلعوا السلطان عبد الحميد في العام التالي فحل محله السلطان محمد الخامس وواعد حكام تركيا الجدد : انور وطلعت وجمال ، بتلافي اخطاء الماضي ، فوضعوا برنامجاً اصلاحياً واسع النطاق ، ولكنهم تمسكوا بسيادة النظام السابق فيما يتعلق بحكم البلاد العربية والسيطرة عليها ، بل ذهبوا الى ابعد من ذلك فأعلنوا عزمهم على دعم هذه السيطرة وتعزيزها ، لذلك عينوا ولاية اكثر حيوية وشباباً في العراق وسورية وفي المناطق الساحلية على الخليج العربي والبحر الاحمر ، وعززوا حاميتهم في الاحساء ، وعينوا الحسين بن علي على الحجاز بامتيازاته الواسعة كحاكم للديار المقدسة وممثل للسلطان فيها .

واعتبر الاتحاديون تعيين الحسين منصب شريف مكة عملاً موفقاً لاستمالة العرب واسترضائهم . فهو امير هاشمي يرقى بنسبه الى نبي الاعظم . وكان متزوجاً من ابنة موظف تركي كبير ، وعملاً لحساب الاستانة ، وكان العثمانيون مطمئنين الى انه سيخدم اهدافهم في اخلاص .

ولم تقف الدول الاوروبية مكتوفة اليدين خلال تلك السنوات فقد عززت بريطانيا مواقعها في هذه المنطقة من العالم مستفيدة من الخصومات والمنازعات التي كانت تعصف بشبه الجزيرة العربية .

وقام اللورد «كورزون» في العام ١٩٠٣ ، باحتلال مرفأ الكويت احتلالاً مفاجئاً . فأرغم الامير مبارك كاعلى تسديد ديونه لبريطانيا في شكل اتفاق خاص

حصلت بريطانيا بموجبه على حق حماية الكويت والاضطلاع بمهمة الشرطة في الخليج العربي . ثم انسحبت القوات الانكليزية بعد ذلك .

ووقعت حكومة لندن اتفاقاً مع القيصر اعطى روسيا « حقوقاً » في تركستان وشمالي ايران ، بينما احتفظت بريطانيا بالسيطرة على الجنوب الايراني والخليج العربي ( ٣١ آب ١٩٠٧ ) .

وكانت وزارة الخارجية البريطانية وهي تنفذ خططها بدقة في شمالي شبه الجزيرة العربية ، تدق اوتادها في الجنوب ، فأبعدت بموجب اتفاق ١١ نيسان ١٩٠٤ المطامع الفرنسية عن قناة السويس ، واطلقت يد فرنسا في المغرب مقابل التخلي لها عن مصر ، وكررت في العقبة تمثيل الدور الذي قامت به في الكويت فأضطرت الاتراك سنة ١٩٠٦ الى سحب قواتهم من هذا الميناء المواجه للسويس بعد تظاهرة قام بها الاسطول البريطاني .

وهكذا اصبح شبه الجزيرة العربية مطوقاً بخطين : تعزيز الحاميات التركية في الاحساء وضغط النفوذ البريطاني المتزايد ، مما اثار قلق ابن سعود وبدأ يشعر بأنه محاصر .

كان لا بد له وهو سيد نجد منذ ١٩٠٥ ، من ان يشق لنفسه منفذاً الى البحر حتى لا يجد نفسه محاصراً وسط رمال اواسط شبه الجزيرة العربية . وكان الخليج العربي اقرب بحر اليه . ولكن ... اية فائدة ترجى من الدخول في نزاع مع الاتراك . فان هزمهم - وذلك امر ليس مضموناً - فلسوف يجد نفسه في نزاع مع الانكليز .

حار ابن سعود في اتخاذ موقفه فأجرى اتصالات مع الامير مبارك وطلب اليه جس نبض اصدقائه الانكليز ( ١٩١١ ) فقام امير الكويت بالمهمة ووضح للسلطات البريطانية ان مصالح ابن سعود لا تتعارض مع مصالحهم في هذا



الموضوع ، فكلاهما يريد التخلص من الاتراك ، وبذلك يتهاى لبريطانيا تحقيق هدفها دون الدخول في صراع مكشوف مع الامبراطورية العثمانية واثارة ممالك اوروبا واماراتها . اذا تولى ملك نجد طرد الاتراك فلن يتعدى الامر نطاق خلاف داخلي محدود يعود بالنتائج السارة على الجميع . واقتنع الانكليز بهذا المنطق وابلغوا مباركاً انهم لا يعارضون خطط ابن سعود ، شرط الا يمد يده الى الكويت .

ضمن ابن سعود حياد الانكليز ، ولكن خوض معركة ضد الاتراك لم يكن ، مع ذلك ، مأمون العواقب ، فنصحه الامير مبارك الذي كان على اطلاع واسع على ما يدور في الاستانة بالترث وترقب الفرص . فسياسة الحزم العثمانية الجديدة ، لم تكن سوى ومضة عابرة ، وتضح للاتحاديين ان سياستهم التي رسموها للبلاد العربية ، كانت مسرفة في الطموح ، وانهم يفتقرون الى الوسائل الكافية لتحقيقها .

وصدق حدس مبارك بأسرع مما كان يتوقع . ففي نهاية العام 1 تشرين الأول 1911 هاجم الايطاليون طرابلس الغرب ، ولم تنته الحرب التركية - الايطالية حتى نشبت حرب البلقان الاولى 1 تشرين لأول 1912 . وزحف الصرب الى سانونيك وبلغار الى الاستانة واصبح الاتراك بحاجة الى كل واحد من جنودهم .

وادرک ابن سعود ان ساعة العمل قد ازفت .

بين الكويت وُعمان ، على طول الخليج العربي تتراعى مقاطعات رملية فقيرة معزولة هي : الاحساء .

منطقة ضئيلة السكان ولكنها تتحول الى مركز نشاط تجاري كبير ، عندما يحل موسم صيد اللؤلؤ ، فيتبدل كل شيء وتتدفق القبائل القاطنة في الداخل الى المناطق الساحلية للاتصال بسكانها ويجزر البحرين المقابلة ، فتستقبل «القطيف» و «عقير» و «الخبر» وسواها من موانئ الاحساء شبه الصحراوية ، جموعاً صاخبة منهمكة . فاذا انقضى الموسم ، تنسحب القبائل وتفرغ المدن ويمضي التجار ببضائعهم الى اسواق الهند وايران ، تعود الاحساء الى فراغها الصحراوي .

وكان يحكم الاحساء آنذاك حاكم تركي مقره في «الهفوف» عاصمة المقاطعة . فأوفد ابن سعود بعض الجواسيس لاستطلاع الموقف هناك ومعرفة اتجاهات السكان ومدى استعدادات الحامية التركية . فلما رجع رسل ابن سعود قدموا له تقريراً مشجعاً عن الحالة . فالشعب مرهق بحكم الاتراك ، ناغم عليه اشد النعمة ، والادارة التركية ظالمة وعاجزة غير فعالة ، جعلت السكان غير آمنين ، والمنطقة مسرح لعصابات السلب والنهب .

اما عن الحاميات التركية الرئيسية في «الهفوف» والمدن الساحلية الهامة ، فقد خفضت كثيراً واستدعي القسم الاكبر منها الى البصرة لينقل على عجل الى الجبهة البلقانية . وقد رحلت منذ وقت قصير فرقة كبيرة من المشاة بكامل اسلحتها واعتدتها باتجاه الشمال .

وقال الجواسيس انهم صادفوا عدداً كبيراً من اهل القصيم مستعدين لمناصرة ابن سعود اذا جاء على رأس قوات كافية . واقتنع ابن سعود من معلومات رجاله بان الوضع في الاحساء يصلح لعملية سريعة ، فعبأ خيرة قواته واتجه شرقاً في سير حثيث دون توقف ، ليسبق اي رسول محتمل لانذار الاتراك ، فأجتاز صحراء الدهناء واخترق الاحساء وتوغل مباشرة نحو «الهفوف» حتى امست قواته بعد مسيرة ايام ثلاثة عند اطراف المدينة في غفلة من الاتراك .

كانت ليلة مظلمة ، فأجتاز ابن سعود على رأس ٧٠٠ فارس ، الواحة الكثيفة

المحيطة بالأسوار ، ثم توقف متستراً بمجموعة من اشجار النخل امام بوابة ابراهيم باشا حيث ترجل الفرسان وتقدموا زحفاً حتى ادركوا الجدران السميكة المسننة التي تقوم عليها ابراج الحراسة المربعة على مسافات متباعدة .

قام ١٢ جندياً بتسليق السور بخفة ورشاقة بواسطة سلام جدلت من الياف النخل ، فدهموا الحراس وقتلهم بالخنجر وهبطوا الى الداخل ففتحوا احد الابواب وافسحوا للجيش مجال الدخول الى المدينة دون اية ضجة تلفت الانتباه . وكانت المدينة لا تزال نائمة وغارقة في السكون ، فانحدرت القوات السعودية الى السوق - سوق الخميس - واتجهت مباشرة الى قلعة « الكوت » الكبيرة وهي حصن كبير يقوم في وسط المدينة محاطاً بسلسلة من الابراج الصغيرة . وكان باب الدخول ، لحسن الحظ ، غير مقفل ، والجسر منخفضاً ، والحراس نائمين ، فذبحهم السعوديون ، ودلفوا الى الحصن .

أخذ الاتراك على حين غرة فلم يتسع امامهم الوقت للوصول الى بنادقهم ، فقتل القسم الاكبر منهم بالسلاح الأبيض واستسلم الباقون دون مقاومة . واصبح النجديون بعد ساعة اسياد القلعة بعد ان جردوا البقية الباقية من حاميتها من السلاح وسجنوها في الطابق الارضي . ولما اشرقت الشمس غادر ابن سعود القلعة وطاف بالمدينة يقود فرقة خفاقة الاعلام . وكان الجنود السعوديون ينشدون الاناشيد الحماسية ويقرعون بحوافر جيادهم بلاط الشوارع فاستفاق السكان على ضجة الموكب وهرعوا الى ابواب منازلهم مذهولين يتابعون ذلك العرض ، ومضت برهة طويلة قبل ان يستردوا وعيهم وتنطلق السننم التي عقلتها المفاجأة .

ولم تلبث الحامية التركية مع حاكمها ان استسلمت ، ولم تمض اربع وعشرون ساعة حتى غادرت الاحساء الى البصرة بغير رجعة . وفي الايام التالية كان ابن سعود يطوف المقاطعة متقبلاً ولاء القبائل . واستولى دون مقاومة تذكر على

« القطيف » و « عقير » . واستدعى بن جلوي من « القصيم » وعهد اليه بتدعيم الامن والنظام في المنطقة وتطهيرها من عصابات السلب والنهب التي كانت تغزو القوافل ، فنجح ابن جلوي في تحقيق المهمة بما عرف عنه من قوة شكيمة وشدة بأس ، وتمكن سكان الاحساء خلال زمن قصير من الانصراف الى شؤونهم آمين مطمئنين .

ان ظل صولجان ابن سعود المديد يتراعى عبر الصحراء ، فيلقي الرهبة في النفوس .

وانحنى الاتراك امام الامر الواقع فاجروا محادثات مع ابن سعود ، وعقدوا معه اول معاهدة لأن اتفاق البصرة الذي تم التوصل اليه بين الامير عبد الرحمن ومخلص باشا كان مجرد تعاقد شفهي .

واعترف الاتراك ، بموجب الاتفاق ، بان الاحساء جزء من نجد وبابن سعود ملكا على الاقليمين وتخلوا له عن الاسلحة التي « خلفوها » في الهفوف وتعهدوا بعدم التدخل في شؤونه .

وفي مقابل ذلك وافق ابن سعود على الاعتراف بسيادة رمزية للأتراك ، كانت مجرد كلام منمق لا طائل تحته . ولقد تم كل ذلك خلال محافظة الانكليز على عهدهم .

وكانت الاحساء الفقيرة المعزولة في الظاهر واحدة من اغنى المناطق في العالم ، تساوي رمالها امبراطورية .

ولكن ابن سعود كان يجهل ذلك ، وكذلك الانكليز ، والا لاختلف مجرى الاحداث اختلافاً كبيراً .

ابن سعود هو الآن ملك نجد والاحساء ! لقد رفع ذلك من اهميته في الجزيرة العربية كما أصبح بهذا الفتح الجديد يطل على البحر من شرفة عريضة ولم يعد رهين الصحراء الوسطى . لقد قهر الاتراك في « شنانة » وأرغمهم على الانسحاب من « القصيم » ، وها هو يطردهم من « الاحساء » ، فاذا بزعماء القبائل من اقصى الجزيرة العربية الى اقصاها ، يزدادون اعجاباً بابن سعود ويتابعون تصاعد نجمه في حماسة ، وتلهب خيالهم صورة الملك البطل .

وجاءت جماعة من الثوار السوريين لمقابلته في الرياض ، انهم من اعضاء « حزب الفتاة » المنظمة السرية التي تأسست في دمشق لتحرير سورية ، وهي تضم فريقاً من الملاكين والادباء والاطباء وكبار الموظفين يجمعهم ايمان بالقسم الذي اقساموه وكانت لهم شارات يتعارفون بها وكلمة سر يتوزعونها ونشرات سرية وصندوق مالي مشترك . لقد كان هدفهم تقويض الامبراطورية العثمانية ، وبسهولة السوريين المعروفة في الاندفاع انشأوا هذه المنظمة وراحوا يبحثون في الخارج عن ينجدهم لاستعادة حريتهم ، لقد كانت لهم اتصالات عديدة في مصر وكذلك مع رجال حزب العهد في العراق كما كانت لهم اتصالات مع شريف مكة وبريطانيا ، اي مع كل الذين يأملون في مساعدتهم على تحقيق مشاريعهم<sup>(١)</sup> .

وتحدثوا الى ابن سعود وقالوا له : « اننا في صدد تنظيم مؤامرة واسعة ضد الاتراك ، لقد تباحثنا حتى الآن مع مبارك في الكويت ومع حسين في مكة واخلدنا وعداً منها بالمساعدة ، فلم لا يتولى ملك نجد قيادة هذه الحملة المقدسة

١ - لوونس : « احمد الحكمة السبعة » .

وهو الذي يتمتع بمزايا وفضائل اكسبته تقدير الجميع ؟ ثم الا يكون ذلك بمثابة  
قلادة من المجد يتقلدها حفيد سعود الكبير ؟

لقد اصغى ابن سعود اليهم بانتباه... كان فخوراً هو الآخر بانتائه الى العنصر  
العربي ولا يطيق - اكثر منهم - ان يكون محكوماً من قبل الاتراك ولكنه  
قدر ان محدثيه كانوا ذوي تفكير خيالي ، ومحدثون بارعون ، ولم يدهشه ان  
يكونوا على اتصال مع مبارك ، فمن ذا الذي لا يتصل به مبارك ؟ ولكن مع  
الحسين ... ؟ وكيف ؟ انه مرتبط ارتباطاً وثيقاً بقيادة الامبراطورية وهو  
حليف السلطان وظهر الخليفة المخلص ! ثم اليس احد ابنائه نائب رئيس مجلس  
النواب التركي ، وآخر نائب جده في المجلس نفسه ؟ ان هذا لشيء غير معقول !..

وأما عن تحرير سورية ولبنان فانه لأمر مثير حقاً... ان ابن سعود لا  
يجهل التأثير الذي تمارسه اراضي هذين البلدين الحصبة ، منذ قرون ، في قبائل  
الصحراء... ان اية حملة في هذا الاتجاه ستحظى سريعاً بتأييد شعبي...

ولكنه حكم على ذلك المشروع بانه غير قابل للتحقيق في الوقت الحاضر .  
وبالاضافة الى ذلك فان مجرى الاحوال تجعل مما يعرضه عليه الثوار السوريون  
نوعاً من الاغراء الذي يجب الا يستسلم اليه .

كان هدفه مختلفاً جداً ، انه يقضي بانتزاع الجزيرة العربية من نزعتها الفردية  
واعادة تجميع اوصالها ووضع حد لفوضاها او بكلمة مختصرة : اعادة وحدتها ،  
فاذا شاء القدر ان يكون ابن سعود - كما كان يرجو مخلصاً - مصدر موجة  
اسلامية جديدة فليكن ذلك بعد ان يوحد ويعيد تنظيم مملكته . وصرف عبد  
العزيز محدثيه بلباقة ولباقة ، فلقد كان لديه شيء آخر ليعمله في الوقت الحاضر .

ان العمل الذي يستأثر بتفكيره كان شيئاً جدياً مختلفاً .

٣٨

ان عبد العزيز هو الآن في الثانية والثلاثين . . . لقد اتاحت له حياته الحافلة التي عاشها منذ صباه مجال التعرف عن كثب والتحسس المباشر بالمشكلات الاساسية لشعب شبه الجزيرة العربية ، فاصبحت له نظرة واقعية ومباشرة الى الامور بعيدة عن الاستنتاج والتخمين .

ان رعاياه في مجموعهم ينقسمون الى فئتين : اقلية من المزارعين وسكان المدن من جهة ، واكثرية من البدو الرحل من جهة اخرى . وكان في وسع ملك نجد الاطمئنان الى ولاء الاولين . واما الفئة الثانية فكان من الصعب اخضاعها لنظام او قانون مشترك ما دامت تعيش في ظروفها الحاضرة ، متنقلة على الدوام ، تآبى الاستقرار في اي مكان .

كانت حياة الترحل موضع فخر للبدو واسمى ما يعتزون به في الوجود ، فيعتبرون انفسهم النموذج المثالي لبني البشر ، ويرون الانسان المتمدن ليس اقل منهم سعادة وحسب ، بل وفي مستوى ادنى بكثير ، ويتملكهم فخر لا حد له بتسلسل انسابهم الذي يرقى الى عهد آدم ، وبصفاء دمائهم وفصاحتهم واشعارهم وسيوفهم وجيادهم وشرف اجدادهم ، ولو انهم لا يملكون من متاع الدنيا سوى مضاربهم ومطاياهم ونسائهم ، متحررين من اي ارتباط ، مائجين كالبحر في طلاقة الرياح .

وادرك ابن سعود ان الضرورة تقضي بحملهم على الاستقرار وتبديل ظروف معيشتهم تبديلاً جذرياً ، لأن تلك الظروف هي التي تملي عليهم تصرفاتهم وتكيف



طبائعهم ، فوضع لهذه الغاية مشروعاً رائعاً ، لم يحاول اي حاكم تجربته من قبل ، يرمي الى القضاء على البداوة تدريجياً ، بتأمين حياة مستقرة للبدو الرحل حول موارد المياه ويجعلهم يألفون زراعة الأرض . ذلك يعني اعادةهم الى حياتهم الزراعية السالفة قبل تدفق ذلك السيل البشري الذي جرف القبائل من اليمن وحوّلها الى حياة التيه في الصحراء . انه لمشروع صعب التحقيق ، يغامر فيه الملك بمفرده ، ولكن نجاحه يعني تبديل وجه الجزيرة العربية كلها .

كانت ندرة المياه وضيق مساحات الأرض الصالحة للزراعة بالنسبة الى عدد السكان ، العامل الرئيسي الذي يسيطر على حياة الصحراء . وكان يحدث بعض التوازن بين الفينة والفينة فتتوفر للصحراء فترة من الهدوء حتى اذا طرأت زيادة قليلة على عدد السكان عاد التوازن الى الاختلال وتعرضت البلاد الى ازمة جديدة ودخلت الصحراء في منازعات فتضاعفت اعمال العنف وازدادت المعارك شراسة بين القبائل حول موارد المياه وحمي وطيس القتال وتفاقت دواعي الخصومة ، ولا تستقيم الامور مرة اخرى الا عندما تقذف نحو الشمال او تتعرض للابادة ، فئة من السكان موازية للعدد الطارئ الدخيل .

وكان هذا الصراع ، بمثابة عملية انتقاء لا شفقة فيها ولا رحمة ، لنخبة من الشعب . ولكن استمرار الامور على هذا الغرار حال دون تزايد عدد السكان وابقى المعيشة على مستواها الشديد الانخفاض . وكيف يمكن للجزيرة العربية ان تتحرر من نزعاتها الفردية التي هي انعكاس لاوضاع حياتها ؟

وكانت خطة ابن سعود تقضي باجتذاب عدد صغير من البدو الى بعض الآبار التي اختيرت بعناية ، بعيدة عن طريق القوافل ، وبجملهم على الاقامة حولها لقاء بعض الهبات والامتيازات وتدريبهم على اعمال الفلاحة والري ، فيؤدي ذلك تدريجياً الى زيادة مساحة الاراضي المزروعة ، ويصبح في امكان سوام من البدو المجيء الى هذه الاماكن والاقامة فيها ، فتتضاعف الواحات الخضراء في وسط الصحراء . وترسخ جذور البدو في الاراضي المنتجة المنسلخة من جفاف

الرمال وبياسها ، فاذا ما تطورت تلك المشاريع كانت لها جاذبيتها على المناطق والقبائل المجاورة، وكان من الطبيعي ، متى استقر البدو واصبحوا مزارعين، ان ينجبوا مزيداً من الاطفال وان يتزايد بسرعة عدد السكان .

وكان ابن سعود يهدف بعد ذلك الى ان يجند من هذه الجماعات الجديدة جيشاً ثابتاً يختلف كل الاختلاف عن القوات التي تولى قيادتها حتى الان . جيش مرتبط بأرض مستقر في بيت يشده الى مليكه ولاء من طراز جديد ، لاصلة بينه وبين الظماً الى المغامرات او الطمع في الغنائم ، فالمجتمعات الجديدة لن تكون مكرسة لانتاج الحبوب والثمار فحسب ، بل ستكون منبتاً ونواة لجيش جديد .

وما غاب عن ذهن ابن سعود وهو يعرف طبيعة مواطنيه ، ان خطته ستصطدم بتقاليد وعادات مألوفة، وانه لن يتغلب على تدليل العقبات الا باستثماره عاطفة اشد وأقوى ، فلا بد ان تكون هذه الجماعات الزراعية والعسكرية جماعات دينية في الوقت ذاته تربط فيما بينها روابط الاخوة ويتضامن افرادها جميعاً في الولاة لقسم او عهد ، شبيهين بالقسم الذي اداه لعبد العزيز رفاقه في واحة « جبرين » . فتصبح هذه المراكز موطناً للاخوان ، ومهداً للايمان والمؤمنين ... مؤمنين مدعويين للجهاد وحملة السلاح في سبيل نصره العقيدة الصحيحة .

وكان لا بد للملك من قوة استمرار دافعة تمكنه من توحيد الجزيرة العربية . وكان هذا العمران الداخلي الذي وضع خطته الوسيلة الوحيدة لتحطيم النزعة الفردية الفوضوية ، وافهام الجنود ان واجباتهم حيال القبيلة تأتي في المرتبة الثالثة بعد اطاعة الله والولاة للملك، وانها جريمة ان يقتل مسلم مسلماً الا في حالة الحرب، وان قرار اعلان الحرب او وقفها امر يعود الى الملك وحده . ان هذا النظام

سيرغم البدو على التخلي عن منازلهم الخاصة لينصرفوا الى الدفاع عن قضية مشتركة .

وفي هذا يقول ابن سعود :

— انني اريد تطوير نزعة العرب الفطرية الى الحرب ، حتى يشعروا بأنهم اعضاء في جماعة واحدة ، انه عمل طويل شاق ، لا انكر ذلك ، ولكن الجانب الكبير منه سيتحقق عندما تبدأ وحدات جيشي تشعيران الهجر<sup>(١)</sup> الذي نشأت فيه هو بمثابة وطن صغير يانع لها وسط الوطن الكبير القاحل .

٣٩

وكان في رأي الملك ان مستقبل الجزيرة العربية كله يتوقف على هذا الاصلاح الاجتماعي والعسكري والديني الضخم . وما كان في وسعه ، مع ذلك ان يحقق شيئاً في هذا المجال دون مساعدة رجال الدين .

فرجال الدين في نجد يشكلون هيئة ذات نظام صارم في دقته ، يستوي على قممها الشيوخ المنحدرون من صلب الامام محمد بن عبد الوهاب ، ويشكلون طبقة ذات امتيازات وسلطة . وكان ابن سعود ، بصفته امام الوهابين ، الرئيس الاعلى لهذه الهيئة . وقد دعم مركزه الديني فيها بزواجه في الكويت من الاميرة « جوهرة » حفيدة الامام عبد الوهاب .

وكان اختيار العلماء والفقهاء وائمة الشرع المسؤولين عن تطبيق الشعائر

---

١ — الهجر : هي التسمية التي اطلقت على الزارع او القرى التي انشأها ابن سعود وجعل البدو يستقرون فيها . وهي مشتقة من هجر وهجرة ، نسبة الى هجرة البدو لقبائلهم واستيطانهم في الواطن الجديدة .

الدينية ، وتفسير القرآن ، وتثقيف الشعب ، يتم في نطاق هذه الهيئة . وبليهم في المرتبة خطباء المساجد ، ثم يأتي « المطاوعة » - المدرسون - الذين يشكلون القاعدة وهم منتشرون في كل قرية وقبيلة ومهتهم نشر العقيدة الوهابية ويتولى كل منهم تدريس ما لا يقل عن خمسين شخصاً .

كانت هذه المنظمة الدينية جهازاً مثالياً لنشر تعاليم الدين والعقيدة ، ولترويج اي فكرة بحيث ترسخ جذورها في اعماق الشعب . وكانت كلمة ائمة الشرع تنتشر بواسطة هذا الجهاز بأسرع ما يمكن من طرف الجزيرة العربية الى طرفها الآخر .

قرر ابن سعود اثارة اهتمام رجال الدين بمشروعه الاصلاحى ، فطلب الى والده دعوة ائمة الشرع ليعرض عليهم المشروع ، فاستمع اليه العلماء بانتباه ولكن مع التحفظ ، وكانت خلاصة المشروع : وضع حد للبداعة وتحطيم الاطارات التقليدية للقبائل وغرس جذور البدو حول ابار المياه وتجنيد جيش من المجتمعات الزراعية الجديدة ، انه بذلك يقدم مشروعاً اصلاحياً من شأنه ان يبدل وجه الجزيرة العربية ويوفر لابنائها مستقبلاً افضل لم تحلم بمثله حتى الان ، ويهيء فرص انتشال القبائل من الفوضى والبؤس وتحويلها الى شعب متطور متحضر ...

ولقي مشروع عبد العزيز مقاومة شديدة فاستعان عليها بالحكمة تارة وبالشدة تارة اخرى ، كما كان لمنزلة والده في صفوف العلماء الاثر الكبير في الوصول الى النتيجة المطلوبة المرضية .

لقد بذل ابن سعود جهوداً للتقارب والتفاهم ، فكبح جماح غضبه ورجأ الى الحكمة واللين في معالجة ما طبع عليه العلماء من حذر ، واستمر الجدل اسبوعاً كاملاً حتى تمكن ابن سعود ببراعة فائقة من اقناع رجال الدين جميعاً بالفوائد التي يجنونها من انشاء جيش للاخوان مكرس لنشر العقيدة ، مما يعني في الوقت نفسه ، زيادة نفوذهم في البلاد . ووضح لهم أن هذا الجيش وحده

سيكون جديراً بنشر العقيدة في الجزيرة العربية كلها فلا تبقى محصورة راكدة في الصحراء الوسطى . لقد دافع ابن سعود عن قضيته في براعة فائقة حتى انتهى الى زحزحة العلماء عن موقفهم .

ولقد تأثر العلماء كثيراً بانضمام الامير عبد الرحمن الى مشروع نجله الاصلاحى فوافق ائمة الشرع على الانضمام بدورهم اليه واصبح « مخطط الملك » « مخطط العلماء » فهم سينشئون معاً جيشاً مسلحاً في خدمة الله على غرار الطلائع الاسلامية الأولى ، فيتراص البدو في نظام متين ويؤلفون جماعة من « الاخوان » اخوان في العقيدة والسلاح وفي خدمة الله .

وكتب الائمة الى المطاوعة ليجوبوا مع طلابهم في البلاد من قرية الى قرية ، ومن قبيلة الى قبيلة ، لالقاء سلسلة من العظات ترويحاً لفكرة تأسيس « الاخوان » ، موضحين ان قواعد المروءة القديمة لم تعد مؤاتية ، وان شريعة الله خير من العصبية القبلية ، وان طاعة الملك اوجب من طاعة العشيرة . مذكرين بقول النبي الكريم الذي يحث على احياء الموات وزراعة الأرض .

٤٠

مضى « المطاوعة » وتلامذتهم في حملتهم فاصطدموا في كل حذب يجرد من اللامبالاة او العداوة . فانه لمن الصعب على البدوي المتمسك تمسكاً اعمى بتقاليد القديمة المتوارثة ، ان يتخلى عنها بين يوم و آخر . ثم ان نوع الحياة الجديدة هذه لا يبهر ولا يغري . أما قال الشاعر : « أعز مكان في الدنى ظهر سابع » . لقد عاش اباؤهم واجدادهم احراراً ، كما يحلو لهم عبر الصحراء لا يستجيبون لغير نداء الفضاء والسماء . انهم يحثونهم على التخلي عن هذه التقاليد النبيلة ليتحولوا الى مزارعين مقيمين ، وفلاحين صغار ؟ كأنما يطلب اليهم ان يحكموا على انفسهم ،

بالانحطاط ويجردوا انفسهم من السلطة ! فأي امير يقبل مختاراً ان يحيا حياة العبيد ؟ لهذا ثارت نائرة البعض من البدو لما سمعوا بالاقتراح المصيب ! ورد عليه بعضهم بالسخرية والازدراء . فان قواعد المروءة الجديدة لم تجد لها صدى في النفوس ، ولم تنجح الدعوة في اجتذاب اكثر من ثلاثين مرشحاً للمستقبل المبهم الغامض .

لقد وجد مع ذلك ثلاثون شخصاً ، وكان هذا كل ما يطلبه ابن سعود . فصحابة النبي وحملة راية الاسلام الى اقاصي الدنيا ، كانوا في البدء قبضة من الرجال . وابن سعود نفسه ، فتح مملكة على رأس قوة لم يكن عددها في انطلاقتها يزيد على عشرين رجلاً ، وكل ما تحقق في هذا العالم من عظمائم ، كان في البدء ، من صنع جماعة قليلة من بني البشر .

ركز ابن سعود فرقته الصغيرة الاولى من المتطوعين في واحة « الاورطاوية » في منتصف الطريق بين نجد والاحساء ، وهو موقع موحش مهجور ليس فيه سوى اربع او خمس آبار شحيحة ، تلجأ اليها القبائل الشاردة او المسافرين التائهون . وحوطها بضعة هكتارات من الاراضي البور وحوالي خمسين نخلة . هذا كل شيء . فلا كوخ ولا خربة ، انه في الواقع موضع غير جذاب ليبدأ فيه الانسان حياته من جديد .

ولكن ابن سعود لم ينس ما تعلمه خلال اقامته الثانية في الربع الخالي ، وهو ان البدوي لا يبذل اقصى ما في طاقته من جهد ، الا عندما يكون العمل الذي يدعى اليه موسوماً بطابع التحدي لظروف قاهرة .

وهكذا انصرف رئيس الجماعة ويدعي « متعب » الى العمل بشجاعة وهمية مع فريقه من الرواد الاولين . وجاءهم الملك زائراً ليقطع دابر ما تعرضوا له من مضايقة القبائل المجاورة وسخريتها ، ويعبر لهم عن استحسانه ورضاه ويعلن ان

من يسيء اليهم ، لا يلومن الا نفسه . ثم منحهم قليلاً - قليلاً جداً - من المال ،  
لانه لا يريد ان ينضم اليهم بدو اخرون بدافع الربح والانتفاع ، واسكن بينهم  
بعض الفلاحين لتدريبهم على اعمال الزراعة والري ، ووزع عليهم قطع الأرض  
وحصدهم من المياه ، واعانهم اخيراً على بناء مسجد وبعض المساكن من اللبن  
والاجر .

البناء ... انه لشيء جديد على هؤلاء الرجال الذين عاشوا حتى الآن على  
الغزو والغنائم . شيء ملامه دهشة اولاً ، ثم راح يبدل بصورة غير ملموسة ،  
نظرتهم الى الأمور . انهم اناس بدائيون ، ولكنهم ذوو ارادة حسنة ، تحذوهم  
الرغبة في تحقيق مستقبل افضل . لقد قيل لهم ان الملك بحاجة اليهم لتطوير  
الجزيرة العربية ، فلبوا النداء في طاعة عمياء . واخذ الملك يشعر نحوهم بميل  
حقيقي فأصبح يزورهم غالباً ، ويشجعهم في جهودهم ويشرح لهم المعنى العميق  
للعمل الذي يقومون به :

- انتم طليعة اصلاح عظيم . ان مصير الجزيرة العربية في ايديكم ، فتجنبوا  
الفشل وازيلوا كل عقبة تعترض سبيلكم . لعلمكم تدهشون كيف ان مهمة جليلة  
بهذا القدر ، يُعلق مصيرها بعدد قليل من الرجال ، ولكن العدد ليس مهماً ،  
وسيتزايد في حينه ، بل المهم هو جلدكم وايمانكم ، وسيندم يوماً اولئك الذين  
رفضوا الاستجابة لندائي . لقد خيل اليهم انني ابغي ردهم الى مراتب العبيد ،  
مع ان هدي الوعيد هو تحريرهم من الجوع والجهل والفوضى ، فدعوهم يسخرون  
اليوم ، فلن يتسع لهم مجال السخرية في يوم النصر عندما يقارنون بين عوزهم  
وغناكم . وليكن حرصكم شديداً على وحدة صفكم ، فما من خطر يهددكم غير  
خطر التفرقة والانقسام . واتركوا الباقي علي ، فلا تخشوا امراً ، لأنكم في  
رعاية الله وفي عهدي .

كان الملك يقضي ليالي بطولها يداول رجال هجر « الاورطاوية » في شؤونهم



ويعالج ما يعترضهم من متاعب ، متحلقين في نصف دائرة حول موقد النار يطرحون الاسئلة على ابن سعود فيرد عليهم بعبارات بسيطة صادرة من اعماق قلبه ، ويزودهم بالنصائح . وكان يعبر لهم شيئاً فشيئاً عن اغتباطه بنجاحهم فتلتهم اعينهم ببريق الفرحة ، فلا ملك هناك ولا رعية بل جماعة صغيرة من العرب يجمعهم العمل لمهمة واحدة وايمان بمستقبل واحد .

فإذا انصرم الليل قامت الجماعة الى صلاة الفجر . وتشرق شمس يوم جديد ملونة ذرى النخيل بخيوطها الذهبية ثم تلتهم اقنية الري في وهج الشمس كأنها الأمل المنشود .

ودعي ابن سعود بعد ستة اشهر من تأسيس « الاورطاوية » الى احتفال بسيط ، حاول اربابه ان يسبقوا عليه كل مهابة ممكنة فاقسموا بين الولا للملك ثم هجروا خيامهم المصنوعة من وبر الماعز الى غير رجعة ، مخلفين وراءهم حياة البداوة ، وانتقلوا الى المساكن الجديدة التي بنوها بأيديهم من اللبن والاجر . لقد اجتازوا عتبة منازلهم ، وكأنهم بذلك يجتازون مرحلة فاصلة بين القرون الوسطى والعصر الحديث .

وبدأت التجربة بداية حسنة . ولم يدع ابن سعود لرواد مشروع الأوائل اي مجال للتكاسل ، وبعث اليهم بأحد الفقهاء وعدد من المدرسين لانشاء مدرسة ثم اعطاهم بعض المال وبذور الشعير والحنطة ووعد كلا منهم ببندقية وذخيرة .

ونما « الهجر » وترعرع وتعرض لبعض الفشل وخيبات الأمل ، فقد قاسى البدو كثيراً ليألفوا الاعمال اليدوية . فلما اقبل الربيع استبد الحنين الى الصحراء بالكثيرين منهم وعانوا كثيراً في مقاومة غريزة الترحل التي تشتد في هذا الفصل ، وعجز بعضهم عن المقاومة فأسلم امره الى الله معتبراً ان لا جدوى من زراعة الحقول ، وان العناية الالهية ستتولى شؤونها . وكانت هناك منازعات بالاضافة الى الانسحاب والانشقاقات .

ولكن « الاورطاوية » ازدهرت مع هذا كله، وكان اختيار موقع «الهجر» موفقاً رغم الظواهر، فلما رويت الأرض تكشفت عن خصوبة نادرة ونبت فيها العشب والقمح والحلفاء، وتحول الهجر الصغير الى قرية صغيرة ثم الى بلدة ثم الى مدينة. واصبح سكانها يفخرون، فيما بعد، بأنهم اتقى المسلمين في نجد كلها، متشددين في كل ما يتعلق بشؤون الدين والعبادة، حتى ان العرب غير الوهابيين ما كانوا يجرأون على زيارتهم، وتخلوا عن كسوة الرأس الموروثة عن قبائلهم، واعتمروا بالعمامة البيضاء التي كان يعتمر بمثلها الامام محمد عبد الوهاب رمزاً للطهارة والنقاء. وكانوا يعتزون بأسم «الاخوان» الذي اطلقه عليهم ابن سعود تيمناً بكتائب النبي المظفرة واصبحوا ينظرون الى البدو الاخرين نظرتهم الى قوم دونهم في المستوى غارقين في الظلمات والجهل. وكان هؤلاء المتعبدون الصارمون محاربين يخشى بأسهم، مستعدين دائماً للحرب والقتال يجمعهم شعار واحد: «نحن فرسان التوحيد اخوان من اطاع الله».

وتزايد عدد المتطوعين. وجاءت لزيارة « الاورطاوية »، قبيلة « مطير » التي ثارت قبل سنوات والتي لقيت من ابن سعود اشد العقاب، فسرت لما شهدت من نتائج، وطلبت الانضمام كلها الى «الهجر» وانخرط رئيسها الشيخ فيصل آل الدويش في صفوف الاخوان.

وجاء هذا كله دليلاً لا يدحض على نجاح التجربة، لأن الدويش زعيم الثورة الذي نجح باعجوبة من غضب ابن سعود، لم يكن محارباً له وزنه وحسب بل كان واحداً من اشد المتمسكين بالسيادة البدوية وتقاليدها وكان انخراطه بالاورطاوية بالنسبة الى ابن سعود انتصاراً معنوياً لا يقدر بثمن.

وخرج ابن سعود بنتيجة بارزة من هذا الحادث، لم يكن هدفه الاصلاحى حمل القبائل على تناسي الخلافات الشخصية فالواجب يقضي بأن يضرب هو المثل، فأقدم برأى سديد وبعده نظر على التصافي مع الدويش على الملأ. ثم

عينه قائداً اعلى للاخوان وحاكماً على « الاورطاوية » . وقد رمى ابن سعود بأسناد هذا المنصب الى عدوه القديم الى ان يبرهن للقبائل على ان الخلافات الشخصية السابقة زائلة امام هدف الوحدة الذي اخذ على عاتقه تحقيقه .

واصبحت « الاورطاوية » بعد انضمام « المطيريين » الجماعي اليها ، اصغر من ان تستوعب سكانها ، فنزحت عنها جماعات لتأسيس مواقع جديدة على الطريقة نفسها . فكانت « الدلم » و « شقراء » و « ساجر » وسواها . وعين ابن سعود متطوعين من الرعيل الاول للاشراف على المراكز الجديدة ، وعني عناية خاصة بدمج القبائل في مواطنها الجديدة بعضها ببعض للحيلولة دون تجمعها في موطن واحد وانقسامها الى فرقاء متنازعين . ثم منح كل « هجر » امتيازات خاصة ليكون ممثلاً لجماعة موحدة متميزة عن سواها من قبائل الصحراء وارفع منها مقاماً .

فلما بلغت « الهجر » درجة كافية من التطور والنمو ، بدأ ابن سعود يجند منها المتطوعين ، فتكونت لديه فرق متفوقة من حيث الحجم والسلامة الجسدية والمعنويات على سواها من الفرق التي تجند من الاقاليم الاخرى .

وما هي الا سنوات خمس على تأسيس « الهجر » الاول حتى كان لدى ابن سعود جيش من الاخوان ، قوامه خمسون الف مقاتل . جيش دائم ثابت ، متماسك الوحدات يبعث الفخر في نفس الذي اوجده ، ابن منه الوحدات المبعثرة التي كانت تجمع من القبائل وفقاً للصدف .

كان ابن سعود يملك حتى ذلك التاريخ جهازاً عسكرياً على مستوى نجد . واما اليوم فإنه يملك جيشاً على مستوى شبه الجزيرة العربية كلها .

٢ آب سنة ١٩١٤ ذلك اليوم المصيري في تاريخ اوروبا . لقد تردد دويه كقصف الرعد حتى اعماق الشرق ، وكان اشارة الموت بالنسبة الى البعض الاخر . واصاخ العرب بأسماعهم ، من القاهرة الى البصرة ، ومن عدن الى بغداد ، آملين ان تحمل لهم الحرب بشائر نعي الامبراطورية العثمانية .

وكان على ابن سعود ان يتنبه لما يجري . فمئذ بضعة اشهر ، والجزيرة العربية تعج بالعملاء السريين من انكليز والماسن وفرنسيين وروس وترك واطالين ويابانيين اتوا من كل ناحية : من السويس والبصرة وبومباي وطهران بحثاً عن الحلفاء استعداداً للصراع المقبل . ولكن ابن سعود لم يشعر بقرب هبوب العاصفة لانها كنه بالقضايا الداخلية لشبه الجزيرة العربية .

وترأى له في البدء ان اشترك تركيا في الحرب يتناسب كل التناسب مع اهدافه . فها هي بريطانيا الآن في صراع مكشوف مع الاستانة ، افليس هذا هو الوقت الملائم لكي يوجه الى الحجاز الضربة المفاجئة التي نجحت في الاحساء ؟ واذا اخرج الحسين والحاميات التركية من الحجاز ، فهل تتركه بريطانيا وشأنه ؟ ام انها ترفض الاعتراف بسيادته على هذه المنطقة ؟

قرر ابن سعود - كما في السابق - استشارة الشيخ مبارك ، فقد كانت نصائحه ثمينة ومفيدة في هذا المجال .

وكان بعض الانفعال بادياً على ابن سعود عندما اجتاز عتبة قصر الكويت حيث تلقى وهو يافع ، دروس السياسة الأولى ، ولكنه كاد لا يتعرف على صديقه القديم عندما دخل عليه في مكتبه . لقد شاخ مبارك وهرم كثيراً منذ

لقائهما الاخير . وها هو يتقدم محدودب الظهر ذاوي النظرات ، ذابل التقاطيع غائر العينين . انه يطلي شعره وشاربيه بالحناء وتمتلىء اصابعه المعرورقة بالخواتم الماسية الضخمة . ان له سحنة غريبة هذه المرة ~~تم~~ عن طمع وجشع اكثر من ذي قبل . لقد عهد مبارك بالامارة الى ابنه سليم لشعوره بالارهاق الجسماني ولكنه احتفظ بكل بريق تفكيره وظل على اطلاع على كل ما يحاك من الدسائس في العالم .

وكان شعور الرجلين لدى التقائهما مختلفاً ، فقد اکتأب ابن سعود لما رأى ما فعلته السنون في صديقه القديم . واما مبارك فقد ساوره القلق وهو يرى كم نما تلميذه وكبر ، واحس بالندامة على ما قدمه له من عون . فأذا هو اليوم ملك ذو شأن تمتد سلطته الى الخليج العربي . فماذا يحدث لو حلا لابن سعود ، ان يبتلع الكويت بعدما هضم الاحساء ؟ وهل سينعه الانكليز ؟ ... نعم اذا كان عدواً لهم ، واما اذا تحالف معهم ... افلا يجد ساسة لندن مصلحة في استبدال سليم ابن مبارك الفتى اليسافع الذي لا يتمتع بأية ميزة بحاكم اجدر واكثر حيوية ؟ يجب بأي ثمن ، منع اي اتفاق بين ابن سعود وممثلي حكومة صاحب الجلالة .

كان ملك نجد بعيداً عن هذه الأفكار السوداء فصارح مباركاً بأهدافه في الحجاز وطلب منه براءة ان يدافع عن موقفه تجاه الحكومة البريطانية فبسط مبارك ذراعيه وصاح استهجاناً :

-- هل انت مجنون يا صديقي الفتى ؟ ان مهاجمة الحجاز هو اسوأ ما يمكنك ان تقدم عليه . واحذر ، بوجه خاص ، ان تمس الحسين . افلست راضياً عن اوضاعك الراهنة ؟ ما بالك تتسرع لتلقي بنفسك بين شذقي الذئب ! لو كنت محلك ، لحصرت جهدي في اواسط شبه الجزيرة العربية والتزمت سياسة الحياد ، حتى تمر العاصفة .

عاد ابن سعود الى الرياض غاضباً وقد خيبت هذه المقابلة آماله ، فان عبارات مبارك المعسولة وسحنته المتخوفة وتلميحاته التي تم عن خطر واضح وهو يتكلم

عن الحجاز والحسين ، قد اثارت المرارة في نفس ملك نجد ، وكان لها وقعها غير المستحب : اي دور يلعبه ذلك العجوز ؟ لقد رآه من قبل وهو بعد فتى في مواقف مسرحية ممثلة حيال الذين ينبغي خداعهم . النتيجة الوحيدة التي استخلصها من اجتماع الكويت ضرورة الحذر من كان يحسبه صديقاً ، فقد زال عهد الصداقة بينها ، وان عليه ان يعتمد على نفسه في سياسته الخارجية كما يعتمد في سياسته الداخلية .

تلك كانت انطباعاته عندما يستقبل المرة بعد المرة ، عملاء الالمان القادمين من البصرة وعملاء الانكليز القادمين من الكويت ، في محاولة لاجتذاب الملك الى هذا المعسكر او ذاك .

٤٢

اصبح ملك نجد حيال اختيار صعب . ان مبارك ينصح « بسياسة الحياد » ولكن الحياد يعني العزلة والتعرض بدون وسائل دفاعية كافية لكل مطامع جيرانه . ولقد وعى شيوخ الامارات والاقاليم المجاورة وولاتها هذه الحقيقة فبادر كل منهم الى اتخاذ موقف معين .

من تراه يكسب الحرب ؟ الاتراك ام الانكليز ؟ ذلك هو السؤال الذي يتوقف عليه كل شيء . لم يكن من السهل ان يعطى هذا السؤال جواباً في بداية الحرب . فالاتراك هم القوة القريبة الاشد خطورة وهم حلفاء للالمان الاغنياء الاقوياء . ولكن ابن سعود يأنف محالفتهم مها بلغت عروضهم ووعودهم لان انتصارهم يعني انهيار احلامه والقضاء نهائياً على فكرة تحرير الجزيرة العربية .

واما الانكليز فان سياستهم لم تكن هي الاخرى ، اكثر صفاء . فما عسام

فاعلون بالجزيرة العربية اذا انتصروا في الحرب ؟ وما هي حقيقة نواياهم بالنسبة الى السعوديين ؟

كان البريطانيون قد بدلوا كثيراً من وجهة نظرهم الى ابن سعود . فلم يعد تلك الشخصية القليلة الامة . انه يشرف الآن على جزء كبير من الخليج العربي ويملك قوة يحسب لها حساب ، لذلك اوفدوا اليه قنصلهم في الكويت المستر « شكبير » لاقتناعه بالتحالف معهم او بالوقوف على الحياد على الأقل .

وجاء « شكبير » فقابل ابن سعود وطلب اليه في الحاح اعلان الحرب على الاتراك . ولكن الملك لم يفته ما ينطوي عليه اعلان الحرب هذا من مغامرة ولم يشأ الوقوع في هذا الخطأ ، فرفض الانجراف في هذا التيار وقدم اقتراحاً لمؤازرة القضية البريطانية بصورة غير مباشرة ... بالزحف على الحجاز وطرده الشريف حسين حليف الاتراك . فاوضح له « شكبير » بلهجة جافة استحالة تحقيق هذه الفكرة واوعز الى ابن سعود بالعدول عنها ، وطالت المباحثات عدة اسابيع دون التوصل الى نتيجة ، فقد اصم الملك اذنيه عن تحريض الانكليز ، واما « شكبير » فقد تظاهر بانه لم يفهم ما يرمي اليه ابن سعود .

وهنا حدثت المفاجأة ، فقد احيط الاتراك علماً بهذه المفاوضات ، وكان الامير مبارك هو الذي كشف لهم السر ، فقلقوا اشد القلق وقرروا وضع حد سريع لها ، فساقوا على عجل عدة قبائل من « شمر » و « حائل » وتولوا قيادتها الى الرياض . لقد كشف مبارك اوراقه وكانت خيانتة لابن سعود خيانة فاضحة

قطع ابن سعود محادثاته وجهاز فرقة كبيرة من الاخوان وانطلق لمواجهة الزحف التركي فالتحم الجيشان في موقع « جراب » قرب الاورطاوية ، وكانت القوات المعادية تتألف ، بالاضافة الى الشمريين ، من عدة كتائب من الجيش



النظامي التركي تدعمه فصائل من المدفعية . ونشبت المعركة عند الفجر وحمي وطيسها طوال النهار . وابدت تشكيلات الاخوان ثباتاً رائعاً وهي تخوض المعركة الاولى الدامية من تاريخها . ثم تحولت الى شن سلسلة من الهجمات الموقفة على القوات العثمانية . وشاء مستر « شكسبير » ان يختبر بنفسه عن كثب مدى كفاءة « الاخوان » العسكرية ، فتوجه الى حيث المعركة وجلس على كرسي يشرب الشاي ويراقب سيرها في هدوء الى ان فاجأته جماعة من الفرسان الشمريين احاطوا به وقتلوه وامين سره ضرباً بالسيوف .

ولما حل الغسق اخذ الاعياء الجنود الاتراك قبدأوا يتخلون عن مواقعهم ويتراجعون نحو الشمال .

لقد نجا ابن سعود من المأزق ، ولكنه كان بعيداً عن ادراك النصر واصيبت قواته بخسائر هامة وانتشرت الأقاويل بأن سمعة « الاخوان » الحربية مبالغ فيها وبأن بعض الكتائب التركية كانت كافية لدحرمهم لو عززتها فصيلة من الالمان .

وادرك ابن سعود اكثر من اي وقت مضى ان من الخطأ البقاء في عزلة . فما الذي يمكن توقعه من الاتراك والالمان ؟ الم يكشفوا عن مشاعرهم الحقيقية نحوه؟ ولذا ، فقد استأنف المحادثات مع الانكليز وانتقل الى « عقير » - احد موانئ الاحساء - حيث اجتمع بمستر « كوكس » خليفة « شكسبير » في القنصلية البريطانية في الكويت . واتفق الفريقان بسرعة ، هذه المرة ، فلم يثر ابن سعود مسألة الحجاز ووقع مع المفوض الانكليزي اتفاقاً يعلن فيه وقوفه الى جانب بريطانيا ، ويتعهد تعهداً قاطعاً بالا يهاجم حلفاءها او يساعد اعداءها ولكنه لم يلزم نفسه بالاشتراك فعلياً في العمليات العسكرية . واعترف الانكليز من جهتهم ، بملكية ابن سعود على نجد والاحساء واستقلال هاتين المقاطعتين عن الاتراك ، وتعهدوا بالاطمئنان هذه المناطق موضع بحث عند تقسيم الامبراطورية العثمانية ، وبأن يدفعوا له معونة شهرية قدرها خمسة آلاف ليرة استرلينية ذهبية

وان يقدموا له الاسلحة وان يهبوا لمساعدته اذا تعرض لأي اعتداء .

غادر ابن سعود ميناء « عقير » مبتهجاً لهذا التسوية فهو غير ملزم بمحاربة الاتراك ولكنه ضمن الحماية ضد اي هجوم جديد محتمل من جهتهم، كما ان الصيغة التي تعهد بموجبها بالا يهاجم حلفاء بريطانيا والا يساعد اعداءها تترك الباب مفتوحاً لعملية ضد الشريف حسين . لقد حصل ، دفعة واحدة ، على كل ما يتغيه وقال في نفسه :

لو ان الانكليز كانوا واثقين من النصر الى الحد الذي يزعمونه ، لما منحوه شروطاً ملائمة الى هذا الحد ...

٤٣

امتدت الحرب العالمية الاولى التي بدأت في سهول « الفلاندر » بفرنسا ، بسرعة الى الحوض الشرقي للبحر الابيض المتوسط . فقد جعل الاتراك ، منذ كانون الاول ١٩١٤ ، من الشرق محوراً لعملياتهم الحربية في مختلف الاتجاهات . وكان جمال باشا احد الثلاثي الحاكم قد عين والياً على سورية بسلطات توازي سلطات نائب للملك فزحفت في ١١ كانون الثاني ١٩١٥ على قناة السويس على رأس جيش مؤلف من ٤ الف رجل بقيادة الضابطين الالمانيين الكولونيل « كريس فون كريسنستين » والكولونيل « فون سيكت » فهاجم الطريق المائي في طوسون قرب الاسماعيلية ولكن المدفعية والسفن الحربية البريطانية صدته عن منطقة القناة ( ٣ شباط ) .

ونزلت خلال ذلك قوة بريطانية قادمة من الهند بقيادة الجنرال « تاوسند » في جوف الخليج العربي واستولت على مدينة البصرة وزحفت بمحاذاة مجرى

نهر دجلة متجهة الى بغداد ولكنها هزمت في ٢٢ تشرين الثاني ١٩١٥ ، ثم طوقت في « كوت العماره » واضطرت الى الاستسلام ( ٢٩ نيسان ١٩١٦ )

وجاءت هزيمة « كوت العماره » بعد فشل حملة الدردنيل ضربة قاسية للمعنويات البريطانية في الشرق الادنى . وشاءت بريطانيا تخفيف وطأة هذه الهزيمة بشن هجوم يبدأ من مصر بقيادة الجنرال « ارشيبالد موراي » ويستهدف الاستيلاء على شبه جزيرة سيناء ، ثم يخترق فلسطين باتجاه القدس ودمشق . وكانت هذه العملية على جانب كبير من الدقة لان مؤخرة القوات البريطانية في صعودها على طول الساحل ، ستكون معرضة لخطر الحاميات التركية المتمركزة في المدينة المنورة ومدن الحجاز الاخرى . وكان ذلك هو الظرف الذي يترقبه ابن سعود ليزحف الى مكة ولن يعترض البريطانيون على هذه العملية التي تتلاءم مع خطتهم وتؤمن لهم حماية مواقعهم الخلفية . واما الاتراك فسيعجزون عن المقاومة لان معظم قواتهم سيكون منهمكا في قتال الانكليز .

وكان ابن سعود يضع اللمسات الاخيرة لاستعداداته العسكرية عندما حدثت المفاجأة في السادس من تشرين الثاني ١٩١٦ فأعلن الشريف حسين استقلال الحجاز ونقض يمين الولاء للسلطان ، وكشف رسمياً عن تحالفه مع بريطانيا ، ثم اذاع بياناً مدوياً دعا فيه جميع زعماء الجزيرة العربية للانضمام اليه في حملة عامة من اجل الاستقلال .

لقد اعد هذا التحول منذ وقت طويل ، على يد « سير هنري ماكماهون »<sup>(١)</sup> المفوض السامي البريطاني في مصر واعضاء المكتب العربي للمخابرات البريطانية في

---

١ - تم التوصل الى هذا الاتفاق بين الشريف حسين وسير هنري ماك ما هون في رسائل سرية متبادلة. وقد تعهد المفوض السامي البريطاني في رسالة مؤرخة في ٢٤ تشرين الاول ١٩١٥ =

القاهرة، وكان تطور العمليات الحربية قد جعل من الشريف حسين عاملاً هاماً في منطقة الشرق الأدنى. وبذل الانكليز كل ما في وسعهم لاستمالة وحمله على التخلي عن الاتراك، فتعهدوا بان يعترفوا بسيادته على الحجاز وبأن يدفعوا له معونة شهرية قدرها عشرون الف ليرة ذهبية انكليزية، وداعبوا خياله وطموحه بتنصيبه رئيساً لاتحاد يضم الدول العربية كلها. وكان ذلك كافياً لاقتناع الشيخ الطموح بالانفصال عن الاستانة.

وقد ادى تبدل موقف الحسين الى تعديل كلي للموقف الاستراتيجي في الجزيرة العربية، واصبح للانكليز حليف ثمين يعتمدون عليه في طرد الحاميات التركية وحماية الجناح الايمن لجيشهم في سيناء، وحرمان الالمان والاتراك من اية قاعدة لغواصاتهم في البحر الاحمر، ذلك الطريق المائي الهام الذي تعبره القوافل القادمة من الهند كلها.

لقد شهد ابن سعود، حتى الآن، كثيراً من المفاجآت السياسية المسرحية، ولكنه لم يدهش كما دهش لهذه المفاجأة في تخلي الحسين عن الاتراك وانضمامه الى الانكليز.. لقد اتضح له الآن دفعة واحدة كثير من الامور التي ظلت غامضة حتى الآن: لقد علم من الثوار السوريين من جماعة حزب الفتاة الذين جاءوا والطلب مساعدته، انهم متفقون مع الشريف حسين!... فالشريف كان متأمراً اذن على الاستانة منذ زمن غير قريب... ذلك ما دفع الامير مباركاً على تحذيره من التعرض للحجاز، وبدا له السبب الذي من اجله استبعد «شكبير» اية مناقشة في هذا الموضوع. كما تبين له السبب الذي دعا «كوكس» الى التساهل في شروطه اثناء مباحثات «عقير». تعهد ابن سعود تعهداً صريحاً بالا يهاجم حلفاء

---

= باستعداد الانكليز لتأييد استقلال العرب في ديارهم الممتدة من طوروس الى ايران الى الخليج العربي فالهيط الهندي والبحرين الاحمر والمتوسط.

بريطانيا ، وكان ذلك التعهد مبهماً في ذلك الحين فاصبح له اليوم معنى واضح مفهوم بعد ان اعلن الحسين حليفاً لبريطانيا .

وبدأ الشريف حسين بمهاجمة الحاميات التركية في الحجاز بمساعدة ابنائه الثلاثة علي وفيصل وعبد الله ، فرد الاتراك بهجوم معاكس ضار حتى مالت الكفة ضد الهاشميين ، فأرسل الانكليز بعض القطع البحرية الى جدة وينبع وسواهما فافرغت كميات من البنادق والمدافع والذخيرة وصناديق ملأى بالذهب وقبضة من الضباط النشيطين : « ستورث » و « ويلسون » و « يونغ » و « كوهان » « توماس ادوارد لورنس » .

اثارت حماسة الضباط البريطانيين جنود الشريف حسين ، فاستعادوا الثقة بأنفسهم ، وتمكن حسين بواسطة الذهب البريطاني من اعادة تجنيد المحاربين من قبائل الداخل - بما في ذلك القبائل النجدية - ومن تعزيز اسلحة قواته ومعداتها .

وهكذا استولت قوات الشريف حسين على العقبة في صعودها بجوار الخط الحديدي الذي يصل المدينة المنورة بدمشق ، ثم اتصلت بقيادة فيصل ولورنس - الذي رفع الى رتبة كولونيل - بالقوات البريطانية القادمة عبر شبه جزيرة سيناء ، وقذف الجيشان معاً بالقوات التركية الى بئر السبع وغزة ( ٩ كانون الثاني ١٩١٧ ) .

وخلال ذلك ، كانت قوة بريطانية ثالثة احسن تجهيزاً من الاولى قدنزلت في مرفأ البصرة وسلكت الطريق نفسه الذي سلكه الجنرال « تاوساند » على مجرى نهر دجلة ، وانتهى الاتراك المرابطون في « كوت العمارة » الى الاستسلام ( شباط ١٩١٧ ) وشق هذا النصر ، الذي محاهزيمة العمام الماضي ، طريق بغداد - الموصل امام الحلفاء .

وتمكن الانكليز من صد الهجمات العثمانية المضادة على اختلاف الجبهات واخذوا يجمعون فرقتهم استعداداً للهجوم الاخير . فقد خلف الجنرال اللنبي « الجنرال ارشيبالد موراي » في القاهرة ، وكان القائد الجديد العملاق شديد التفاؤل فوضع خطة تقضي بالتقاء جيش سيناء القادم من الجنوب بجيش البصرة القادم من الشرق ، في جوار حلب . ثم يزحف الجيشان معاً لاحتلال الاستانة .

ومن جهة اخرى كان الجنود الأتراك المفتقرون الى السلاح والذخيرة والمؤونة يموتون بالآلاف جوعاً ومرضاً . فالنتيجة لم تعد موضع شك .

حرص الانكليز ، قبل هجومهم الكبير ، على الحصول على مساندة جميع الزعماء العرب ، لان حملة « اللنبي » تصبح اكثر نجاحاً اذا اشتدت وطأة انفرسان العرب على الجناح الايمن للجيش التركي . فاوفدت الحكومة البريطانية ، لهذه الغاية ، بعثة الى الرياض لدعوة ملك نجد للمساهمة في القتال ، وكانت البعثة برئاسة « سانت جون » و « والنورد » و « بلهافن » .

استقبل ابن سعود المبعوثين البريطانيين بحفاوة بالغة في قصره بالرياض ، مع ان العلماء وعامة الشعب استفظعوا استضافته لهؤلاء الأجانب . واصفى ابن سعود باهتمام لاقوال « فيليبي » وبلهافن ، ولكنه تمسك كل التمسك بحياده وفشلت احدى حجج البريطانيين في اقناعه بالترشح عن موقفه . لقد كان مقتنعاً بأن الحياد هو السياسة الفضلى ، وان من الخطأ الارتقاء دون روية في اتون الحرب .

وكانت دعوة الانكليز لابن سعود للاشتراك في الحملة العربية ضد الاتراك تحمل في طياتها وضعاً ياباه ، لانها تجعله احد الدائرين في فلك الشريف حسين ، ثم انه لا يؤمن بحدية مشاريع الاتحاد العربي التي ترعاها بريطانيا . وهو الى جانب ذلك يؤمن بأن رسالة الوحدة والثورة الصادقة انما تنطلق من نجد قلب الجزيرة العربية ومنبع العروبة الصافي الاصيل .

وكان ابن سعود يزداد حدة كلما كان يسمع بالمبالغ الطائلة التي تدفعها لندن للحسين لتجنيد المقاتلين من داخل نجد بالذات . وكان يقول للمبعوثين البريطانيين :

— انكم تخطثون في ذلك ، ففي اليوم الذي تنقطع فيه مساعداتكم عن الحجاز سينهار الحكم هناك لدى اول ضربة من سفي ، وتطلع الي جميع القبائل تطلعها الي محرر منقذ .

وغادر « بلهافن وفيلبي » الرياض دون اية نتيجة ، ولكنها خرجا بانطباع جديد بأن ملك نجد ابرز شخصية في الجزيرة العربية وان الفرق شاسع بينه وبين سواه ، وان بريطانيا قد تكون مخطئة بتركيز سياستها العربية كلها على الشريف حسين .

٤٤

تعثرت العمليات الحربية البريطانية في ذلك الوقت ، واضطر الجنرال «النبلي» الى تأجيل موعد هجومه الكبير مرات عدة . فقد صمد الجنود الاتراك ، رغم سوء وضعهم وافتقارهم الى السلاح والمؤن ، وأرغموا القوات الانكليزية على التوقف في خط يمتد من شمالي يافا الى عمان بعد الهجوم الذي اوصلها الى هذه المواقع ( ١٧ تشرين الثاني ١٩١٧ ) ثم الى القدس « في التاسع من كانون الاول ) .

وازدادت العلاقات سوءاً بين ابن سعود والشريف حسين بحلول العام ١٩١٨ . وشعر الانكليز بمرج الموقف بينها ، فاصدروا اوامرهم الى الماجور « فيلبي »



بالعودة الى الرياض على رأس بعثة صغيرة والاقامة فيها بصورة دائمة لتفادي وقوع الانفجار .

وفوجيء الجميع في ربيع العام ١٩١٨ بوقوع حادث غير متوقع كاد يشعل النار في البارود . فقد التحقت بلدة « خرمه » بالاخوان ووضعت نفسها بذلك تلقائياً في حماية ابن سعود .

تقع « خرمه » على تخوم « عتيبة » والحجاز في موضع يجعل ملكيتها مبهمه غير واضحة وكانت مع ذلك سوقاً هامة يؤمها بدو الداخل لبيع قطعانهم من تجار الساحل ولم يكن بوسع الحسين الاغضاء عن انتقال هذا الموقع الهام الى منطقة نفوذ غريمه فأرسل قواته الى « خرمه » لتثبيت حقوقه فيها وسلطانه عليها . وقاوم السكان المحاصرون مقاومة بطولية ، ثم اضطروا الى الاستسلام امام قوات تفوقهم عدداً ، وذبح قسم منهم بأيدي المشاة الحجازيين .

واثار هذا العمل الوحشي موجة من السخط في انحاء نجد وطالب « الاخوان » بالزحف العاجل الى « خرمه » والانتقام لاخوانهم فيها ، وخاطب قديهم ابن سعود بقولهم :

- هيا امتشق حسامك وسر بنا الى المعركة لسقذ اخواننا من برثن الشاذين عن الدين . اليس عاراً ان تبقى الديار المقدسة في عهدة رجل استحل دماء اخواننا في العقيدة .

ورد عليهم ابن سعود بقوله :

- لا ريب في ما تقولون ولكن هناك مصلحة علينا تحملنا على التذرع بالصبر .

لقد وقع ابن سعود في حيرة . فان عواطفه ومصالحه وكبرياء شعبه تهب به

الى مهاجمة الحسين ، ولكن الجنرال « فيلي » وهو يراقب الموقف بدقة وانتباه ، كان يذكر املك دائماً باتفاقية « العقير » ويردد على مسامعه :

– لا تنس ان الحسين حليف بريطانيا وان في مهاجمته خرقاً لبنود الاتفاق .

ورأى « فيلي » ان يحول انظار ابن سعود عن الحجاز فاقترح عليه الزحف الى دمشق – مما يسهل هجوم النبي – او باتجاه الشمال الغربي على مقاطعة « حائل » حيث عين الأتراك والياً يدعى محمداً بن الرشيد هو حفيد ابن الرشيد السالف الذي يثير اسمه في نفس ابن سعود ذكريات معارك الشباب .

ولكن ملك نجد تردد في الاخذ بهذه النصيحة ووجه كتاب احتجاج عنيف اللهجة الى الحسين يشجب فيه ما يلقاه اهالي خرمة من سوء المعاملة ويطلب منه سحب قواته من المدينة . وكانت بادرة غير موفقة من ابن سعود لانها تفتقر الى دعم عسكري .

وكان الحسين واثقاً من تأييد الانكليز له فرد الى ابن سعود رسالته دون ان يقرأها وقال للرسول :

– عد الى الرياض وقل لعبد العزيز بأن الوقت لن يطول حتى أزحف انا الحسين الى نجد لاطرده واطرد اسرته واقضي على جميع الوهابيين .

قال الحسين ذلك على الملأ حتى يسمعه اي انسان . حتى بلغت الاهانة حداً يبعث على الظن بأن ملك الحجاز كان يسعى بكل الوسائل الى اثاره ابن سعود وتوريطه في مأزق خطير .

ولم يسع ملك نجد ان يدرك كنه تصرفات الانكليز ! ان يمنعوه من مهاجمة الحسين حليفهم ... فذلك امر طبيعي ، ولكن لم لا يمنعون الحسين من التعرض

لابن سعود ما داموا يملكون وسائل الضغط عليه ؟ وماذا يعني هذا التناقض في الموقف ، ايدعي الجميع بأنهم « اصدقاء » فيما يشهد كل منهم سكينه لقتل الآخر !

والواقع ان كثيرين من الانكليز انفسهم لم يفهموا ، مثلما لم يفهم ابن سعود ، أغاز تلك التصرفات في ذلك الحين ، لانهم كانوا يجهلون ما أصبح اليوم معروفاً .

فقد كان الماجور « فيلي » ، الذي يساند ابن سعود ، ينتمي الى « المكتب الهندي » - انديان اوفيس - في بومباي ، التابع لحكومة الهند ، في حين كان الكولونيل « لورنس » الذي يؤيد الحسين ، ملحقاً « بالمكتب العربي » - ارابيان اوفيس - في القاهرة المرتبط بوزارة الخارجية في لندن . وكان كل من المكتبين ينهج سياسة مستقلة عن سياسة زميله ، فلم تتباين مواقفها فحسب ، بل غالباً ما كانت على طرفي نقيض .

وكان اهتمام « المكتب الهندي » يدور حول بلاد ما بين النهرين والطريق « البرية » الى الهند ، لذلك عمل المشرفون على هذا المكتب على التفاهم مع الحكام المسيطرين على ساحل الخليج العربي فتصلوا بالأمير مبارك خلال اقامته في بومباي واقاموا بفضله محمية في الكويت ثم اجروا بواسطته اتصالاً مع ابن سعود اتاح له تحقيق فتح الاحساء .

اما رؤساء « المكتب العربي » فكان اهتمامهم ، ينصب قبل اي شيء ، على السويس و عدن والطريق البحرية الى الهند . فعملوا لذلك على نشر نفوذهم بين الامراء المسيطرين على ساحل البحر الاحمر ، فهم الذين فاوضوا الحسين حتى حملوه على التخلي عن الاتراك ، ولا بد لهم اليوم من مساندة اعدائه ومطامحه واصبحت

السياسات المتبعة من قبل الجهازين الانكليزيين متعادية متخاصمة تعكس خصومات الملكتين المتنازعتين .

لقد تعهد لورنس للحسين بالاتفاق مع « ماك ماهون » سنة ١٩١٦ بتنصيبه رئيساً لدولة اتحادية عربية تنشأ بعد الحرب ، كما تعهد بمنح العراق وسورية لابنه فيصل ، وشرقي الاردن وفلسطين لابنه عبد الله . ولكن وزارة الخارجية البريطانية وقعت بعد ذلك بالاتفاق مع النبي معاهدة تمنح فرنسا بموجبها حق الانتداب الفرنسي على سورية خلافاً للتعهدات المقطوعة لفيصل <sup>(١)</sup> وتعهد اللورد « بالفور » من جهة اخرى للصهيونيين بالمساعدة على انشاء « وطن قومي » لليهود في فلسطين خلافاً للتعهدات المقطوعة لعبد الله بن الحسين <sup>(٢)</sup> .

وقع لورنس في الشرك ولم يعد مؤلف « اعمدة الحكمة السبعة » يعرف كيف يتصرف ، فقال في كتابه : « كنت احد ضباط النبي وكان يتوقع مني ان افعل كل ما في وسعي لخدمته ، وكنت مستشار فيصل وكان يعتمد على شرفي وعلى نفوذي ، الى حد انه غالباً ما كان يأخذ بأرائي فوراً . ولم يكن بأستطاعتي مع ذلك ، ان اشرح للجنرال « النبي » حقيقة الموقف ، ولا ان اكشف لفيصل مخططات الانكليز <sup>(٣)</sup> . »

لم يقف الامر عند هذا الحد . ولم تر الحكومة البريطانية بأساً ، في تلك الظروف الحرجة ، من نثر الوعود ذات اليمين وذات اليسار ، ومن التبرع بما لم تكن تملكه بعد ، فوعدت العرب - او بالاحرى لجنة من الاستقلاليين العرب في القاهرة - بالاراضي العربية التي يحتلها العثمانيون . ثم شاءت الحكومة البريطانية

١ - معاهدة سايكس بيكو ٦ ايار ١٩١٦

٢ - وعد « بالفور » الى اللورد روتشيلد ٢ تشرين الثاني ١٩١٧ .

٣ - « اعمدة الحكمة السبعة » .

ان تقيم الدليل على مقدرتها في بذل الوعود بنسبة عدد الفرقاء فأضافت الى الملفات الخاصة بالشريف حسين ، والحلفاء ، واللجنة العربية ، ملفاً اخر خاصاً باللورد « روتشيلد » والحركة الصهيونية العالمية . وانتهت الى محاولة اجراء مفاوضات منفصلة لانهاء الحرب مع الاتراك تحمل في طياتها - كما يقول لورنس : « الموت لعدد لا يحصى من العرب الذين يقاتلون الى جانبنا » .

هذه الوعود المتناقضة كانت حصيلة الخلافات والمنازعات بين الاجهزة البريطانية ، ولم يهتم بها خبراء « داوتنغ ستريت » كثيراً لاعتقادهم بأن النصر كفيل بتسوية كل شيء . الا ان هذا كله انعكس على الموقف في الشرق الادنى ومالت الاجهزة الى التحزب للجبهة التي تتعامل معها ، فاخذ لورنس يرمي بطاقاته جميعاً لصالح الحسين ، بينما انحاز فيليبي الى ابن سعود . وكان النزاع بين الضابطين البريطانيين يتفاقم بنسبة اشتداد الازمة بين ملكي نجد والحجاز .

٤٥

تجددت الاضطرابات في « خرمه » مرة اخرى ، اذ قدم السكان بطردحامية الحسين في حركة يائسة واستعدوا لاستئناف المقاومة واهابوا بابن سعود ان يسارع الى نجاتهم ، فلم يبد حراكاً شأنه في المرة السالفة .

وقام العلماء والايخوان بنددون : ما هذا الموقف ؟ ان جنود الحسين يقتلون اخواننا فيتفرج ابن سعود على المذبحة ، ولا يهب لنجاتهم ويبخل عليهم حتى بكلمة تأييد !

ومرة اخرى وجه اهل « خرمه » نداء استغاثة الى اخوانهم في نجد ، وكان النداء مؤثراً وكان له دوي كبير .

واعتكف ابن سعود في قصره ، ساكتاً لا يتكلم الا نادراً ، فالخيرة قد شلت  
 « فهد الصحراء » ، فما عساه صانع ؟ ان النزول عند رغبة الجيش معناه خرق  
 معاهدة «العقير» وسيكون رد فعل الانكليز سريعاً فيقضى على الاخوان ويضيع  
 عرش نجد والاحساء وتذهب بلاده نهياً ، وسيقتسمها الطامعون بعد انتهاء الحرب  
 وتفرض على شعبه السيطرة الاجنبية او يهمل شأنه ، فتنهار وحدته ويفرق مرة  
 اخرة في الفوضى .

ولكن القعود عن اية حركة سيرسخ الاتهامات الكاذبة في عقول الناس بأنه  
 يماليء الانكليز ، وسيثير ازمة داخلية . فياله من سيف ذي حدين ، ويا له من  
 موقف شائك لم يواجهه ابن سعود مثله من قبل ...

وعلم على حين غرة ، بأن محمداً بن الرشيد ، الذي تأكد من فشل الاتراك في  
 الحرب ، قد انتقل فجأة الى معسكر الحلفاء ، وان الحسين قدم له السلاح والعتاد  
 سراً ليهاجم الرياض ، فاسترد ابن سعود كل حيويته وتهياً الفهد للوثوب . فلن  
 يكون في وسع الانكليز الاعتراض ، ما دام هو المعتدى عليه . ثم الم يحرضوه  
 انفسهم على التخلص من ابن الرشيد ؟ وما دام الاخوان يتحرقون شوقاً للقتال  
 فلم لا يتولى قيادتهم لسحق العدو التقليدي الاميرة ؟ وتكون هذه المعركة بمثابة  
 تفريج للكبت الذي يعانيه المحاربون .

٤٦

قرر ابن سعود الدعوة الى اجتماع شعبي كبير يحضره ممثلو الشعب في مدينة  
 « شقرا » المركز الهام من مراكز الاخوان ، واستدعى قادة الجيش على عجل ،  
 فلبوا الدعوة بلهفة لا تقل عن لهفتهم الى القتال ، وما توقعوا الا ان الملك يستدعيهم  
 ليعلن لهم بدء المعركة ضد الحسين .

ووصل القادة واتباعهم الى « شقرا » الواحد بعد الآخر فكان ابن سعود يستقبلهم عند باب المدينة ، حتى لاح صبح اليوم التالي فاحتشد سكان « شقرا » والقرى المجاورة ، والقادة العسكريون واتباعهم ، في سهل رملي يقع شمالي المدينة وجاء الملك فجلس قبالتهم يحوطه حرسه الخاص . انه اضخم حشد عسكري عرفته الجزيرة العربية حتى الآن .

نهض ابن سعود وتفرس ملياً في وجوه الحاضرين وقال :

- لقد دعوتكم لاني بحاجة اليكم . فقد قررت بعد تفكير طويل اعلان الحرب .

فتفجرت الحناجر بهتافات صافية تستقبل تصريح الملك ، فالساعة قد حانت لتنفض غبار الجمود وتمسح عن جبينها عار اللامبالاة . واردف الملك في هدوء :

- لقد قررت اعلان الحرب . واما العدو الذي اطلب اليكم قهره فهو محمد ابن الرشيد .

فتجهت الوجوه ، وهدمت حماسة الجماهير ، وسرت بينها مهمة تعبر عن الاستياء . ووقف القادة العسكريون الجالسون في مقدمة الصفوف وطلبوا السماح لهم بالكلام وقال كل بدوره :

- ماذا يعني ذلك ؟ وما يهمننا من ابن الرشيد ، فليس هو ، بل الحسين ، من ينبغي قتاله .

ونالم يجب ابن سعود نهض فيصل آل الدويش ، القائد الاعلى للاخوان ، وطلب الكلام باسم الجيش كله ، فقال بالحاج :

- اننا نطالب بمحاربة الشريف حسين ، الذي يفتك باخواننا في « خرمة » .



اننا نطالب بمحاربة اعداء الدين ، ألم تجندنا انت وتعلمنا وتدرّبنا لهذه الغاية ؟  
ليس لك غير كلمة واحدة تقولها يا ابن سعود ونمشي وراءك حتى الموت ، شرط  
ان تقولها ضد الحسين الذي انتهك حرمة الديار المقدسة ، وعليك ان تعلم باننا لن  
نخضع لرغبات الاجنبي .

اصغى ابن سعود الى الدويش ولم يقاطعه ، لانه يعرف ما يدور في خلد قائد  
الاخوان . لقد قيل له ان المعركة ضد محمد بن الرشيد اوحى بها الانكليز وستكون  
لصالحهم . فقد كان الدويش يكره الانكليز كرهاً عظيماً . وذلك ما حداه الى  
انتقاد الملك في موقفه هذا الى جانب مصلحة الاجنبي .

ها هو الدويش يتكلم وخلفه قادة الاخوان وضباطهم يحتلون عدة صفوف  
وامارات وجوهم تنذر بعاصفة على وشك الهبوب . فلقد تكاثر عددهم في  
السنوات الاخيرة واصبحوا قوة يخشى بأسها في البلاد ... قوة تسعى الى فرض  
ارادتها والسيطرة .

اية كارثة يواجه ابن سعود ! . فالاخوان الذين هم صنع يديه ، والذين اوجدتهم  
من العدم وتعهدهم بالرعاية منذ كانوا حفنة من المتطوعين حتى اصبحوا الجيش  
الأول في الجزيرة العربية ، ها هم اليوم على عتبة التمرد وفي ذروة الغضب ، فهل  
يتلقى ابن سعود ضربة سيف صقله ودأب على العناية به طوال سنين . فابن سعود  
خير من يعرف طبيعة جيشه وتكوينه ، وما غاب عن ثاقب نظره ان ذلك  
الجيش يقف في تلك اللحظة على شفير الثورة ، وان خطاب الدويش قد اهب  
حماسه . واذا لم يقبض سريعاً على ناصية الأمور فان زمام جيشه قد يفلت منه  
الى الابد . ولكنها كانت عملية دقيقة ، فكلمة غير واضحة او بادرة تحمل على  
غير محلها او اشارة يساء تأويلها قد تدفع الاخوان الى ازاحة الملك والزحف الى  
مكة لسحق الحسين . واذا ذلك ، فلا مناص من فاجعة تحل بالاخوان ، اذ لا ريب

في ان الانكليز سيقضون عليهم بدفق من قنابل مدافعهم ومصفحاتهم  
وطائراتهم .

لم يكن على ابن سعود في تلك اللحظة الحرجة وهو يتخيل المجزرة الرهيبة ،  
ان ينقذ عرشه وحسب ، بل كان عليه ان ينقذ هؤلاء الرجال جميعاً ويصدمهم عن  
الانزلاق الى مغامرة انتحارية .

ومرت دقيقة صمت اطول من دهر قبل ان يقف ابن سعود ليقول بصوت  
بدأ هادئاً ، وازداد حدة كلما ازداد الملك انفعالاً :

سماً يا اخوان ، يا من تسمون بجنود الملك وانها لتسمية لا يدرك معناها  
الا من شاهدنا معاً في غمرات المعارك وساحات القتال . فالعواطف التي اكنها  
لكم ليست عواطف رئيس نحو مروؤسيه فحسب ، ولكنها مشاعر اخ نحو  
اخوانه وأب نحو ابنائه . فباسم هذه المشاعر اتكلم ومنها استوحى ما اقول  
وليس لي بعد الله من معين سواكم . اننا معاً كفيون بتحقيق كل شيء ، واما اذا  
انفرط عقداً فلا بد من تضؤل شأننا . فلا يظن احد منكم اني اعبت بما يترتب  
علي من واجبات ومن قال لكم هذا القول فهو شانيء تمام يستغل طيبة قلوبكم  
ويجهل ما ينوء به كاهلي من مسؤوليات جسام . انجيل اليكم ان آلام اخواننا  
في « خرمه » لا تثيرني وتحز في نفسي مثلاً تثيركم وتحز في نفوسكم ، ولكني اعرف  
ما تحتمة الضرورة . فكفوا عن الاهتمام بأمر الحسين . ويمناً بالله إما ان يمنعه  
الانكليز من تكرار اعتداءاته على « خرمه » واما ان نمشي اليه معاً لننزل به  
العقاب الذي يستحق .

بعثت هذه الكلمات الاخيرة الارتياح في صفوف الجموع وبدأ ابن سعود  
يستعيد واقعه . فقد كان يعرف كيف يتحدث الى اولئك الرجال وينفذ  
الى اعماق قلوبهم . خطيب لا يجري يكاد يقرأ افكار الذين يتحدث اليهم ،

وإذا تحدث الى جنوده تغفل الى قرارة صدورهم واحل ارادته محل اراداتهم<sup>(١)</sup>.

اي مشهد! واي معركة! اين تكافؤ القوى؟ هذا عبد العزيز بن سعود، وهو وحيد، اعزل، يقابل جمعاً مسلحاً تعصف به الثورة، فيسيطر عليه ببضع كلمات.

وتابع عبد العزيز:

— واما بشأن محمد بن الرشيد فالانكليز قد استعجلوني حقاً امر قتاله، ولن احاول ان اخفي عليكم هذه الحقيقة ولن يجني ثمار المعركة والنصر سوانا نحن، سيقدمون لنا السلاح والذخيرة وسنصبح في موقف افضل لتسوية الحساب مع الحسين. وسيرفع الانكليز يدهم عن قبائل الصحراء جميعاً متى فتحنا اقليم «حايل»، واما الحاكمون المفسدون في اطراف البلاد فيسخرسون لسيطرتنا ويتاح لنا اذ ذاك ان نعيش في سلام.

ظل ابن سعود يخطب ساعتين، على هذه الوتيرة. وما ان انتهى حتى تقدم قادة الاخوات واحداً بعد الآخر، فجثوا بين يديه وطلبوا اليه ان يغفر لهم سوء ظنهم به:

— لقد ساورنا الشك يا عبد العزيز وخذعنا المفرضون بما اثاروه حولك من اقاويل ولكننا ندرك الآن خطأنا. فلأنت ذروة الحكمة والتعقل وحاشي ان نجادل في اوامرك بعد اليوم وانت وحدك قائدنا في طريق العزة والكرامة. اننا ورائك يا ابن سعود لقتال ابن الرشيد اذ تطلب اليوم، وسنكون غداً معك لقتال الحسين كما قطعت الوعد.

١ — ارمسترونغ في كتابه عن الجزيرة العربية: «لورد اوف ارايبا».

واختتم الاجتماع بصلاة الجمعة ثم غادر ابن سعود المدينة وودع جنوده  
قائلاً :

— ما خامرني يوماً اي ريب بولائكم لي، فأنبذوا ذوي النوايا السيئة ، حؤولاً  
دون نثر بذور التفرقة بيني وبينكم ، والتحقوا بمواقعكم وهيئوا رجالكم ، فموعدنا  
في « بريدة » ليلة الهلال الجديد ، وعسى الله ان يؤتينا النصر .

٤٧

اخترق ابن سعود اقليم « حائل » على رأس طلائع جيشه . وكانت المعركة  
قصيرة اذ انقض بسرعة البرق الخاطف على قبائل « شمر » فبدد شمل قوات محمد  
ابن الرشيد وارغمه على الفرار الى العراق . ثم عين حكاماً مخلصين للمدن والقرى  
الرئيسية في المنطقة ووزع الهدايا على المحاربين الذين لمعوا في المعركة ، وقفل  
عائداً الى الرياض حيث هب الشعب لاستقباله ارووع استقبال .

واستعاد ابن سعود هيئته في نظر رعاياه بعد ذلك الهجوم الصاعق الذي  
افضى الى النصر وضم اقليم جديد الى المناطق الخاضعة لنفوذ السعوديين ، فمئذ  
عهد سعود الكبير والسعوديون عاجزون عن اخضاع « حائل » .

ورأى العلماء بان الاوضاع قد تبدلت في الرأي العام لصالح الملك المظفر  
فبادروا الى تهنئته والتعبير عن ولائهم له واقامت الصلاة في المسجد الكبير بالرياض  
شكراً لله ، ونودي بابن سعود « سلطاناً على نجد وملحقاتها » .

\* \* \*

ادى فتح « حائل » الى اتساع المناطق الخاضعة لنفوذ ابن سعود بنسبة الثلث

وامل ازدياد عدد رجاله واشتداد مكانته . وتوفرت للملك خصوصاً استراحة في صراعه مع الشريف حسين .

ولكن شريف مكة وقد انتفخ اكثر في وقت مضى ، لم يكن يدع فرصة تعرض الا واستغلها لاثارة السعوديين الى اقصى حد . فلما انتقض سكان «خرمة» للمرة الثالثة اصدر اوامره الى ابنه عبد الله بالزحف على المدينة وابادة الثوار .

لم يكن في وسع ابن سعود ان يصبر هذه المرة ايضاً ، والا خسر نهائياً ثقة الاخوان . الم يقسم لرؤوسهم في اجتماع « شقرا » بانه سيتولى قيادة قواته لمحاسبة الحسين اذا أعاد الكرة على « خرمه » ؟ فلا بد له من ان يبر بوعده حيال هذا الاعتداء الجديد ، مهما كان من اتفاق « العقير » . فقد طال الصبر على التحدي .

وتدخل الانكليز لفرض وساطتهم ، فيما كان كل من ابن سعود والحسين يستعدان للقتال . فقد ضاقوا ذرعاً بهذا النزاع ، حول واحة مجهولة ، تستقطب حيوية الملكين العربيين ، في الوقت الذي يتحتم فيه توجيه الضربة القاضية الى تركيا ، فعقدوا مؤتمراً في القاهرة دعوا اليه ملك نجد .

وكان نفوذ « لورنس » ورؤساء « المكتب العربي » هو المسيطر الاقوى في العاصمة المصرية ، وكانت نظرياتهم هي السائدة . فهم يرون ان الحسين حليف لبريطانيا ، وان الحاجة ماسة اليه ما دامت الحرب لم تنته بعد ، وان الضرورة تقضي ، لذلك ، بمراعاة شعوره . واما ابن سعود فليس ، في نظرهم ، سوى مغامر مغتر يمشي في ركابه الحظ ، واذا سولت له نفسه مهاجمة الحسين ، فان هذا الاخير سيقذف به الى اواسط شبه الجزيرة العربية دون مشقة ، بفضل قواته المدربة على ايدي الخبراء الانكليز ، والخاضعة لاشراف ضباط سوريين . ومع ذلك ، فالتحذير

جدي من العلاج ، وما دام ملك نجد مصراً على ركوب رأسه ، فلسوف نلقنه درساً لن ينساه .

دعوا ابن سعود للمثول امامهم ، وابلغوه من على انهم لن يتحملوا اي حركة نزع منه ، ونصحوه ولكن بلهجة من يأمر ، بالتخلي عن «خرمة» ملك الحجاز . واذا لم يأخذ بهذه النصيحة فسيقطعون عنه المساعدة ويدعمون الحسين بكل ما يملكون من قوة .

وكان ذلك كثيراً على كرامة ابن سعود ، فرد عليهم باعتزاز وهو يتدثر بعباءته :

— ليس النصر من عندي ، ولكنه من عند الله يؤتاه من يشاء . لقد مر زمن طويل ، وانا اصدق قواني عن مهاجمة الحسين لازل وفياً للمعاهدة التي ابرمتها معكم . ولم افعل ذلك خشية او رهبة بل محافظة على كلمتي وإني لاحمد الله ان توقفت عن دفع المساعدة لأن ذلك يطلق يدي فأتصرف كما اشاء والنقد سمعتي وشرفي .

ورجع الملك الى الرياض ممتعضاً من سوء المعاملة الذي لقيه في القاهرة مصماً على مناوأة الانكليز .

٤٨

زحف الامير عبد الله بن الحسين قادماً من الغرب الى «خرمة» مطمئناً الى التأيد البريطاني التام على رأس قوة نظامية قوامها اربعة آلاف جندي من المشاة وعشرة آلاف من الفرسان البدو . وكان ابن سعود يتقدم في الوقت نفسه على رأس

قواته من الاخوان قادماً الى المدينة من الشرق وكان المحاربون السعوديون في ذروة الحماسة ، فلقد وفى الملك اخيراً بوعده ، ولما اوشك الجيشان المتعاديان على الاقتراب من « خرمة » قرر خالد بن لؤي شيخ المدينة وقائد مقاومتها طوال الاشهر الماضية ان يتولى بنفسه زمام المبادرة .

فقد جاء المخبرون من الاخوان ينقلون اليه معلومات مشجعة عن الحملة الهاشمية التي عسكرت في واحة مجاورة لبلدة « تربة » واكدوا له ان عبد الله لم يجد ضرورة لاقامة الحراسة حول معسكره ، لثقتة بأن جيشه في مأمن من اية مفاجأة . كانت ليلة حالكة السواد في اعقاب عاصفة هوجاء هبت عند المساء وضباب كثيف يلف كل شيء .

كان قد وصل الى « خرمة » منذ بعض الوقت عدد من محاربي الاخوان - حوالي اربعمائة قدموا لمؤازرة السكان المحاصرين - ، فجمعهم ابن لؤي وسار بهم ليلاً حتى ادرك على حين غرة معسكر الامير عبد الله . كان العدو نائماً والضباط هاجعين بثياب النوم . وتسلسل الفدائيون الاخوان الى الخيام بكل هدوء متسترين بالضباب ، وراحوا ينحرون الضباط والجنود طعنًا بالخناجر . ولم يتسع الوقت امام عبد الله الا للوثوب على ظهر جواده والفرار لينجو من المحزنة .

وانطلق عبد الله يجري به جواده دون توقف مرتعداً من البرد والخوف حتى ادرك مكة فصعد سلم القصر قفزاً وايقظ والده من النوم وابلغه نبأ الكارثة . ان مئة لا غير من اصل ٤ الآف رجل من القوات النظامية تمكنوا من النجاة واستولى السعوديون على كل الاسلحة والذخائر والمؤن والمطايا . فصار جيش الحسين الى العدم ( ١٣ حزيران ١٩١٨ ) .

ساد مكة غم شديد . وكانت المدينة المقدسة تعجُّ في ذلك الفصل بالحجاج



فأثار اعلان قرب وصول ابن سعود وفرسان الاخوان بين صفوفهم موجة من الذعر لا توصف، وتدافعوا جماعات جماعات على طريق جدة لركوب البحر. واصيب الحسين بنوبة من الغضب المستيري الشديد. فطرد عبد الله من القصر، وحظر عليه الظهور امامه بعد اليوم، ووجه برقية استغاثة الى الانكليز يرجوهم بها الاسراع لنجدة.

دخل ابن سعود مع جيشه «تربة» في الصباح وطاف في ساحة المعركة سيراً على الأقدام فأذا هي تفص بالجثث وصناديق الذخيرة المبعثرة واكوام المؤن والاسلحة المهجورة. ان فصيلة من الاخوان الفدائيين كانت كافية للقضاء على القوات العدو دونما حاجة لتدخل مجموع الجيش فالاخوان ولا شك جهاز عسكري ممتاز لا نظير له في بلاد العربية. لقد اصبحت طريق مكة مفتوحة امام ابن سعود، والحجاز الاعزل كله تحت رحمته.

الظفر في متناول ملك نجد، فليس أمدعه سوى جهد بسيط، فيستولي على الديار المقدسة، ثم ينحدر جيشه نحو البحر الاحمر.

في غمرة هذه الظروف تلقى ابن سعود نذاراً من الانكليز يهونه فيه ست ساعات لجمع صفوف جيشه والعودة الى لصحراء الوسطى. والافئتهم يوجهون لقتاله فرقة من الاستراليين، وتشكيلات آلية وعدة اسراب من الطائرات.

استشاط ملك نجد غيظاً وهو يقرأ الانذار البريطاني وادرك ان ليس لديه ما يفعله سوى الرضوخ للأمر الواقع. فتصفية بقايا قوات الحسين امر يسير، ولكن مواجهة الامبراطورية البريطانية شيء آخر. فجمع قادة الاخوان وامرهم بالعودة. انها محنة مرة ادمت فؤاد الملك. ومع ذلك فإنه استرد السيطرة على قواته، واطاعه الجميع دون اي عتراض فقد اتضح لهم الآن، لماذا تردد عليهم طويلاً في خوض المعركة، فلم يكن السبب كما تخيلوه تواطؤاً مع

الانكليز . وادار ابن سعود ورجاله ظهورهم الى مكة وسلكوا سبيل الصحراء الوسطى صامتين ، بعد ان خلفوا وراءهم حامية صغيرة في « خرمه » لصد اي اعتداء محتمل .

لقد حرم ملك نجد في الدقيقة الاخيرة من فتح الحجاز والوصول الى الديار المقدسة ولكن المعركة قد تأجلت ولم تنته بعد . وكان يقول في نفسه : « صبراً فلن يكون الانكليز حاضرين دائماً لحماية الحسين ! »

وكان كل من جنوده يردد في ذاته صامتاً ، ما يحول في خاطر ابن سعود .

٤٩

شرعت قوات لورنس والنبلي ، الانكلو - عربية في شن هجومها الاخير الكاسح على الاتراك ، ( ١٩ ايلول ١٩١٨ ) ، بعد ان تعثرت عاما كاملاً امام الخطوط العثمانية التي كانت تسيطر عليها منذ كانون الأول ١٩١٧ على جبهة تمتد من شمالي يافا الى مدينة عمان .

وكانت القوات الانكليزية تضم فرقاً بريطانية ، ونيوزيلندية وهندوسية ، على اكمل تجهيز واحسن حال من حيث المؤونة ، تواجهها ثلاثة جيوش تركية ، هي الجيش الثامن والسادس والرابع وقد تحولت الى شبه هياكل عظمية اذ كانت في عوز الى كل شيء . وكان مصطفى كمال قد وصل منذ بعض الوقت الى نابلس وبذل ، دون جدوى ، جهوداً فوق طاقة البشر لرفع معنويات الجنود المنهارة .

وقد اسفر الهجوم البريطاني الكبير ، بعد شنه بأربع وعشرين ساعة ، من

خرق الجبهة التركية على طول ساحل البحر، وتطويق الجيش الثامن الذي يقوده الكولونيل رفعت ثم تحولت الهزيمة الى اندحار كامل فتفككت الفرق العثمانية وتراجعت دون انتظام نحو الشمال، بعد ان حشرت في الاردن وقصفت بقنابل سلاح الجو الملكي وتعرضت لغارات متواصلة من قوات فيصل فانفتحت طريق سورية امام الانكليز.

دخلت الوحدات البريطانية دمشق بعد ان اسرت خمسين الف جندي تركي واقام للنبي ولورنس استقبال شعبي حافل وغمرت الفرحة جميع الشعوب العربية، فإن ساعة الحرية قد دقت.

وفي الثلاثين من تشرين الأول ١٩١٨ وقعت حكومة السلطان اتفاق الهدنة الذي سجل هزيمتها وانتصار الحلفاء والقمت المانيا سلاح بعد ذلك باثني عشر يوماً. وانتهت الحرب العالمية الأولى.

\* \* \*

تقطعت اوصال الامبراطورية العثمانية. وانبثقت عنها مجموعة من الدول والامارات « المستقلة » او « ذات السيادة » او « ذات نصف السيادة »، حسب الوعود المقطوعة لها. ونجمت عن ذلك كله متاعب جمة لرؤساء الدول الغربية. وحاول ممثلو الدول المنتصرة المجتمعون حول مائدة خضراء في باريس، اعادة وصل ما تقطع من ذلك العالم المهشم: ارمينيا، كردستان، العراق، سورية، لبنان، فلسطين، شرقي الاردن، الحجاز، اليمن، اواسط الجزيرة العربية، السويس، عدن، العقبة، الموصل، الكويت. مشاكل بقدر ما هنالك من اقطار. فكل حدود تثير مطامع مكبوتة او مكشوفة، وكل اقليم كان سبباً في

مساومات لا تنتهي ، وكل قرية كانت كفيلة بأثارة النزاع . فان الحلفاء لم يرثوا  
اشلاء الامبراطورية العثمانية فحسب ، بل ورثوا مشكلاتها ايضاً .

وكانت اقطار الشرق الادنى والاورسط ، حتى ذلك الحين ، يضمها الوجود  
البريطاني . وكان الانكليز في ذروة سطوتهم ، لهم حامياتهم العسكرية في القاهرة  
والاستانة وبغداد وحلب ودمشق والموصل والقدس والبصرة ، وتمتد منطقة  
نفوذهم من الاهرام حتى البوسفور ، ومن البلقان حتى الهند . فقد بسطت  
حكومة لندن حمايتها على مصر منذ مطلع الحرب ( ١٨ كانون الأول ١٩١٤ ) .  
واستغل « سير برسي كوكس » ، قنصل بريطانيا السابق في الكويت ، والذي  
كان قد عين مفوضاً سامياً في بغداد فرصة انهيار القيصرية في روسيا في نهاية  
الحرب ، فالغى الاتفاق البريطاني - الروسي المعقود في العام ١٩٠٧ وفرض على  
طهران معاهدة حماية تشمل الاراضي الايرانية كلها ( ٩ آب ١٩١٩ ) . وهكذا  
بدأت تتكون « امبراطورية الشرق الاوسط » . تلك التي حلم بها « دزرائيلي »  
و « بالمرستون » و « تشمبرلن » ، لتكون بمثابة صلة وصل بين شرق المتوسط  
والهند ، وبين قبرص وبومباي .

ولكن حكومة لندن في الوقت الذي بدأت فيه بريطانيا تشهد تحقق الآمال  
التي داعبت خيالها منذ اكثر من قرن ، وجدت نفسها عاجزة عن الاحتفاظ  
الى النهاية بالمناطق التي تحتلها ، فإن ذلك كان يتطلب قوات ضخمة ويستوجب  
نفقات باهظة ويستدعي الاستمرار في التعبئة العامة في حين كان الجنود  
البريطانيون الذين نهكتهم الحرب يطالبون بتسريحهم ، وكانت جموع المتظاهرين  
تمر امام وزارة الدفاع في لندن حاملة لافتات كتب عليها : « اعيدوا الينا  
ابناءنا » . وكان المكلفون البريطانيون الراحون تحت عبء الضرائب يلحون على  
الحكومة مطالبين بتخفيض نفقاتها الى الحد الادنى وتصفية الاحتلال الخارجي ،  
لقد انتهت الحرب ولم يعد اي مواطن بريطاني يرغب في التضحية بالرجال وبذل

المال في سبيل توسيع امبراطورية كانت تغطي حتى الآن خمس الكرة الارضية .

فهل اصبح لزاماً - والحالة هذه - التخلي عن قطف ثمار سنين عديدة من الجهود الدبلوماسية والعسكرية ؟ .. كلا .. اجاب لورنس ، الذي رأى ان الوقت قد حان لتحقيق مشاريعه .

اذا كانت بريطانيا عاجزة عن ان تحتل او تحكم بنفسها مناطق الشرق الادنى ، فلم لا يعهد الى ملوك ووطنيين بإدارتها لحسابها ؟ وهكذا تستمر انكلترا على الافادة سياسياً واقتصادياً من تلك المناطق : فكل شيء يتوقف على حسن اختيار رجال يوحون بالثقة . وكان للهاشميين في حساب لورنس جميع المؤهلات ، تعدهم بريطانيا منذ تشرين الأول ١٩١٥ بالمناطق الواقعة بين مصر وخط حلب - الموصل - بغداد - البصرة ، فلا بد اذن من تنصيب عبد الله ملكاً على شرق الاردن وفيصل ملكاً على العراق وسورية فتؤلف هذه الأقطار الثلاثة مع الحجاز اتحاداً عربياً يرأسه الوالد الملك حسين . وما دام هذا الاخير شريف مكة فإنه من السهل جعله خليفة للمسلمين . اجل ان سلطان الاستانة ما زال يحتفظ بهذا اللقب ولكن الهزيمة قد اضعفته الى حد يجعل انتزاعه منه امراً ميسوراً .

وكان لورنس يؤكد ، ان الحسين سيكون « متفهما » و « مرناً » وسيكون في وسع بريطانيا ان تهيمن بنفوذها على قرارات الخليفة ، وليس ذلك بالقليل الذي لا قيمة له ، لان سلطته الروحية ستمتد حتى ماليزيا واهند حيث يعيش اكثر من مئة مليون مسلم .

ولورنس انذاك في ذروة مجده . كان طاووس الصالونات اللندنية ، لا تقل حسان السيدات من الاستماع الى قصص مغامراته . ولم يتردد « برنارد شو » ،

الذي وافق على مراجعة المخطوطة الاصلية لكتاب « اعمدة الحكمة السبعة » ، من القول بأن اسلوباً رائعاً كهذا لم يبصر النور في انكلترة من قبل . وكتب « لويل توماس » يقول ان مغامراته الباهرة وصفاته النادرة ستشكل مادة مثلى لكتاب المستقبل . حتى ان تشرشل نفسه الذي لم يكن قد نفّض غبار هزيمة الدردنيل ، لم يخف غيرته من هذا المنافس الشاب . واستغل لورنس جو الاساطير التي نسجت حول مغامراته ، ومعاركه التي بدأت عند قدمي سيناء ، وانتهت في ربي دمشق . وكان ملك العرب غير المتوج هذا يتنزه في حديقة « هايد بارك » بعقاله المذهب ، وعباءته البيضاء ، وجزمته الحمراء وقد تدلى في وسطه خنجر من الذهب معقوف من خناجر امراء مكة . وكان حراس قصر « بوكنغهام » يؤدون التحية مشدوهين لذلك البدوي ، ذي العينين الزرقاوين الذي يحمل ارفع الاوسمة الانكليزية . وضاعف لورنس جهوده في لندن وباريس وفرساي مردداً ان الوقت قد حان للوفاء بالوعود التي بذلت للشريف حسين واسرته .

٥٠

اما في الواقع فكانت الامور على غير ذلك ، وكان لورنس يحاول ان يخفي ما وراء تاكيداته من ارتباك عظيم .  
 ألم يقل في كتابه :

« ان رجال الثورة العربية قد أخذوا بالخداع . فالحكومة البريطانية كانت قد وعدت الشريف ، بواسطة هنري ماك ماهون ، بانها تؤيد قيام حكومات عربية في بعض اجزاء سورية والعراق ، لقاء خدماته ، وذلك « مع الاحتفاظ بما لحليفنا فرنسا من مصالح » . ان وراء هذا التحفظ معاهدة كان يجهل ماك

ماهون ( وبالتالي الشريف حسين ) وجودها ، ولم يعلم بها الا عندما فات  
الأوان . معاهدة اتفقت فيها فرنسا وانكلترا وروسيا على احتلال بعض اجزاء  
المناطق الموعود بها ، وعلى اقتسام الباقي بوصفه مناطق نفوذ .

« بلغت انباء هذا التلاعب آذان العرب ، عن طريق تركيا ، والعرب يولون  
ثقتهم الاشخاص ، اكثر مما يولونها المؤسسات ، فقاموا ، وقد خبروا صداقتي  
واخلاصي في غمرة المعارك ، بطالبوني ، بوصفي عميلاً حراً ، بضمان وعود  
الحكومة البريطانية . ولم اكن قد احطت علماً رسمياً ، ولا لفت نظري ودياً ،  
الى ارتباطات ماك ماهون ومعاهدة سايكس - بيكو : هذا كله كان قد اعد  
في دوائر وزارة الخارجية البريطانية . واذ لم اكن غيباً ، فكنت ارى اننا سوف  
لن نبر بعودتنا للعرب في اعقب النصر . فلو كنت حقاً مستشاراً مخلصاً ، لكنت  
ارجعت جنودي الى بيوتهم ، وما عرضتهم للموت طمعاً باوهمام كهذه . واكن  
ألم تكن الحماسة العربية العنصر الاعظم في حريز في الشرق الادنى . فكنت ذن  
اوكد لرفاقي في النضال ان انكلترا تحترم وعودها نصاً وروحاً . واذ كانوا يطمسبون  
الى ما اقول ، فقد كانوا يقاتلون في بطولية . ما نأ فقد كنت أبعد ما اكون عن  
الافتخار بهذه الاحابيل ، وما فتئت جتر في شخي مرارة العار . . . »

« وكنت اقسه ، حيدل هذا ، ان اجعل من شورة عربية آلة اصلاح قومها .  
بقدر ما كانت تحدم مصلحة جيشنا الشجاع من مصر . وكنت قد وعدت نفسي  
بان اقودها الى نصر مبين برغم لدون تكبري . في سياستها الانتهازية ، على دعم  
مطالب العرب . هذا كله كان يقتضي بقاء حياً يوم نبحث مع هذه المصلحة  
لكسب المعركة الاخيرة في قاعة مجلس الوزراء . ما ان تكون هناك خديعة ،  
فلا يمكن ان يرتاب في الامر . »

« اجل لم يكن يحق لي ان ارجع العرب وهم غافلون ، في لعبة حيدة او موت . لا ،  
ولا ظل حق . لان حصاراً عربياً كان ينتظرنا ثمة جهود بطولية لا مرارة نجنيها



عادلة . وهكذا فبدافع الحقد الناشيء عن اوضاعي الخاطئة ، اوضاع ضابط من الصف الثاني يتعد الى هذا الحد عن الحقيقة لتغطية رؤسائه ، قمت بهذه الرحلة الطويلة المحفوفة بالمخاطر .. »

فاذا كان لورنس قد دافع بهذا القدر من العناد عن مصالح الحسين وابنائهم ، فما ذلك إلا لأنه - كما يقول هو نفسه - كان يخوض « معركة الاخيرة » فعلى قرارات مجلس الوزراء يتوقف كل شيء ، وسيرى على ضوء هذه القرارات ، اي بقدر اعتبارها او تجاهلها ما وعد به الهاشميون ، اذا كان قد ربح الجولة او خسرها؟ اذا كان هو نفسه بطلا ام مغامراً ، نبياً ام دجالاً ، ولم يكن يهمه ذلك بالنسبة الى الاجيال القادمة ، وانما يهمه امام ضميره ، وامام نظر رفاقه القدامى في السلاح .

في هذه الاجواء ، ذهب « جون فيلبي » ، الذي راقب انهيار الامبراطورية التركية من الرياض ، للاجتماع بلورنس ، واكد له انه يرتكب خطأ فادحاً بتركيز سياسته العربية كلها على الحسين واسرته ، وبرفضه اخذ او اسط شبه الجزيرة العربية وابن سعود بعين الاعتبار . ان نجداً هو المولد والمنظم للحياة العربية . لذلك فإن البناء كله ، الذي يسعى الى تشييده ، سيكون قائماً على اساس خاطيء ، ولن يكون في وسع الهاشميين ان تتحمل مناكبهم الخائرة عبء اتحاد عربي . وهم جميعاً - باستثناء فيصل - لا يتحلون بأية ميزة ، ولا يهمهم سوى الاثراء على حساب رعاياهم ، ولا يتمتعون بحب شعب الجزيرة العربية ، ولا باحترامه ، وعندما لا تكون هنالك بريطانيا لتساندهم ، فلسوف ينهارون من تلقاء انفسهم كتماثيل من الفخار . فالرجل القوي ، ليس الحسين ، انه ابن سعود ، فهد الصحراء و « كرومويل » الجزيرة العربية .

كانت المقابلة عاصفة . فلورنس يملك مزايا وفيرة ، ولكنه لم يكن يجب المناقشة اصلاً ، وعلاوة على ذلك فلم يكن في حالة فكرية تمكنه من الاستماع

ببرود الى نصيحة من هذا النوع . لقد كان متورطاً في معركة كلها احراج ، وكان يتشبث بمواقفه في عناد اشد كلما شعر بأنها مهددة اكثر . بل كان يعرف تماماً ، ان « فيليبي » يقول الحقيقة بشأن الحسين ~~عالم~~ الم يقل عنه هو نفسه انه كان « شخصية عنيدة » لا تستقر على رأي ، ضيقة الآفاق ، جشعة ومراوغة ، لا استعداد فيها لاي توضيح بانانيتها الغالية في سبيل اي كان ، ولا قدرة لها على السيطرة على مطامعها ... الم يرغب على الاقرار بأن الهاشميين يعيشون في عزلة وفي عالمهم الخاص ؟

الم يصريح لورنس نفسه في مؤلفه عن البلاد العربية ، ان الرياض قلب العروبة ومنبع فكرها الاصيل ومهد نزعتها الاستقلالية الواعية . ولكنه كان قد تورط كثيراً فلا يمكنه التراجع . كان شرفه في الميزان ، وقد عظمه الحسين وأخصاؤه الى حد انه يرى ذاته ملزماً بدعوتهم حتى النهاية .

ونظر لورنس الى الأمور من عل . ورد على « فيليبي » : انك لا تعرف شيئاً عن مشكلات الشرق الاوسط . وانه - اي لورنس - لا يريد في هذا المجال ان يتلقى دروساً من احد . ابن سعود .. كرومويل العرب .. دعك من هذا انه ليس سوى مشاغب قصير الجناح ، دون رصيد ولا مستقبل يزعم الناس جميعاً بتمسكه المفرط بالقرآن وادعاءاته المضحكة . واما الاخوان فتمزمتون يدمرون اشرف ما اقامه الفن العربي ، ولو تركوا على هواهم لزجتوا الجزيرة العربية في النار والدماء . معركة « تربة » محض صفقة من صفقات الحظ فلا تعني شيئاً .. لا .. لا ، فإن قناعته قد تمت ولا سبيل للتراجع عنها .

وحاول فيليبي ان يصحح بعض اراء لورنس وان يعيده الى بعض الاعتدال فأفهمه هذا الاخير انه يضيع وقته عبثاً وان البحث قد طال امده .

وانسحب « فيليبي » منفعلًا مما بدا من « لورنس » من نزق وضعف استنتاج

ولن يطول الزمن في الواقع حتى يثبت كم كان صاحب «عمدة الحكمة السبعة» مخطئاً... خطأ كلف انكلترا ثمناً باهظاً.

اخذ ابن سعود علماً من « فيلي » بالنتيجة السلبية للمقابلة . ولكن هل ان وجهة نظر لورنس هي نفسها وجهة نظر الحكومة البريطانية ؟

قام ملك نجد باتصالات مع « سير برسي كوكس » ليتأكد من ذلك . فكوكس هو الطرف الثاني في معاهدة « العقير » ، ومن حق ملك نجد ان يستوضحه عن المستقبل الذي تعده له بريطانيا في عالم ما بعد الحرب .

ولم يكن المفوض السامي البريطاني في بغداد يشاطر الكولونيل « لورنس » اراءه في ابن سعود ، بل كان يقدره حق قدره ويعجب بالجهود التي بذلها ليظل اميناً على المعاهدة رغم استفزازات الحسين . ومع ذلك فلم يكن يستطيع مخالفة توجيهات حكومته الواضحة ، اي لا مكان لابن سعود في الاتحاد العربي . و « لن يتاح لمغامر ان يجلس على مائدة الأمراء » . ان نظرية « لورنس » قد انتصرت رغم تحذيرات فيلي<sup>(١)</sup> وعلى هذا فلن تكون لابن سعود اية حصة من اشلء الامبراطورية العثمانية ، بل ان عليه ان يغتبط بالاحتفاظ بما يملكه حتى الآن : نجد والاحساء وحائل .

عاد الملك الى الرياض مكتئباً فنظرة واحدة الى الخريطة تكفي للاحاطة

١ - كان لورنس قد اصبح في ٢١ اذار ١٩٢١ مستشار الشؤون العربية في وزارة المستعمرات التي يشرف عليها تشرشل .

بالموقف . ان بريطانيا تعمل الآن على اقامة دول موالية لها يحكمها حكام معادون لابن سعود في كل مكان كان يسيطر عليه الولاة الاتراك . فقد توفي مبارك في الكويت ، ولكنه اوصى ابنه محمداً قبل وفاته بالحد من السعوديين ، وسيكون العراق من حصة فيصل وشرقي الاردن من نصيب عبد الله بينما يبقى الحجاز في عهدة الحسين . واما عسير واليمن وعدن وحضرموت وعمان وسواحل الجزيرة العربية - باستثناء الاحساء - فتحت السيطرة البريطانية مباشرة او بواسطة امراء موالين ، وهكذا كان ابن سعود محاصراً من الشرق والشمال والغرب والجنوب ... لقد زالت الامبراطورية العثمانية ... ولكن بريطانيا التي ورثتها جاءت تنسج على غرارها وتسلك سياستها بالذات ...

كيف يمكن خرق هذا الحصار قبل ان يتاح لاتباع لندن الوقت الكافي لتثبيت مواقعهم ؟

٥٢

في شمالي - غربي حائل ، منطقة شبه محايدة ، تؤمها قبائل « شمر » لرعي قطعانها ، وهي تمتد على شكل زاوية الى داخل شرقي الاردن . وكانت هذه المنطقة تشكل نقطة الضعف في النطوق الذي يعمل الانكليز على احكامه حول اواسط شبه الجزيرة العربية ، فأرسل ابن سعود فرقة من الاخوان ، فاحتلت الموقع المذكور دون مقاومة ، ومكث هو يتربص رد فعل الانكليز ..

وحدث ، لسوء الحظ ، ان الاندفاع جرف بعض تشكيلات الاخوان فاجتازت الحدود التي عينها لها الملك . واخترق الاخوان ، وهم يرددون اناشيدهم الحماسية ، منطقة الجوف على مسافة خمسين كيلومترا داخل الحدود الاردنية .

وكان الحاكم منهم فانضم اليهم وفتح ابواب المدينة امام طلائع الاخوان .

وادرك الانكليز فوراً مدى الخطر ، فالجوف مركز تجاري هام تعبئه القوافل في طريقها من بغداد الى مصر . وكان في وسع من يحتل تلك الواحة تهديد فلسطين وسورية معاً . ان النار توشك على الاندلاع من اواسط شبه الجزيرة العربية لينتشر هيبها بعد ذلك في حوض البحر الابيض المتوسط .

ورأى خبراء وزارة الخارجية البريطانية ان ابن سعود يكاد يقضي على التوازن في الشرق الاوسط . « فاذا استمر على هذا الفرار فإنه سينسف كل خططنا باقامة الاتحاد العربي » . ان الضرورة تقضي برده سريعاً الى جادة التعقل .

واستدعت السلطات البريطانية ملك نجد للمرة الثانية الى القاهرة لتطلب منه الايضاحات ، فأشار عليه مستشاروه الذين تحمسوا لسرعة تقدم الاخوان ان يرفض تلبية الدعوة ، وان يستغل الموقف للاندفاع نحو بغداد والبحر المتوسط وكانوا يرددون : « ما من قوة في العالم تستطيع الوقوف في وجهنا ، لقد انتهى الانكليز . انهم يواجهون المتاعب في كل مكان » .

غير ان ابن سعود بقي على حذره ، فان هؤلاء المستشارين انفسهم قد رددوا على مسامعه من قبل ان تركيا قد انتهت . ولكن الجيوش العثمانية صمدت ، رغم ذلك ، طيلة اربع سنوات في وجه القوات البريطانية والفرنسية والروسية المتحالفة . وهو يعلم ان بريطانيا بعيدة عن ان تكون قد « انتهت » ، وان من الخطر التعرض لتدابيرها الانتقامية - فوافق على حضور مؤتمر القاهرة واجراء محادثات مع المبعوثين البريطانيين . كانت خطته تقضي بالمساومة على الانسحاب من « الجوف » والمناطق الشمالية - الغربية ، لقاء انضمامه الى الاتحاد العربي .

وكان من المحتمل ان يبلغ هذه النتيجة ، لولا ان حادثاً خارجاً عن ارادته قد حدث فقلب حساباته رأساً على عقب . لقد اندفعت مفرزة اخرى من الاخوان - ١٥٠٠ رجل - بدافع المنافسة لزميلتها التي احتلت الجوف ، وقطعت مسافة ستمائة كيلومتر من الصحراء ، في منتصف شهر آب ، فاجتازت الحدود الاردنية وانقضت على قرية « طريف » وابادت معظم سكانها .

تقع « طريف » على مسافة خمسين ميلاً من عمان العاصمة الجديدة لشرقي الاردن حيث كان مقر الامير عبد الله وحيث للانكليز حامية صغيرة .

ولم يكن في وسع البريطانيين الصبر على تحد من هذا النوع فارسلوا من عمان كوكبة من السيارات المصفحة المزودة بالرشاشات وثلاثة اسراب جوية من القدس . فتعرض الجنود الاخوان لأول مرة للقصف الجوي ، وتمزق بنيران الاسلحة الالية من كتبت له النجاة من شظايا القنابل ، ولم يبق على قيد الحياة سوى ثمانية من اصل الف وخمسة اية رجل تناثرت جثثهم طعمة للطيور الجارحة .

قطع ابن سعود محادثاته في القاهرة لما اتصل به نبأ هذه الاحداث وسارع في العودة الى « شقرا » مركز انطلاق الحملة المتسرعة . وكان الثانية الناجون من مجزرة « طريف » قد وصلوا على آخر رمق ، فحكم عليهم ابن سعود بالاعدام وامر بتنفيذ الحكم فوراً ليلقي على وحدات الاخوان الاخرى درساً في وجوب طاعته وعدم الخروج عن ارادته .

وانذره الانكليز رسمياً بوجوب العودة الى المؤتمر فسلك طريق القاهرة مؤملاً ان يكون العقاب الصارم الذي انزله بالتمردين قد اثر على مفاوضيه ودلالة على عزمه على فرض احترام سلطته . ولكن الانكليز ادركوا بان دورهم قد جاء لتجاهل الموقف . فان السرعة التي تم بها القضاء على تشكيلة من « الاخوان » بواسطة الرشاشات والطائرات ، جعلتهم يفكرون بان ملك نجد لا يستحق كل

هذا الاهتمام وبأن سمعة « الاخوان » الحربية مبالغ بها كثيراً ، فاستخفوا بان سعود حتى ثار وصرخ في وجوههم : « صحيح اني كنت صديق الانكليز ، ولكني عاهدت نفسي على الا امشي معهم الى ابعد مما يجتمه علي شرفي وديني وكبريائي . وستندمون يوماً على معاملتي بهذا الشكل . »

ثم نهض وغادر قاعة الاجتماع واغلق الباب وراءه بعنف .

٥٣

انتهت خطة ابن سعود الى الفشل ، ففعل عائداً الى الرياض . وقد قرر ان يترىث ايضاً ...

وتوالت الاعوام ١٩٢٠ و ١٩٢١ و ١٩٢٢ دون ان تحمل في طياتها اي تبديل يذكر على الموقف في نجد . ولكن تبديلاً عميقاً كان قد طرأ ، خلال ذلك ، على الوضع في البلاد العربية . وكان المراقب للاحداث في تلك المنطقة يدهش لتقلص القوة والنفوذ البريطانيين بعد عامين ونصف العام من انتهاء الحرب .

لقد بدأت مرحلة الجزر البريطاني الواسع واتخذت شكل التقهقر ، بعد المد الذي بلغ الذروة في العام ١٩١٩ . واضطرت الحكومة البريطانية ، تحت ضغط سياسة التقشف الاقتصادي التي اتبعتها ، الى تسريح قسم كبير من قواتها . وعاد النيوزيلنديون والهنود الى بلادهم وسحبت الحاميات من البصرة وبغداد وعمان والقدس . وفقدت السيطرة البريطانية كل ركائزها ، باستثناء بعض الفرق في الآستانة ، وقوى البحرية والطيران ( عشرون سرباً من سلاح الجو الملكي موزعة



في العراق ، وعلى ضفاف البوسفور بالاضافة الى سرب في ازمير واخر في  
المضائق ) .

وكان لانسحاب القوات البريطانية الجماعي اثره على الجو السياسي ، فصوت  
مجلس النواب الايراني ضد الحماية البريطانية واستبدالها بمعاهدة مع الروس لم تترك  
للانكليز سوى حصة من استثمار النفط ( ٦ تشرين الأول ١٩٢١ ) . وتراجعت آخر  
الفرق الانكليزية امام الهجوم المشترك الذي شنته القوات الروسية والكمالية في  
القفقاس . والفت مصر الحماية البريطانية واعلن الملك فؤاد استقلاله ( ١٥ اذار  
١٩٢٢ ) .

كانت الامبراطورية البريطانية تواجه المتاعب في كل مكان .

لم يكن في هذه الاحداث كلها ، ما يشجع اقامة الاتحاد العربي ، لذلك لم  
تكتب له الحياة رغم جهود « لورنس » اذ تحولت الشعوب ضد ملوك وامراء هم  
صنيعة حكومة لندن ، ولم يكسبهم ترسهم بالحكم اية شعبية لدى الجماهير .

واصبح ملك الحجاز شديد التأثر بفعل السنين ، وازداد مزاجه حدة ، فلم  
يعد يطيق سماع اية ملاحظة ، بل كان يستشيط غيظاً حتى اصبحت حياة  
معاونيه معه لا تطاق فابتعدت عنه الحاشية الا زمرة من الموظفين المرآئين  
يتملقونه ليستزيدوا من اقتناص الخيرات . « الذهب ، مزيداً من الذهب » كان  
ذلك شعار الحكومة الشريفية فلا تتورع عن اي عمل في سبيل الحصول عليه :  
ضرائب ، ورسوم تتزايد وتوهق كاهل الشعب عاماً بعد عام . وراح الملك  
حسين ، في سبيل ايجاد موارد جديدة يعصر البدو الرحل ، ففرض العشر على  
قطعانهم ، ثم تناول من عائدات الحج ووضع على الحجاج رسم اقامة ، واسعاراً  
عالية للمأوى والماء ، فمات كثيرون منهم ظمأً خلال احد مواسم الحج ،

وانتشر ذلك النبا حتى وصل الى اعماق الصحراء فأثار موجة عارمة من الاستياء .

وفيا كان نجم الحسين في الحجاز آخذاً في الافول ، كان نجم « لورنس » حاميه في لندن يميل الى الانحدار ، فقد انتهى « ملك العرب غير المتوج » الى مضايقة الجميع بغروره وتدخلاته المثيرة حتى ان كليانصو ، وويلسون ، ولويد جورج ، واورلندو اصبحوا يتبرمون برؤيته . وعمد من تلقاء نفسه الى استدعاء فيصل الى باريس فأثار الأمير عاصفة في المجلس الاعلى وخاطب « الاربعة الكبار » بلهجة عنيفة بعيدة عن الدبلوماسية مطالباً بسورية التي يحتلها الفرنسيون مؤكداً وعد « ماك ماهون » له بذلك ، مما اخرج الجميع ، فرد الاربعة الكبار بأن طلبه غير مقبول .

ولما علم الحسين بالأمر اخذ يندد عالياً بخداع بريطانيا وعدم وفائها بعهودها ووعودها . وطلب الاعتراف به ملكاً على جميع البلاد العربية .

ولما لم يتلق الحسين جواباً ، توجه الى عمان ونزل عند ابنه عبد الله حيث كانت للانكليز بعثة عسكرية فطرد الضباط البريطانيين من القصر ضرباً بعصاه وطلب الى ابنه بحدة ان يتحرر من سيطرتهم وهدده بحرماته من الميراث اذا استمر في هذا الخطل . وقال له : « ان الانكليز لن يتأخروا في تحويل الحجاز الى منطقة انتداب بريطاني . »

وأوفدت وزارة الخارجية البريطانية الكولونيل لورنس الى الحسين لتهدئته فصرخ ملك الحجاز في وجهه :

- لست سوى خداع وعميل مشاغب . انت الذي ورطتني في هذه المغامرة الحمقاء بوعدك المعسولة ولم تكف عن خداعي منذ اليوم الذي رأيتك فيه .

وكان لا بد من الامساك بالملك الكهل المضطرب غيظاً لمنعه من القذف  
بلورنس الى اسفل الدرج ، انه لم يعد يسيطر على نفسه .

وفي اذار ١٩٢٤ ، انعقدت الجمعية الوطنية التركية في انقرة وقررت الغاء  
الخلافة ونفي عبد المجيد من الاستاذة ، وعندها نادى الملك حسين بنفسه خليفة  
للمسلمين دون استشارة احد فاثار بذلك نقمة عارمة في البلاد العربية اذ تخطى  
الحسين كل الحدود وارتكب الخطأ تلو الخطأ مما ادى به الى التورط مع الانكليز  
والى اثاره نقمة العرب .

٥٤

استدعى ملك نجد العلماء ورؤساء القبائل الى اجتماع في مسجد الرياض  
الذي عقد برئاسة الامام عبد الرحمن للتداول في الكتب الواردة الى الامام  
من الاخوان وهم يبغون الحج ويلجئون في ذلك ، وتكلم في هذا الاجتماع سلطان بن  
يحياد فقال : « يا امام حنا نبغي الحج ، ولا نريد ان نصبر اكثر مما صبرنا على ترك  
ركن من اركان الاسلام مع قدرتنا عليه . نبيت مكة ملكاً لاحد ، ولا يحق  
لاحد ان يمنع المسلمين ان يصد المؤمنين عن اداء فريضة الحج . نريد ان نحج يا عبد  
العزير فاذا منعنا الشريف حسين دخلنا مكة بالقوة . . . »

وقال السلطان عبد العزيز ان مسألة الحج من المسائل التي يرجع الفصل فيها  
الى علمائنا وها هم حاضرون ، فليتكلموا . ونهض الشيخ سعد بن عتيق وقال :  
« ان الحج من اركان الاسلام ، ومسلمو نجد والحمد لله يستطيعون ان يؤدوا هذا  
الركن على الوجه الاتم بالرضى او بالقوة ، ولكن من اصول الشريعة النظر الى  
المصالح والمفاسد . فالامر الذي قد يؤدي الى ضرر او مفاسد يدفع ( يؤجل من

أجله الحج ) ، فهل هناك من مفسدة او مضرة قد تنتج عن السماح لمسلمي نجد بالذهاب الى بيت الله ؟ ذلك ما نريد ان نقف عليه من الواقفين على السياسة «

فرد السلطان عبد العزيز مخاطباً العلماء والايخوان بما يلي : « نحن لا نود ان نحارب من يسالمتنا ، ولا نمتنع عن موالاته من يوالينا ، ولكن شريف مكة كان دائماً ، كما تعلمون ، يزرع بذور الشقاق بين عشائرتنا ومع ذلك فقد بذلت كل ما في وسعي لحل المشاكل التي بيننا وبين الحجاز والتي هي احسن . وكنت كلما دنوت من الحسين تباعد ، وكلمت لنت له تجافى . اي ورب الكعبة ، لست ارى في تطور الامور ما ينعش الامل ، بل ارى الامور تزداد شدة وارتباكاً ولا يحسن الاستمرار في خطة لا تعزز حقوقنا ومصالحنا . وقف السلطان عند هذه الكلمة فهتف الجميع : « توكلنا على الله ! الى الحجاز ! (١) »

ثم عبأ ابن سعود جيشه من الاخوان ، وقسمه الى ثلاث فرق . ارسل الاولى منها الى حدود العراق ، والثانية الى حدود شرقي الاردن لمنع فيصل وعبد الله من نجدة والدهما . فلما عزل بذلك الحسين ارسل الفرقة الثالثة - وهي الاكثر عدداً - باتجاه الحجاز وامرها بالزحف رأساً الى مكة وسحق اية مقاومة قد تعترض سبيلها .

لم يكلف الحسين نفسه ، منذ هزيمة « تربة » ، عناء اعادة تنظيم جيشه ، فنفقات الجنود ثقيلة الوطأة على خزينته ، وكان يعتمد على الانكليز لحماية في حالة الخطر ، ويقول في نفسه : ان عليهم واجب نجدتي اذا هوجمت فما الداعي لبذل المال .. حسبي الركون اليهم !

ولم يعبأ بتحركات ملك نجد في البداية ، ولكنه ما لبث ان فتح عينيه على

١ - امين الريحاني : « نجد وملحقاته » .

الخطر المحيى به ، لا سيما والاخوان يتحركون والانكلايز لا تبسو منهم بادره  
توحى بعزمهم على الوقوف في وجههم ، فجمع على عجل ما تبقى له من التشكيلات  
الهزيلة ووضعها تحت امره ابنه الاصغر « علي » الذي يتحلى بشجاعة لا تنكر ،  
الا انه بعيد عن اي خبرة تخوله القيام بمسؤولية عسكرية في مثل هذه الظروف .

وتمركز « علي » مع قواته في الطائف ، على الطريق المؤدية من نجد الى  
الحجاز فكس الاخوان كل القوة كما تكس الريح الأوراق الذابسة وتابعوا  
زحفهم الى مكة دون توقف او تريث ، وكانت حماسهم تزداد توقداً كلما ازدادوا  
اقتراباً من الاماكن المقدسة .

وأوقعت هزيمة الطائف ذعراً عاماً في مكة على غرار ما جرى بعد كارثة  
« تربة » فتدافع الحجاج والتجار وسكان المدينة في كل اتجاه سعياً الى ملجأ وهم  
يرددن : « سيصل الوهابيون وستكون المذبحة عامة . . » وهكذا تكس قسم  
من اهل مكة في العربات وفروا باتجاه الساحل ، في حين كان الاخوان على بعد  
عدة كيلومترات من المدينة .

وهرع « علي » الى القصر الملكي ليحمل الى والده نبأ الكارثة . فطرده  
الحسين ، وبعث بالرسول الى جميع القبائل المجاورة يحثها ، متوسلاً ، لكي تهرع  
الى نجدة مليكها ، فلم تتحرك اية واحدة منها . وبدأ اقرب الناس الى الملك  
- ومنهم الملكة - ينصحونه بالتنازل عن العرش لابنه علي فلعل بريطانيات  
تتدخل حينذاك وتحول دون حلول الكارثة ، وحصار الحسين في امره واخذ  
يزرع قاعة القصر جيئة وذهاباً مفكراً دون الوصول الى قرار .

وعرف سكان المدينة ، وهم على اشد ما يكون الاضطراب ، بحيرة الحسين ،  
فبدأت الجماهير الساخطة تتجمع امام سياج المقر الملكي وهي تهتف :  
- دافع عن نفسك ، او فارحل

وحاول بعض المتظاهرين اختراق القصر ونهب الاقبية التي يكدر فيها الحسين كنوزه وامتدت الايدي الى السياج تحطمه فأدرك عند ذلك انه لم يعد يملك حرية الاختيار ، فتخلى عن العرش لابنه « علي » واصدر امره الى خدمه بإعداد الحقائق .

لم يكن في الحجاز سوى عدد قليل من السيارات يملكها الملك وحده ، وكان لا يسمح لاحد سواه بركوبها ، فجمعها في ساحة القصر وحملها بالسجاد والاثاث ، وسبائك الذهب والفضة بالاضافة الى الصناديق التي كان يحفظ فيها ليراته الاسترلينية ، ثم انطلق مسرعاً مع افراد اسرته وحرسه باتجاه جدة (١) .

وكان اليخت الفاخر الذي اهداه اليه الانكليز « الرقتين » راسياً في الميناء فنقل اليه الحسين صناديقه بعد ان تفحصها الواحد تلو الاخر ، ثم ابجر دون ان يوجه كلمة وداع الى حراسه صوب السويس ومنها الى قبرص حيث استقر وحيث حكم عليه بعد ذلك في قضية جزائية .

ان امره قد انتهى الآن ولم يعد سوى شيخ هرم يقضي ايامه في احصاء ما يملكه من الليرات الذهبية (٢) .

٥٥

وقفت طلائع الاخوان عند ابواب مكة منكسة السلاح تنتظر وتترقب

- ١ - في شهر رجب من العام الهجري ١٣٤٣ الموافق للعام الميلادي ١٩٢٥ .
- ٢ - انتقل الى عمان في العام ١٩٣١ حيث توفي لدى ولده عبد الله ودفن في المسجد الاقصى . وكانت السلطات الانكليزية قد سمحت له بمغادرة قبرص بعد ان اشرف على الموت .

الاحداث . فابن سعود لم يكن واثقاً بعد من موقف الانكليز ، اترام يتدخلون  
لمصلحة « علي » بعد ان ذهب الحسين ؟ .

واستغل « علي » هذا التلكؤ غير المتوقع في مجرى الاحداث فرجع الى  
المدينة المقدسة لاعادة تنظيم المقاومة وكانت مبادرته الاولى - كما توقع ابن  
سعود - طلب مساعدة البريطانيين .

فأبرق الى لندن بواسطة القنصل البريطاني في جدة يقول : « ارسلوا الى  
الطائرات والمال وخصوصاً السلاح . »

ولكن الانكليز كانوا متبرمين بمطالب الحسين والهاشميين التي لا تنقطع ،  
فكان جوابهم : « ان النزاع بين الحسين وابن سعود قضية مذهبية غايتها تسوية  
بعض الخلافات الناجمة عن انتقال الخلافة ، وانهم « عملاً بالتقاليد البريطانية » ان  
يتدخلوا في نزاع من هذا النوع . »

فما شعر علي بالفراع حوله اتجه الى ابن سعود وسأله شروطه . ففهم ملك  
نجد فوراً ، ان الانكليز قد تخلوا عنه ورد عليه : « لن القبي السلاح حتى يخرج  
اخر هاشمي من الحجاز » . واصدر اوامره الى الاخوات بدخول المدينة  
المقدسة .

غادر « علي » مكة على عجل ، وتوجه الى جدة للتحصن فيها . فيما كان  
الاخوان بقيادة خالد بن اؤي المنتصر في « تربة » يدخلون مكة في صفوف  
متراسة محرمين فطافوا وسعوا بين الصفا والمروة . وكانت مكة المكرمة التي  
تعج عادة بالناس . تبسـدو خاوية : فالشوارع مقفلة ، والمتاجر مغلقة ، والستائر  
مسدلة والابواب مقفلة ، ولا شيء سوى الغبار الكثيف تذروه الرياح في الساحات  
الهامدة . لقد لجأ سكان المدينة المذعورون الى الأقبية اعتقاداً منهم بان ساعتهم  
الاخيرة قد انزفت .



وجاب رجال خالد بن لؤي ارجاء المدينة ، والخوف جاثم فوقها . وامر القائد المنادين بقرع الطبول عند مفترق الطرق الهامة وابلاغ السكان انهم في امان ، وان المدينة المقدسة في حمى الله ثم ابن سعود ، وان ملك نجد يضمن سلامة كل فرد من الاهلين . ولكن اهل المدينة ترددوا مع ذلك في الخروج من مخابثهم متأثرين بما سمعوه عن قوة « الاخوان » وقد دخلت عالم الاساطير .

وقام الاخوان بنزع الزينات من المساجد ، وازالة الزخارف من المسجد الحرام . ونظفوا ساحة الكعبة المكرمة مما تراكم عليها من اقدار واعادوا الى الاماكن المقدسة بساطتها الطبيعية الاولى وفقاً لتعاليم الدين وهدموا بعض القباب المستحدثة المبتدعة . وحال خالد بن لؤي ، فيما عدا ذلك ، دون امتداد ايدي الجنود الى ارواح السكان او املاكهم .

ودهش السكان لحسن تنظيم الجيش السعودي وانضباطه فبدأوا يخرجون من اقببتهم . ولم يمض اسبوعان على رحيل الحسين حتى استعادت المدينة حالتها الطبيعية .

٥٦

غادر ابن سعود عندئذ ، مدينة الطائف حيث بقي للاشراف على الموقف ورجع الى الرياض وبعث بالرسل الى اقاصي الصحراء يعلنون النصر ويبلغون القبائل بأنه طرد الحسين ، واصبح حامى الديار المقدسة ولكنه لن يحتفظ بها الا بتوكيل من جميع المسلمين .

وجاء رؤساء القبائل لتوديعه فخطب فيهم قائلاً : «اني مسافر الى مكة لا للتسلط عليها بل لرفع المظالم التي ارهقت اهلها . اني مسافر الى مهبط الوحي

لبسط احكام الشريعة ... ان مكة للمسلمين كافة وسنجتمع هناك بوفود العالم الاسلامي فنتبادل واياهم الرأي في الوسائل التي تجعل بيت الله بعيداً عن الشهوات السياسية ... وسيكون الحجاز مفتوحاً لكل من يريد عمل الخير من الافراد والجماعات ...»

وخرج الملك بعد ذلك من الرياض سالكاً طريق مكة على ظهر جملة الكبير الذي يستخدمه في المعارك يحيط به وزراءه وولائه ومستشاروه المدنيون والدينيون . وكانت تتقدم الموكب موسيقى الجيش وتحرسه فرقة كاملة من الاخوان ، فاجتاز سفوح نجد ببطء حتى ادرك مشارف الحجاز الاولى . ودامت الرحلة المظفرة اربعة وعشرين يوماً ، كان سكان القرى والبدو يتجمعون خلالها على جانبي الطريق لتحية الملك وتقديم الولاء .

واجتاز ابن سعود في اليوم الخامس والعشرين آخر طوق من الجبال المحيطة بالمدينة المقدسة ، ودلف الى الوادي العريض الذي يحتضن المدينة وتبدو في جوفه ساحة في ضوء مذهب . فترجل الملك عند مدخل الوادي واقام مضربه هناك فهو لا يريد ابتداء من هذا المكان ان يكون فاتحاً بل حاجباً بسيطاً ، فنزع شاراته الملكية : سيفه وعقاله الذهبي ووشاحه الملكي ، ثم ارتدى ثوب الاحرام الابيض وامتطى جواده حارس الرأس عزل ، فاجتاز جبل عرفات ووادي « الابطح » وسلك الطريق الرملية العريضة ، طريق « المعابدة » - المؤدية الى الكعبة المشرفة .

وخلال سيره ما انقطع يردد دعاء التلبية :

« لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك . »

كان ابن سعود لا يكف عن ترديد هذا الدعاء منذ طفولته ، حتى انه ارتبط بكل المناسبات الهامة في حياته . وهو يذكّر على وجه خاص بإقامته الاولى في « الربع الخالي » عندما كان طريداً اعزل بلا نصير او صديق حتى كاد يستسلم الى اليأس .. انه يذكّره بتلك الامسية ، امسية الشقاء والحماسة معاً ، لما تراءى له من خلال الفسق الارجواني وجه سعود الكبير وقادة الفتح العربي . ثم انه يذكّره بالعهد الذي قطعه على نفسه بتوحيد الجزيرة العربية ونشر العقيدة واقتفاء خطوات النبي العظيم .

كان يردد الادعية طوال مسيرته في طريق « المعابدة » حتى بلغ مقبرة « المعلا » عند ظلال الاسوار ، حيث كان خالد بن لؤي بانتظاره ، فترجل عن جواده وخلع نعليه ودخل المدينة حافي القدمين تتبعه حاشية صغيرة من « الاخوان »

فلما بلغ عتبة البيت الحرام فتحت امامه الابواب ومشى الى الساحة منفرداً وشعر وهو يتطلع الى الكعبة بنظراته المبهورة ، انه بلغ ذروة ما يصبو اليه في حياته .

وبصوت عامر بالايمان اخذ يبتهل : « اللهم ان هذا الحرم حرمك والامن امينك والعبد عبدك ، اسألك مسألة المضطرين اليك المشفقين من عذابك انت تستقبلني بمحض عفوك وان تدخلني فسيح جنتك ، اللهم ان هذا الحرم وحرم رسولك فحرم لحمي ودمي عن النار . اللهم آمين من عذابك يوم تبعث عبادك ، انك انت الله لا اله الا انت الرحمن الرحيم . »

ثم اقترب من الكعبة فقبل الحجر الاسود وجثا ارضاً كأي حاج عادي ، وعفر جبهته على التراب . وبقي هناك غارقاً في الصلاة حتى خيم الظلام .

استقبل ابن سعود في اليوم التالي مختلف الوفود التي دعاهما الى مكة .  
 واجتمع في قاعة القصر الكبيرة حيث كان عرش الحسين ممثلون من كل الاقطار  
 الاسلامية : مندوبون من العراق وايران ومصر وزعيم السنوسيين من طرابلس  
 الغرب ومبعوثون عن الحبشة وافغانستان واذربيدجان وماليزيا وشخصيات  
 من الهند .

كان الجميع متلهفين قبل حضورهم لمشاهدة ما جرى في مكة ، متوقعين ان  
 يجدوا الاماكن المقدسة خراباً . فدهشوا اذ رأوا المدينة آمنة هادئة ، وقد  
 نظفت باحات الاماكن المقدسة من كوم الأوساخ التي كانت تتراكم فيها في عهد  
 الحسين ، ثم كان الاستقبال الودي الحافل الذي خصهم به الملك مدعاة لازالة  
 آخر ما علق بأذهانهم من شكوك .

ونشب خلاف بين المندوبين حول حق "صدارة و"الافضلية وحول من يتولى  
 ادارة الاماكن المقدسة ، فطالب الهنود بهذا الشرف وأعتبروه حقاً مشروعاً  
 لأن عددهم يفوق عدد المسلمين الذين يمثلهم مندوبون الحاضرون . واحتج المصريون  
 واعترضوا على هذا المبدأ واثروا حججاً تقليدية وقديمة : اليسوا هم الذين كانوا  
 يشرفون على الحج منذ تفكك مملكة سعود الكبير ؟ فلما رأى ابن سعود ان  
 المناقشة قد تشعبت وان الوصول الى اتفاق اصبح امراً مستحيلاً ، نهض وقسال  
 بلهجة حازمة :

- اخواني اعضاء الوفود الاسلامية ! كونوا على ثقة بانني لن اوافق ابداً على  
 وجود اية رقابة اجنبية في بلادنا . ولسوف اعرف ، بعون الله ، كيف اصون  
 استقلال هذه الديار . واعتقد ان ايا من الشعوب الاسلامية الممثلة هنا لا يستطيع

ضمان استقلال الحجاز، لسبب بسيط هو ان هذه الشعوب جميعاً لا تملك حريتها. فالهنود واقعون تحت السيطرة الانكليزية. وكذلك مسلمو العراق وشرقي الاردن ومصر. واما السوريون واللبنانيون فتحت سيطرة الفرنسيين. والسنيون تحت السيطرة الايطالية. فالعهد بإدارة الديار المقدسة الى اي من هذه الشعوب معناه الحاقها بصورة غير مباشرة بالسيطرة الاجنبية.

لقد فتحت الديار المقدسة بإرادة الله وبفضل قوة ساعدني وولاء شعبي، فأصبح من حقي وحدي ان اتولى ادارتها كدولة مسلمة حرة. انه حقي المطلق وواجبي كملك.

ليس لانني انوي فرض سيطرة شخصيتي على الحجاز، فذلك بعيد عن تفكيري. فالحجاز امانة الله في عنقي سأحافظ عليه بكلتا يدي الى ان يصبح في وسع شعب هذا البلد ان يختار حاكمه، شرط ان يكون حاكماً حراً قادراً على ان يكون خادم الاسلام وحده.

٥٨

حاكم حر يستطيع ان يكون خادم الاسلام.. وحده!

لا ريب في ان ابن سعود كان يشير الى نفسه في هذه العبارة. غير انه لمن الخطأ ان نعتقد انها مجرد حنكة سياسية، بل هي في الحقيقة تعبر عن ايمان وثقة بالنفس لا جدال فيها. ان من الصعب ان نتفهم نفسية ابن سعود اذا تجاهلنا طبيعة عقيدته الدينية.

لقد نشأ في مدرسة والده الامام على التقيد الصارم بتعاليم القرآن، ولم يدر في

خلده قط ان يخالفها . أجل ، لقد انتفض ابن سعود مراراً ضد تطرفات بعض رجال الدين المتعصبين وتفاسيرهم السطحية للشرع ، الا انه لم يتخط قط هذا الشرع في حقائقه الجازمة .

ان الاسلام في نظره يمثل لباب الذهنية العربية ، وهو النظام الذي لولاه لفرق البدو في الفساد والفوضى . كان عبد العزيز ، كما يقول - آرمسترونغ - « يؤمن بان الله دائم الوجود الى جانبه ، يقوده في كل عمل ، سواء وقف بالجماهير ام اختلى في جناحه ، جلس للقضاء ام حارب في الصحراء . ففي القصر او تحت الخيمة او على المسالك الرملية كان ابن سعود وطيد الايمان بان الله معه حيث كان يقوده بيده .

وقبل ان يتخذ اي قرار خطير ، كان يخلو الى نفسه ويصلي . وعندما تدنو اللحظة الحرجة ، كان يفرغ ذهنه من اي شيء ، ويسأل العلي القدير ان يوجه خطواته ، وما كان بعد ذلك يعود عن قرار ، ايماناً منه بان الله هو الذي املاه عليه ! ، .

انه من الضلال ان نحسب ان نفسية كهذه تتنافى والنظرة الموضوعية الثاقبة التي سادت سياسته ، فلدينا ذلك كله حافلة برجالها الذين كانوا في الوقت نفسه أعضاء كرجال دولة ورجال ادارة .

لقد قال ابن سعود يوماً - للسيربرسي كوكس - : « اني مسلم اولاً ، وعربي ثانياً ، غير اني دوماً خادم الله » .

ولما كان عبد العزيز يحسب في ذاته شعباً رفض دوماً ان يفصل بين الزمنية والروحية فقد كان نشاطه السياسي والديني يتازجان الى حد يتمذر عليه ، هو نفسه ، ان يميز بينهما .

وعلام يميز بينها ، وكل منها يدعم الآخر . فامتداد سلطانه ونشر الدعوة كانا في الواقع واحداً ، وكان لمطامحه السياسية وغيرته الدينية اتجاه واحد ... هنا كانت تكمن قوته الكبرى ! كما يشهد بذلك نضاله ضد الحسين .

كان يجد الملك في هذا النضال مصلحته ، لان احتلال الحجاز يعطي بلاده منفذاً على البحر الاحمر ، ويشكل خطوة في سبيل وحدة الجزيرة العربية ، ويحطم الطوق الذي احكمه اعداؤه من حوله .

وفي الوقت نفسه كان هذا النضال لمصلحة ايمانه وخدمة عقيدته ، ذلك لأن الحكم الذي كان قائماً في الحجاز قد اضعف الاسلام بينما كانت رسالة ابن سعود ان يعيد اليه الحيوية ... ألم يقل لاعضاء المؤتمر الاسلامي العام المنعقد سنة ١٩٢٦ : « اني عازم على ان اجعل بحول الله من الديار المقدسة مشاعل للحياة والثقافة الاسلاميتين ، ومدعاة فخر واعتزاز لكل مؤمن ، ليشهد اشعاعها عبر العالم ، على شباب الاسلام الدائم وحيويته الخالدة . »

٥٩

فوجيء الانكليز بانهيار الحسين وفراره ، إذ لم تدم مقاومته سوى ثمان واربعين ساعة . وكانوا يعتقدون بأن الملك ، رغم اخطائه سيكون اكثر فعالية في دفاعه عن نفسه .

ورأى المشرفون على وزارة الخارجية البريطانية ان لا مجال للاعتراض على الأمر الواقع ، بل ان الواجب يقضي بالاتصال حالا بابن سعود ، فأوفدوا لذلك بعثة دبلوماسية برئاسة الجنرال « جيلبرت كلايتون » الرئيس السابق للكولونيل « لورنس » في « المكتب العربي » بالقاهرة .



وقابل ابن سعود « كلايتون » في بلدة « بحرة » الصغيرة الواقعة في منتصف الطريق بين مكة وجدة . كان يحمل ذكرى مرة لمقابلته الاخيرة مع الانكليز ، فاية مطالب سيصطدم بها اليوم ؟ .

وقام الانكليز باحتلال ميناء العقبة في اقصى الشمال الحجازي بينما كان « كلايتون » في طريقه الى « بحرة » . وكانت العقبة مع عدن والكويت من اكثر المواقع الاستراتيجية اهمية في شبه الجزيرة العربية ، ولم يكن في نية الانكليز ان يتخلوا عنها .

وكان ابن سعود قد امسك هو الآخر بورقة رابحة . . . ورقة تزعج الانكليز بوجه خاص ، فقد اصدر اوامره الى الفرقة الثانية من الاخوات التي كانت مرابطة على حدود شرقي الاردن بالتوغل داخل وادي السرحان ، وتمت العملية في الحفاء لان الابصار كانت كلها متجهة الى مكة ، وكان اهتمام القنصليات الاجنبية منصباً على احداث الحجاز . فأصبح ملك نجد بذلك يمتلك ممراً كراًس الحربة يفصل ما بين شرقي الاردن والعراق ويوصل الى مقربة من الحدود السورية .

وكانت هذه المناورة مبنية على حساب دقيق . فإذا كان الانكليز قد قرروا عدم مساندة الحسين ، فقد يتخلون بالمثل عن فيصل وعبدالله ، فيكون الاخوان قادرين على القضاء عليها الواحد بعد الآخر وينتهي ابن سعود مرة واحدة من جميع الهاشميين ، والا فإن الانسحاب من وادي السرحان يمكن ان يكون موضع مساومة لقاء بعض المكاسب في الحجاز او سواه .

كان المشرفون على وزارة الخارجية البريطانية يحرصون على منع القوات السعودية من الوصول الى المناطق الساحلية ، فهم لا يجهلون ما قد ينجم عن ذلك من انعكاسات ومن تأثير على الموقف في مصر ويران ، ذلك ما كان يثيرهم كل

مرة يقترب فيها ابن سعود من ساحل المتوسط . وكان التوغل في هذه المرة اكثر اثاراً لان الرقعة من الارض التي يحتلها « الاخوان » تفصل شرقي الاردن عن العراق ، وتقطع الطرق البرية بين بغداد والقاهرة وتمنع مد الانابيب التي كانت مقررأ انشاؤها لنقل البترول من الموصل الى حيفا حيث كانت الاميرالية البريطانية منصرفة الى بناء قاعدة بحرية هامة . اذا بقي الاخوان حيث هم فان السياسة البريطانية كلها في المنطقة ، ستكون بحاجة الى اعادة نظر ، بل ان احتلال القوات السعودية للشطر الفاصل بين شرقي الاردن والعراق يثير في وجه الحكومة البريطانية عدداً من المتاعب والقضايا ، يبدو فتح مكة الى جانبها امراً ثانوياً .

وظن ابن سعود ان « كلايتون » جاء الى « بحرة » ليحمله على الجلاء عن الحجاز ، في حين كان المفاوض البريطاني مهتما بتحقيق الجلاء عن وادي السرحان ، ودهش الملك عندما دارت المحادثات كلها حول الوادي والعقبة دون ان تكون مكة موضع بحث . واقتنع الملك بان كلايتون لا يلعب لعبة شريفة فراح هو يخفي مقاصده واستمرت المحادثات مدة ستة ايام ... ستة ايام حاول كل منها خلالها التوصل الى سبر اغوار الآخر .

كان ابن سعود القائد الاعلى لجيش يخوض معركة ، لان السيطرة على الحجاز لم تتم بعد وما زالت جدة والمدينة المنورة تقاومان ، فلم يشأ الملك وقف العمليات الحربية خلال المفاوضات كيلا يتيح للمدينتين مجال تعزيز دفاعهما . لقد جعل من « بحرة » مقر القيادة العليا وواصل الاهتمام بالعمليات العسكرية ، بينما كانت يتابع المفاوضات الدبلوماسية مع الانكليز .

فأصبحت البلدة الصغيرة من جراء ذلك مقر حركات دائبة ، ففيها تتجمع القوات الرئيسية السعودية والقبائل الحجازية الجبلية والمتطوعون الذين يطلبون الالتحاق بالاخوان . وكان لا بد من انشاء وحدات جديدة وتسليحها بالمعدات التي خلفها

العدو وتموين القرى التي تمت السيطرة عليها وحفظ النظام في مكة ، وتعزيز الحصار على جدة والمدينة المنورة . وكان ابن سعود مضطراً في كل لحظة الى تعليق المفاوضات ليستقبل احد الرؤساء او يتخذ قرارات عسكرية او يسوي بعض القضايا الطارئة ويصدر تعليماته الى اركان حربه .

ولكن هذه الانقطاعات - كما يقول المؤرخ ارمسترونغ - لم تكن تزعج الملك ابدأ ، بل كان يعود للجلوس الى مائدة المفاوضات ويستأنف المناقشة في هدوء من النقطة التي توقف عندها ، في حين ان الضوضاء الصاخبة في البسطة والغبار وتردد الساعة وضباط اركان الحرب الى المقر الملكي واضطراب الملك الى قطع المحادثات والتغيب ثم العودة . . . هذا كله ادى الى نفاذ صبر ممثل الحكومة البريطانية « سير جيلبرت » فخيل اليه ان ابن سعود يهزأ به وانه يحاول التأثير عليه بظواهر القوة هذه .

واعلن كلايتون صبيحة اليوم السابع انه يضع حداً للمحادثات . واذا كان يستحيل التوصل الى اتفاق ودي ، فلا بد من الحرب . . . الحرب التي ستستخدم فيها كل الوسائل الفنية الحديثة ، وتسهم فيها القوات الفرنسية في سورية الى جانب البريطانيين .

ان تصريح كلايتون كان ينطوي على شيء من المبالغة ، فالفرنسيون مشغولون بثورة جبل الدروز وغير مستعدين لتحمل عبء صراع آخر . واما الحاميات البريطانية في فلسطين فقد خنضت الى الحد الذي لا يسمح لها بخوض حرب دون مساعدة حلفائها .

ولم يكن ابن سعود يجهل ذلك . فتساءل برهة : هل يواجه التحدي ؟ ثم بدل رأيه ، فإن عملاً من هذا النوع يعرض مصير المملكة للخطر ، وليس من الحكمة

التضحية بالمهم لمحض الاعتداد بالنفس . فما دام كلايتون لم يتقدم بأية مطالب في الحجاز ، فلا بأس من التفاهم على موضوع وادي السرحان .

ولم يشأ ابن سعود ان يظهر بمظهر المتراجع امام الضغط ، فطلب مهلة اربع وعشرين ساعة للتفكير . وفي اليوم الثاني وقع الطرفان اتفاقاً يتعهد ملك نجد بموجبه بالجلء عن وادي السرحان مع احتفاظه بحق السيادة على القبائل القاطنة في الوادي ، اما بشأن ميناء العقبة فإنه يمتنع عن المطالبة به بوصفه جزءاً من الاراضي الحجازية على ان يبحث مصيره في مفاوضات مقبلة .

وبنتيجة هذا الاتفاق اصبح ابن سعود طليق اليدين في المناطق التي كانت خاضعة حتى الآن للحسين . فإن الصمت الذي التزمته معاهدة « بحرة » حول هذا الموضوع كان يعني ان القضية لا تهم بريطانيا .

٦٠

لم يبق اذن سوى متابعة فتح الحجاز ، فقد تحصن « علي » في جدة وعزز فيها حاميته بمساعدة المرتزقة الاتراك الذين جندهم من بين عمال الميناء . وخذت « المدينة » و « ينبع » حذو جدة . فأصدر ابن سعود اوامره الى « الاخوان » بهدم حصونها باسرع وقت ممكن .

ولكن حصار المدن الثلاث امتد الى عدة اشهر رغم هجمات الاخوان الضارية . وصمدت حامية « جدة » ببسالة وعناد ، فإن هذه المدينة التي بنيت حول ضريح حواء كانت محصنة تحصيناً قوياً من قبل المصريين في السابق وكانت مركزاً تجارياً مزدهراً .

واخيراً... بدأت المياه والمؤن تتناقص رغم التقنين الدقيق واخذ المحاصرون في الابراج العالية يموتون بالمئات وكان يستحيل دفنهم لان المقابر خارج الاسوار وهي في ايدي الاخوان . واضطجت الجماعة رهيبة وغصت الشوارع بجموع المتسولين يزحفون في اسمال بالية ، خائري القوى عاجزين عن السير ، ثم يتساقطون امواتاً من الحرمان ، على الارصفة وفي الساحات . رجال ونساء فقدوا عقولهم بتأثير الجوع والظماً يزاحمون الكلاب الشاردة والعقبان على جثث الاموات ، وتحولت ازقة الميناء الى مقبرة مكشوفة . وكان خريف ذلك العام حاراً والشمس ترسل اشعة لاهبة فامتلات المدينة بالروائح الكريهة تتصاعد من الجثث المنتنة ، حتى ان البواخر السائرة في عرض البحر كانت تحول سيرها بعيداً عن « جدة » هرباً من الرائحة وجرائم الاوبئة .

واستعد « الاخوان » في اوائل تشرين الثاني ١٩٢٦ لتوجيه الضربة القاضية . واستبد اليأس بالأمير « علي » الذي كان الى ذلك الحين يأمل في مساعدة الانكليز ومعاونتهم اذ يسهل عليهم توينه من البحر ، ولكن لا الانكليز ، ولا الحسين ، ولا فيصل ولا عبد الله ، فعلوا شيئاً لمؤازرته . ف شعر بأنه خسر الجولة نهائياً ، ولم يعد بوسعه الصبر فقرر التسليم لينقذ المدينة من الدمار الشامل .

وابجر في مطمع كنون الأول على قارب بريطاني نقله الى عدن ، وتوجه منها الى بغداد لاجئاً الى اخيه الملك فيصل فكان آخرها شمي يغادر ارض الحجاز .

ولما علمت « المدينة » و « ينبع » باستسلام « جدة » ورحيل « علي » بادرت بدورها الى الاستسلام .

وقرر ملك نجد ان يدخل مكة المكرمة للمرة الثانية ، وكان قد دخلها  
اول مرة حاجاً ، حاسر الرأس اعزل من السلاح ، في موكب تميز بالطابع الديني  
الصرف .

وهكذا مشى خمسة عشر الفاً من الاخوان في عرض عسكري وجابوا  
المدينة ، وهم مشرعو السيوف تتقدمهم الموسيقى والريات والالوية وتوجه الملك  
بموكب رسمي الى القصر يحوطه الاعيان والقادة والولاة واطل على الجمهور من  
الشرفة الشريفة ، فيما كانت المدفعية تطلق من اعلى الاسوار مئة طلقة وطلقة ،  
ترددت اصداؤها في فضاء الجبال المحيطة بالمدينة المقدسة .

ثم انتقل الى قاعة العرش حيث كان بانتظاره مئات من الشيوخ واشراف  
المدينة فأعلنوا مبايعة شعب الحجاز له بالملك ( ١٨ كانون الثاني ١٩٢٦ ) .

\*

\* \*

غمر الكولونيل « لورنس » بأس شديد لما بلغه خبر انهيار الحسين والطريقة  
التي تخلت بها بريطانيا عن حليف الأمس وامتنتت الوعود المبذولة للهاشميين .

وخيل اليه ان كل شيء في قرارة نفسه ومن حوالبه قد تداعى ، عندما علم  
بتفاصيل رحيل الهاشميين وبان « كلايتون » الذي عمل معه جنباً إلى جنب في  
- المكتب العربي - بالقاهرة ، لم يفرض على السعوديين الانسحاب من الحجاز  
ولا تنصيب الأمير علي على عرش ابيه .

لقد ذهب قبل عشر سنوات ، لفتح الصحراء ، يدفعه شعور بالفخر والاعتزاز ، ونجحت مهمته وهب العرب لتلبية ندائه مما جعله شديد الثقة بنبوغه وذكائه .

ولكنه عندما يعود الآن الى استعراض مغامراته ، فان لواذع السخرية تدمي قلبه . ابن جحافل الرجال . . . ؟ لقد تبددت كالدخان ، والفي الحسين نفسه في ساعة الشدة وحيداً ، واضطر علي الى الفرار .

لقد خيل « ملك العرب غير المتوج » انه يعمل للخلود ، ولكنه يرى اليوم ان جهوده واحلامه لم تتعد في مصيرها آثاراً على رمال . ابن الاتحاد العربي الكبير ؟ لم يبق منه سوى العراق وهذه الرقعة البائسة من الأرض شرقي الاردن - المحشورة بين فلسطين والصحراء دون منفذ الى البحر فحصيلته المهمة التي قام بها في النهاية : الاخفاق .

لقد خسر المعركة الاخيرة ولم تعد آملته عدلته بشيء .

كانت سقطته عميقة ، فاراد ان يجعلها ابعد غوراً . بن يستخدم ذكائه الضاري الذي كان يتميز به ضد نفسه وسحق ذاته .

كم مرة حاول التخلص من انقباضه التي لا مبرر لها وقيادته الزائفة : « لقد كان العرب ضحية خدعتنا ، ومع ذلك كانوا يقاتلون العدو بكل ما اوتوا من اندفاع . وكانوا يهبون الى تلبية ارادتنا ، كما يهب النبين امام الرياح . . . انهم لم يكونوا تبناً بل هم اشد الرجال شجاعة وبسالة وقناعة . . . ربما كان من البطولة ان ابذل حياتي في سبيل قضية لا ايمان لي بها . اما ان اسوق الى الموت سوي ، واتقنع بالاخلاص فيما انا في الواقع اهرج ، فتلك سرقة ، سرقة ارواح . . . لقد كان لي ، ولا ريب ، ميل الى الخداع ومقدرة في مجالاته ، والا لما كنت



استطعته الى هذا الحد وطوال سنتين ولكن أخفق هذا الخداع الذي وضع مخططاته سواي . لم يكن لي اي نصيب في الثورة العربية في مستهلها ، اما في النهاية ، فقد كانت لي مسؤولية الارتباك التي اثارها هذه الثورة على الذين تخضوا بها . فمتى تحولت ، في سياق الثورة ، مسؤوليتي من ثانوية الى اولية واساسية ؟ والى اي سبب يجب ان يسند الحكم علي ؟ ليس لي ان اجيب . لقد كنت اشعر بمرارة اسفي لانغماسي في هذه الثورة ، انها مرارة كانت كافية لأن تضني نفسي ساعة التحقق من واقع جمودي ، ولكنها لم تكن كافية حتى تدفعني الى التحرر من التزاماتي . من هنا ، تقلبات ارادتي وتدمري الدائم العقيم .. (١)

وباتت الشكوى وحدها لا تجدي ، فان الم الخيبة بدأ يحرق لورنس ويوحى اليه بفكرة الانتحار ، واصبحت الحياة والشرف بالنسبة اليه على طرفي نقيض فلا يدفع احدهما عن الآخر .

وكان لورنس ينصرف احياناً الى احط المهن لينسى فيها مرارة خيبته فعمل خادماً في اسطبل وفي زريبة خنازير ، وكان يردد باستمرار : « كنت احب الأشياء المهينة ، وابحث عن ملذاتي في الحضيض ، وأجد الثقة والاطمئنان في الترددي والانحطاط ، ان في وسع الانسان ان يسمو الى مستويات لا حدود لها ، ولكن ليس في وسعه ، عندما ينحدر ، ان يتخطى في انحداره حداً معيناً . » لقد كان يأمل في استعادة حرته الهائلة التي عرفها ايام شبابه في غيطان بورسعيد عندما كان يقضي ايامه في تحميل البواخر مع نفر من منبوذي القارات الثلاث ، كما كان يقضي ليليه في النوم متقلصاً على الرصيف عند قاعدة تمثال « دولسبس » .

١ - لورنس : « اعمدة الحكمة السبعة » .

ولم يستطع اي شيء ، حتى ولا مرور السنين ، ان يخفف من آلامه ، وانتهى به المطاف اخيراً الى التطوع في سلاح الجو الملكي البريطاني كجندي بسيط وباسماء مستعارة . هنا وجد بعض الراحة في حياة الثكنات الآلية بين قوم يجهلون ماضيه وشخصيته ، او آخرين يعرفونه ولكنهم يحترمون صمته .

وقد كتب بذلك الى بعض اصدقائه يقول : « ليس في وسع المرء ان يكون إلاً قائداً اعلى او جندياً بسيطاً ، وليست المراحل الفاصلة بينهما سوى تمويه وخداع ، وعندما لا نتولى زمام القيادة المطلقة فانه لمن الأفضل ان نحتمي بالطاعة العمياء . »

وسقط لورنس في ١٣ ايار سنة ١٩٣٥ ضحية حادث مروع وهو يقود دراجته البخارية ، فنقل الى المستشفى حيث لفظ فيه نفاسه الاخيرة بعد بضعة ايام .

٦٢

كان الاخوان في نشوة ، فقد اهب فتح الحجاز حماسهم للقتال ، واخذ المحاربون ، وعلى رأسهم فيصل الدويش ، يطلبون الى الملك ان يخوض معارك اخرى ، ويحقق انتصارات جديدة ..

رأى ابن سعود ان يوجه موجة هذه الحماسة الى منطقة « عسير » على ساحل البحر الاحمر .

ان « عسيرا » منطقة تتميز في الجزيرة العربية بخصبها وكثافة سكانها من مزارعين وذوي حرف ، كما كانت تتميز بوسائل ارضية متطورة في ذلك الوقت والتي تتيح

لصلاحيتها حرثاً اراضيهم وزرعها حبوباً وخضاراً على مدار العام .

وكانت « عسير » ، وهي مهد الحضارة القديمة من سبأية وحميرية ، ترواح عام ١٩٢٦ تحت حكم حسن الادرسي ، وكان حاكماً مستبدأ . فمضى « الاخوان » الى « أبها » البلدة التي كان يعتصم فيها الادرسي ولم يجدوا صعوبة في القضاء على سلطانه وارغامه على الفرار . فعين ابن سعود احد ابناء عمومه حاكماً على « عسير » (١) .

ودارت بعد ذلك المفاوضات بين الملك عبد العزيز وبريطانيا ، ولكن المفاوضات هذه المرة جرت في جو يختلف عن جو مفاوضات القاهرة او عقيير ، فقد ادركت بريطانيا حقيقة قوة ابن سعود وقررت كسب مودته ، وانتصرت نظرية فيلبي على اراء لورنس .

ابدى المفاوضات البريطانيون كثيراً من الاستعداد الطيب والاحترام نحو الملك . فسر ابن سعود بهذا التحول ، وقرر استغلال الظروف المؤاتية لتوسيع المباحثات واجراء مفاوضات عامة لتسوية كافة القضايا العالقة بينه وبين بريطانيا دفعة واحدة ، فوافق على عقد معاهدة حسن جوار مع فيصل وعبد الله ، وتعهد بالايتعرض للعراق وشرقي الاردن .

وانتقل المفاوضات بعد ذلك الى مشكلات شبه الجزيرة العربية الاخرى . فوافق ابن سعود على « عدم الاهتمام » ، بحضرموت وعمان اللتين تطوقان شبه

---

٢ - جاء في كتاب « جزيرة العرب في القرن العشرين » ما يلي : « استنجد الحسن الادرسي بالملك عبد العزيز عندما كان امام اليمن يزحف بجيشه لاحتلال « عسير » فاعلن الملك عبد العزيز حمايته وعقدت بينها معاهدة تنظيم الادارة في تلك المنطقة عام ١٣٤٥ هـ ( ١٩٢٦ م ) لانقاذ ما بقي من ملك الادارة . وفي عام ١٣٤٩ هـ ( ١٩٣٠ م ) طلب السيد الحسن ان تضم البلاد الى مملكة جلالة الملك عبد العزيز وان يكون حكمه فيها مباشراً . ومن ذلك التاريخ اصبح ذلك القسم من « عسير » ملحقاً بمملكة نجد والحجاز . »

الجزيرة في الجنوب الشرقي على طول المحيط الهندي وتشكلان امتداداً للربع الخالي ليس فيه ما يقري ، ويقطنهما عدد ضئيل من السكان ، وإذا استثنينا مسقط عاصمة عمان فلن نجد فيها سوى عدد من القرى الصغيرة الفقيرة ، المبنية من الآجر واللبن يعيش فيها جماعات من الصيادين البؤساء .

واحتفظ الملك بموجب هذه المعاهدة بحق السيادة على الحجاز وعسير ، وبحق الاشراف على الديار المقدسة دون منازع .

٦٣

عندما فتح النبي محمد ﷺ مكة ، وأصبح سيد الحجاز ، أخذت تتوافد القبائل العربية الى المدينة مقدسة لمبايعة الرسول العربي ٦٣٠ - ٦٣١ ، ودعي ذلك العام - الذي سجل لأول مرة في التاريخ توحيد الجزيرة العربية تحت قيادة واحدة - بعام الوفود

وشاء ابن سعود ان يحضو حيو الرسول ويعيد تحت لراكري بحيدة اقدس في خريف لعام ١٩٢٨ ، الى عقد مؤتمر عام جموية نموذجية للجزيرة العربية يعقد في الرياض<sup>(١)</sup> وطلب من جميع قبائل سنكة ومدنها وقرىها ان يندد مندوبين عنها الى المؤتمر

ولم يكن هدف ابن سعود من وراء مؤتمر محض تظاهرة تذهب خيال رعاياه .

١ - ان الاسباب الرئيسية التي دعت الى عقد هذا المؤتمر موقف فريق من الاخوان بقيادة فيصل الدويش ضد الاصلاحات التي قام بها الملك عبد العزيز وعين لها من اسباب ومفكرات ، فاراد عبد العزيز ان يجمع كلمة النجدين ويشير حميتهم ضد الاخوان المتطرفين .

بل كانت تحتمها ضرورات ومشاكل سياسية داخلية . فقد انشغل الملك بفتح الحجاز وعسير وظل غائباً عن نجد طوال عامين كانت خلالها مناطق حائل والاحساء وعتيبة برعاية حكام عكف الملك على اختيارهم في عناية . ومع ذلك فإن بعضهم لم يكن في مستوى المهمة التي انتدب لها فشط في تصرفه مما ادى الى انتشار التدمير والتشكي ، وتآزمت اوضاع بعض المناطق حتى اوشك السكان على الثورة . وكان الاخوان منصرفين الى مهامهم الحربية بعيدين عن مواطن الاضطراب حتى يعيدوا الأمور الى نصابها . فنجم عن ذلك استياء عام هدد استقرار المملكة . ولقد حان الوقت ليقبض الملك بيديه على ناصية الأمور .

حدد الثامن من تشرين الاول موعداً لافتتاح المؤتمر واخذت الوفود تتوالى ، منذ مطلع الشهر ، من مختلف ارجاء الجزيرة العربية ، وتجمع في اليوم المحدد امام القصر الملكي . حشد يقدر عددهم بستين الف نسمة حتى تجاوزوا اسوار القصر وغصت ساحة المدينة بالجموع وضافت بها الشرفات والنوافذ واغصان الاشجار واسطحة المنازل . انه لحشد لم تشهد له الرياض مثيلاً منذ ان رأت النور .

كان المؤتمر صورة ناطقة لشعب الجزيرة العربية : العلماء والحكام والولاة وامراء الاسرة السعودية ، واعيان المدينة وشيوخ القبائل وقادة الاخوان والضباط والجنود ، جنباً الى جنب مع الرعاة والمزارعين .

ولم يكن هؤلاء الرجال المتباينون سناً ونشأة ومشارب وميولاً مدفوعين بعوامل ومشاعر واحدة . فبعضهم على ولاء مطلق للملك ، وغيرهم اقل ولاء ، ومعظمهم لم يسبق له ان شاهد الملك من قبل . وقد اجتاز هؤلاء مئات الكيلومترات عبر الصحراء استجابة لندائه متلهفين لسماع ما سيقول .

واطل ابن سعود من على قمة درج القصر منتصباً بقامته المديدة الفارعة واستعرض الجموع بنظرة شاملة نافذة وبدأ يتكلم . . . ومما قاله :

– الملك لله وحده ! اذكروا اني عندما جئتكم الفيتكم منقسمين على انفسكم متناحرين ، يسطو بعضكم على بعض . وكان الذين يتولون شؤونكم ، سواء من العرب او الاجانب ، يتآمرون عليكم ويفذون خلافاتكم ليحولوا بينكم وبين الوحدة والقوة .

عندما جئتكم كنت ضعيفاً . ولم اكن املك من القوة سوى عون الله . ولم يكن يصحبي سوى اربعين من الرجال كما تعلمون جميعاً ، فانتقلت ، مع ذلك ، من نصر الى نصر وجعلت منكم شعباً ... وشعباً عظيماً .

ولقد دعوتكم الى هذا المؤتمر ، ليس بدافع الخوف من احد لأنني لا اخاف احداً . لقد قاتلت وحيداً في الماضي ولا معين لي الا الله . ولا يخامرني اي خوف من مواجهة قوى الأعداء لأنني أو من بان الله ، عز وجل ، سيؤتيني النصر من عنده ، الا اني انما دعوتكم خشية من الله ... اجل خشية من الله ومخافة الوقوع في معصية الغرور . ذلك ما دعاني الى التحدث اليكم الآن ، واريد ان يكون حديثاً من القلب الى القلب .

لقد ترامي الي ان لدى البعض منكم شكاوى علي وعلى الولاة الذين اوليتهم عليكم . انني اريد ان اعرف هذه الشكاوى لأقوم بواجباتي نحوكم ولأبريء ذمتي عندما اقف بين يدي الله .

ولكن هناك امراً اساسياً لا بد من تسويته قبل اي شيء آخر . فاذا كانت لدى بعضكم ملامة يوجهها الي فليفعل وليقل دون حرج اذا كان يرغب في بقائي حاكماً او انه يفضل حاكماً سواي . انني لا اتخلي عن سلطتي لأحد يريد انتزاعها عنوة ، ولكنني اضعها من تلقاء نفسي وديعة بين ايديكم اذا كانت تلك هي امنيتكم لأنني لا اريد ان احكم شعباً لا يرغب ان اكون ملكه .

دونكم آل سعود ، فاختراروا رئيساً من بينهم . وإيا كان الرجل الذي  
تختارونه فلسوف اساعده واخدمه بأخلاص .

والآن .... قولوا كلمتكم فأني انتظر قراركم .

وسكت ابن سعود ليتيح للجماعة مجال التعبير عن رأيها . وعقلت الدهشة  
ألسنة الجمع فخيم صمت عميق دام برهة ثم علت المهمة واتسعت وتصاعدت  
كالموجة الهادرة وتحولت الى هتاف متواصل صاخب :

– نحن معك ، يا عبد العزيز ... ولا نريد احداً سواك ملكاً يقودنا ...

رفع ابن سعود ذراعه ليعيد الهدوء وقال :

– اني اشكركم على ثقتكم وسأعمل كل ما بوسعي للحفاظ عليها ،  
ويجب الا يقوم بيننا اي ظل من الريبة والشك ، واريد ان يكون كل شيء  
واضحاً وصریحاً . ولنذكر جميعاً انكم تذكرون كلمات خليفة رسول الله ابي  
بكر الصديق رضي الله عنه عندما بايعوه بالخلافة اذ قال :

« ايها الناس ... اني وليت عليكم ، ولست بخيركم ... ان احسنت  
فاعينوني ، وان اسأت فقوموني ... ألا ان الضعيف فيكم قوي عندي حتى  
أخذ الحق له ... ألا وان القوي فيكم ضعيف عندي حتى أخذ الحق منه ...  
اطيعوني ما اطعت الله ورسوله ، فاذا عصيت فلا طاعة لي عليكم »

اني اردد القول نفسه امامكم لمصلحتي ومصلحتكم ، فالزمن يتبدل ولكن  
التبعات لا تتغير ، فإذا كان بينكم من نالتهم اذية او يكتنون ملامة او لديهم  
شكوى يوجهونها الي فليعبروا عن ذلك في مطلق الصراحة آمنين . فإن الشكاوى  
ستحال الى قضاة يتولون تمحيصها والتدقيق فيها ، فاذا حكموا بمسؤوليتي او



بخطأي فلسوف اخضع لأحكام الشرع شأني في ذلك شأن اي فرد من رعـايا  
الملكة .

فتكلموا ايها الاخوان وأفصحوا دون تحفظ على ما تنطوي عليه صدوركم .  
واعلنوا ما تأخذونه على حكامكم ، فأنا المسؤول عنهم لأنني انا عينتهم . وانتم ايها  
العلماء تكلموا وكأنكم في يوم الدينونة عندما تمثلون بين يدي الخالق لتقدموا له  
الحساب . تكلموا ولا تخشوا احداً منها كان عظيماً او مقتدرأ ... ،

وتألفت محكمة خاصة تولت في الأيام التالية الاستماع الى الشكاوى ، فيما  
انصرف ابن سعود ورؤساء الوفود الى بحث مختلف وجوه الادارة الملكية  
وتحصيلها : تطور الهجر الزراعية ، اعمال الري ، العائدات ، تجنيد الاخوان ،  
الموارد البلدية ، وأمن الطرق . ولكن الملك حظر عليهم التعرض للقضايا الناجمة  
عن المنازعات القبلية ، فقد كان يعتبر هذه القضايا من اختصاصه وحده ويتمسك  
بحق البت فيها .

كان لخطاب الملك وقعه الطيب . وازدادت الجماهير اعجاباً به وتقديراً عندما  
اعلن عن العقوبات التي انزلت ببعض الولاة الذين اساءوا الادارة وتحقق الناس  
كال الامن والحرية للذين كشفوا عن مخبآت صدورهم . فكان ذلك كله الدليل  
الساطع للشعب على ان ابن سعود رجل يفي بما يتعهد به ويقدم ما يقطع من  
وعود .

واختتم المؤتمر باحتفال ديني وعسكري كبير . ونودي بابن سعود ملكاً على  
الجزيرة العربية وحامياً للديار المقدسة .

ولما انتهى الاحتفال في المسجد الكبير ، وظهر حفيد سعود الكبير في باحته  
يحوطه به ابناؤه ، استقبلته الجماهير بحماسة منقطعة النظير . واعلن ابن سعود بصوت

جهد ان عهد الممالك المنفصلة في نجد والحجاز والاحساء وعسير قد انتهى  
واصبحت كلها دولة واحدة تحمل اسم « المملكة العربية السعودية » .

ثم انتقل الملك الى ساحة الرياض الكبرى حيث تجمعت فرق الاخوات  
ووحداتهم على اختلاف انواعها ، فسلم اليهم الرايات الجديدة ، ووزع الهبات على  
العلماء والولاة والقادة والضباط الذين ابلاوا البلاء الحسن في المعارك الاخيرة ،  
فأعطى كلا منهم حسب استحقاقه ورتبته : سيوفاً وخنجر مصقولة وسجاجيد  
للصلاة ومعاطف مطرزة واسرجة موشاة بالذهب والفضة ، وصقوراً للصيد  
وبنادق ، وغنائم متنوعة من مخلفات الحسين في الحجاز ..

وهكذا يسير ابن سعود الى اهدافه مرحلة مرحلة ... وينتقل من نصر الى  
نصر ... لقد عقد معاهدة جدة ، مع الانكليز ، واعترف بمملكته اكثر الدول  
الاجنبية ، واشترك في التوقيع على ميثاق تحريم الحرب ... لقد وطد الامن في  
بلاده ، واخذ حركات الثوار المتمردين في مملكته الشاسعة الاطراف ...

لقد اصبح ابن سعود الآن سيد الجزيرة العربية من اطراف سورية الى المحيط  
الهندي ، ومن البحر الأحمر حتى الخليج العربي .

ان مملكة جديدة قد ارتسمت على خريطة العالم

أجزاء الرابع  
المملكة العربية السعودية  
(١٩٢٨ - ١٩٤٥)



خلف الحسين الحجاز في حالة انحطاط يصعب وصفها . فالمالية والشرطة والادارة العامة والصحة والشؤون البلدية وانظمة الحج ، كانت كلها بحاجة الى اعادة نظر . وكانت مهمة لا اشق منها في هذا البلد حيث يتأثر كل شيء بوجود الاماكن المقدسة ، وحيث تترج القضايا السياسية والاقتصادية والدينية امتزاجاً لا ينفصم .

وبدأت المتاعب غداة يوم الفتح . فقد دعا ابن سعود في حزيران ١٩٢٦ الى مؤتمر اسلامي كبير لبحث الوضع في الديار المقدسة مع ممثلين اختارهم العالم الاسلامي .

وكان الملك يعلق امالاً كبيرة على هذا المؤتمر ، وحرص على ان يوفر لاعضاء الوفود افضل جو ممكن للعمل . فجدد ثكنة المدفعية القديمة التي بناها الاتراك فوق هضبة مشرفة على باب المدينة الغربي ، وزها البناء بالأعلام النجدية الخضراء ، وغرست الاشجار على جانبي الطريق المؤدية الى الثكنة ، رمزاً الى تجديد الاسلام ومنتعة للنظر في ذلك القفر الرملي الموحش ، ووضع اخيراً جدولاً للاعمال تسهلاً لمهمة المؤتمرين .

وعقدت الجلسة الاولى في قاعة الشرف حيث اقيمت منصة في طرف القاعة تعلوها مظلة كبيرة خضراء .

وكان عدد اعضاء المؤتمر الوافدين من مختلف الاقطار الاسلامية حوالي السبعين بينهم المندوب التركي الذي كان يتفرد بين الحاضرين بقبعته الاوربية ،

فلما اتخذ المندوبون مراكزهم ، دخل ابن سعود القاعة وجلس فوق المنصة ، ثم نهض احد مستشاريه فتلا بالنيابة عنه خطاب الترحيب الذي جاء فيه : ولقد دعوتكم ، عندما استولى الاخوان على مكة ، الى الاجتماع لتدارس التدابير المناسبة . وها ان عاماً قد انقضى اتيح لكم فيه التفكير في الأمر ، ولهذا دعوتكم الآن للاجتماع ثانية لتطلعوني على النتائج التي توصلتم اليها . انني اتوقع منكم ان تقولوا لي كل ما يمكن ، وما يجب عمله لتحسين اوضاع الحجاز الدينية ، وان تقررنا بأنفسكم ما ترونه صالحاً ، في هذا المجال . لارضاء الله والناس .

وبعد انتهاء الخطاب غادر الملك عبد العزيز قاعة الاجتماع ليفتح للمندوبين مجال المناقشة الحرة ضمن الحدود التي رسمها لهم .

ولكن المؤتمرين لم يلزموا ، طبعاً ، حدود جدول الاعمال ، واصلوا ان ابن سعود يحد من اطار مناقشاتهم فتخطوا البرنامج الذي وضعه لهم وتعرضوا لبحث قضايا التنظيم المدني والادارة واقترحوا انشاء خط حديدي يصل بين جدة ومكة . فكلف ابن سعود مستشاره ان يشكرهم على اقتراحهم ، وفي الوقت نفسه لفت انتباههم الى انهم يخرجون عن اطار المؤتمر . وعرض المندوبون بعد ذلك جمع مبالغ هامة من المال في بلادهم وتخصيصها لصيانة الاماكن المقدسة والعناية بها شرط ان تدفع لهم الاموال التي تجبى من رسوم الحج بكاملها ، فاعلن ابن سعود موافقته التامة على باذرتهم الكريمة ولكنه طالب منهم جمع الاموال اولاً ، على ان تبحث مسألة رسوم الحج بعد ذلك . وكان يعلم ان اقتراح المندوبين لن تكون له نتيجة عملية وانهم عاجزون عن جمع المبالغ الضرورية .

وفقد ابن سعود جلسة بعد جلسة ثقته بحصيلة المؤتمر . فالمندوبون يفتقرون الى عقلية بناءة عملية ، وقد اظهروا عجزهم عن حل اية مشكلة . وسيطر الغرور على المؤتمرين وتحولت المناقشات الى منازعات شخصية واحتلت الاهواء الفردية المرتبة الأولى .

و غضب الهنود كما حدث في العام الماضي ، لانهم لم يمنحوا « المكانة الممتازة »  
التي يعتبرونها حقاً لهم ، فضاغفوا اثاراً المشكلات واقترح احدهم انتخاب  
« اديب سرفت » مندوب تركيا رئيساً للمؤتمر في حين كان احد الحجازيين يحتل  
مقعد الرئاسة واصر اخر على التكلم بلغة بلاده او باللغة الانكليزية في حين كان  
من المتفق عليه ان تكون العربية لغة المؤتمر ، واخذوا يوجهون الانتقادات اللاذعة  
الى كل شيء حتى الى الدعوة الوهابية وادارة مالية الحج ، وتنظيم المؤتمر ، بل  
و مبدأ عقد المؤتمر الاسلامي السنوي الذي اقترحه ابن سعود .

واخذ المصريون والأتراك بدورهم يضعون العراقيل ويحولون دون انعقاد  
الجلسات حتى ان اعمال المؤتمر لم تتقدم خطوة واحدة طوال اسبوعين .

واصيب ابن سعود بنجبة شديدة ، اذ كان امله ان يجعل من هذه المؤتمرات  
السنوية منطلقاً لمجلس تمثيلي اسلامي تبحث فيه الشؤون الدينية التي تهتم ٤٠٠  
مليون من المؤمنين في جو من التعاطف والاخوة ، ولكن المنازعات التافهة التي  
تخبطت فيها الوفود لم تظهر له كم كان مخطئاً في آماله وحسب ، بل كشفت له  
بشكل مفرج مدى انقسام العام الاسلامي وتفسخه . انه لعالم شاسع ولكنه  
غير منسجم ، وكان شعلة ايمانه قد خبت . لقد استدعى الى مكة اولئك الذين  
ينطقون باسم المسلمين في شتى انحاء العالم معتقداً بانه سيلقى رجالاً عامري  
النفوس حكمة وتعقلاً ، فاذا به حيال جمع من المدعين المتنافرين ، يحرصون قبل  
اي شيء على ارضاء مطامعهم الشخصية . واما وحدة العالم الاسلامي فتأتي في  
المرتبة الثانية في عرفهم . ولم تكن خطبهم ومناهجهم الروحية ، بل وتواهم  
نفسها ، سوى مظاهر لاخفاء حقيقتهم ، ولم يكن وراء كلماتهم الطنانة سوى الفراغ .  
وهكذا اختتم المؤتمر اعماله دون الوصول الى اية نتائج ايجابية .



ولم يكن اعضاء المؤتمر وحدهم في نزاع ، بل ان قوافل الحجاج كانت تحذو  
حذوهم ، وكانت الخلافات بينهم حادة تؤدي احياناً الى اشتباكات دامية .

وتميز العام ١٩٢٧ بحوادث بالغة الخطورة ، فقد بدأ الحج في مطلع حزيران  
واخذت القوافل تتجمع قادمة من ايران وشرقي الاردن ومصر . وكان الحجاج  
المصريون عملاً بتقليد قديم يجلبون معهم المحمل الشريف رمزاً الى الهودج الذي  
كان ينقل الملكة المصرية « شجرة الدر » اول ملكة اجنبية اعتنقت الاسلام  
قبل ٦٠٠ سنة وكانت فصيلة من الجنود المصريين المسلمين تواكب المحمل بقيادة  
« امير للحج » يختار عادة من الاسرة الخديوية .

وكان من منهاج يوم الوقفة ان ينقل المحمل الى جبل عرفات بطريق وادي  
« الابطح » مروراً بمنى حيث يتجمع عادة عشرات الالوف من الحجاج في ممر  
ضيق تحت شمس لاهبة ، مع دوابهم وخيامهم ومؤنهم ومختلف حاجياتهم وقد  
اعياهم التعب من جراء القيظ ومشقة السفر .

وادرك المصريون منى في ذلك اليوم عند اوائل الغروب، وتوقفوا برهة عند  
مدخلها ليتيحوا للمتخلفين منهم مجال الالتحاق بالموكب . كان الحر خانقاً وثمة  
عاصفة على وشك الهبوب ، فقرع الجنود الطبول ليدلوا رفاقهم على مكان  
وجودهم وسط الحشد الهائل .

وسار كل شيء طبيعياً حتى الآن ، الى ان اشار احد الاخوان فجأة بأصبعه  
الى المحمل وصاح :

– انه صنم .. لقد جاءنا المصريون بصنم ، ولقد رأيتهم يعبدونه ويقرعون له انطبول .

واكد نجدى اخر انه شاهد احد الحجاج المصريين يدخن التبغ  
وصرخ :

– انهم قوم لا حرمة للدين الحنيف في قلوبهم ؛ انهم لوثنيتون كفرة .

واقترب بعض المتحمسين من المحمل واخذوا يرشقونه بالحجارة ، بينما تحلق حجاج اخرون حوله يطلقون الهتافات العدائية . واستولى الخوف على الضابط المصري الذي يقود الفصيلة ، فاصدر امره الى رجاله بأطلاق النار ارهاباً في الفضاء فلم يكن لدوي الطلقات من نتيجة سوى زيادة الانفعال والحماسة فتضاعفت الصيحات والشتائم فخشى الضابط حينذاك ان تطفى عليه النعمة فأمر جنوده بتهيئة المدفع واطلاق النار على المتظاهرين ، فأدى الطلق الى سقوط مئة جريح وخمسة وعشرين قتيلاً بينهم عدد من النساء .

علت على الاثر زجيرة غضب من كل الجهات ، وهرع الجنود الاخوان ، والنجديون الى اسلحتهم ، وماجت التلال المجاورة لوادي الابطح ومن جبل الرحمة بالرجال الساخطين ينفثون الموت للمصريين .

كان ابن سعود في قصره بمكة ، فلما بلغه نبأ الحادث سارع الى امتطاء جواده ودعا حرسه للحاق به وراح ينهب الارض نهياً الى منى . فالامر على جانب كبير من الخطورة ، واذا لم يتمكن من تدارك الموقف ، فلسوف يكون ذلك برهاناً للعالم اجمع على انه غير جدير بادارة الاماكن المقدسة وأثباتاً لادعاءات اعداء الاخوان بأن وجودهم في مكة خطر على الاسلام .

وكان الليل قد اسدل سدوله وغرق الوادي في الظلام واكتنفته عاصفة من الغبار يصعب خلالها تمييز الجمهور الصاخب وكان الهواء مفعماً برائحة البارود والدم .

وقفز ابن سعود ارضاً ، ثم شق لنفسه بالسوط طريقاً بين الجموع المتراسة ، وفصل بقسوة بين المصريين والاخوان ، ومشى بخطوات واسعة الى حيث كانت تتخبط جثث الضحايا ، وهو يصيح في النجديين مهيباً بهم الى التزام السكنينة ، فعرف هؤلاء ملكهم وانسحبوا الى سفوح التلال يرقبون ما سوف يحدث .

أجال ابن سعود بصره في المكان ، فرأى الجثث متناثرة على الارض ممزقة بصورة بشعة ، وخبوطاً من الدم الاسود تلتطخ الرمال... فنادى حراسه وامرهم برفع جثث الضحايا ونقل الجرحى الى اقرب مستشفى ، ثم التفت الى الضابط المصري وامره بتجريد رجاله من السلاح ، ثم وضع قوة من الحرس تفصل بينهم وبين الاخوان لتفادي وقوع الاشتباك ، وعاد متمهلاً الى مكة ، في حين اخذت الجموع تتفرق في الظلام .

فلما كان اليوم التالي طالب ابن سعود الحكومة المصرية بالترضية ، فتمنعت ولكن الملك لم ينثن ، واصر على ان حفظ الامن في الاماكن المقدسة حق مس حقوقه لا يتنازل عنه قيد شعرة ، واخيراً لم تجد الحكومة المصرية بداً من الرضوخ ودفعت التعويض لاسر الضحايا .

٦٦

اشتباكات دامية بين الحجاج ومناقشات عاصفة بين المؤتمرين . لقد اثبت ذلك

لأبن سعود ان عليه ان يعمل دون استشارة احد من الخارج ، فسيوف فرسانه الصارمة اصدق انباء من كتب اصحاب النظريات والجدل ولن يتطهر الحجاز الذي أسلم طوال عدة سنوات الى الصوص وقطاع الطرق بالخطب الرنانة . فالبناء المتين يحتاج الى قاعدة راسخة ، والقاعدة في الادارة كانت دواما: النظام والامن العام .

كانت الحياة في الحجاز قد اضحت ، في عهد الحسين ، صعبة لا تحتمل : مئات الحجاج يسلبون او يقتلون كل عام ، وجرائم ، القتل يومية مألوفة . كانوا يقتلون طمعا بكوفية او بضعة نقود او حفنة تمر ، وكانت السرقة مستشرية كالوباء فما من طريق آمن ، وما من قرية في منجى من السالبين . ولما كان الفساد والرشوة سائدين الدولة بكليتها ، فغالبا ما كانت الجرائم على اختلافها تظل بغير عقاب .

وادرك ابن سعود سريعا ، ان التدابير القاسية وحدها هي التي ستؤدي الى القضاء على الفوضى ، فعهد الى حرسه الخاص بمهمات الشرطة في مكة ، واقام مفارز صغيرة ثابتة من الاخوان في القرى والمدن وسير دوريات متنقلة تتألف كل منها من عدد من الفرسان في شتى انحاء البلاد .

قامت مفارز الامن هذه بتطبيق احكام الشرع بصرامة لا هوادة فيها ، فكان القتل والمجرمون يساقون الى محكمة عرفية مؤلفة من ثلاثة من الاخوان ، وكانت الاجراءات سريعة ، فحياة الصحراء البدائية لا تتحمل العقوبات الطويلة الامد ، كما كانت الاحكام بسيطة وراذعة . فالقاتل يقطع رأسه ، بينما تقطع اليد اليمنى للشارق الذي يقبض عليه بالجرم المشهود ، فإذا لم يرتدع ، قطعت الثانية ، ثم القدم اليمنى ، فالقدم اليسرى . ومن وجد نخمورا ضرب ثمانين جلدة ، واما الزناة فيطمرون حتى منتصف اجسامهم في الرمل ، ويرجمون حتى الموت .

يروى احد الصحفيين ان بدوياً جاء الشرطة وابلغ انه عثر على كيس من الارز  
ملقى في الطريق ...

فسأله الضابط :

- وكيف عرفت انه ارز ؟

فأجاب الاعرابي :

- لقد جسسته .

وفقد الاعرابي سبابته التي جس بها الكيس (١) .

كان الجنود الاخوان يطاردون الخارجين على القانون باندفاع لا حد له ،  
ويصمون آذانهم عن التوسلات والتهديدات ، فلا تأخذهم رحمة او شفقة ،  
وكانت تربيتهم الدينية حصناً لهم ضد الفساد ، لا فرق عندهم بين كبير او صغير ،  
فالعقاب نفسه ينزل بالرجل الذي تثبت ادانته ، سواء اكان موظفاً كبيراً ام  
راعياً بسيطاً . كانوا لا يتساهلون في امر ولا يعفون عن شخص ، بل ينفذون  
مهامهم بصلابة لا تلين . وكان شعورهم بأنهم عادلون في الحق يحول دون تسرب  
الكلل الى سواعدهم ، ويملاً افئدتهم الزاهدة راحة واطمئناناً .

وجاءت النتائج بعد ذلك سارة مرضية . فقد ساد النظام والامن انحاء  
الحجاز خلال وقت قصير الى حد ان وجه البلاد كله قد تبدل تبديلاً عميقاً .

انقطعت الجرائم الدنيئة عموماً ، وطهرت الطرق من عصابات النهب والسلب

---

١ - « باري ماتش » ٦ - ١٣ اذار ١٩٥٤ تحقيق في ديار ابن سعود بقلم جان بول بينيز  
وموريس جارنو .

واصبحت آمنة حتى للمسافرين المنفردين . وكان الاتراك قد زرعوا في طول  
البلاة وعرضها ، حصوناً صغيرة لا يواء رجال الشرطة ، فأمر ابن سعود بهدمها اذ لم  
تعد ثمة حاجة اليها . واصبح في وسع التاجر ان يترك امتعته وامواله على جانب  
الطريق ، ويعود ليأخذها بعد اسابيع ، لان المارة يفضلون ان يتعدوا عنها  
ويدوروا من حولها على ان يلمسوها ولو خطأ . لقد شاعت الرهبة في القلوب  
حتى بات ثلاثة من الجنود الاخوان بقيادة صف ضابط يكفون لحفظ النظام في  
اقليم بكامله .

يحدثنا احد الكتاب عن هذه الحقبة فيقول : <sup>(١)</sup>

« انه ليصعب علينا ان نتخيل تبديلاً جزرياً يتحقق في مثل ذلك الوقت القصير  
حتى ليتمكن القول بكل ثقة : لو ان قافلة اسقطت كيساً من البن في الصحراء  
فلا بدت من العثور عليه ، بعد ستة اشهر ، في الموضع نفسه . فالامن في العربية  
السعودية مدهش ، اكثر شمولاً منه في اي بلد اوروبي . فالعوامل الضرورية لفرض  
النظام بين القبائل الرحل تتلخص في نقاط اربع : ١ - معلومات سريعة  
٢ - تعاون وثيق بين الحكام وقوات الامن ٣ - سرعة في الحركة والتنقل تفوق  
سرعة القبائل ٤ - تفهم كامل للعادات والتقاليد المحلية . وكانت هذه العوامل  
الاربعة متوافرة للحكام السعوديين ، وهي التي كانت سبب نجاحهم . »

ويحدثنا « موريس جارتو » في كتابه « تحقيق حول ابن سعود » فيقول :  
« اذا كان ابن سعود قد نجح في لم شعث الجزيرة العربية تحت لوائه ، واذا كان قد  
جعل من بلد مضطرب آهل بالعصابات البلد الاكثر اماناً في العالم ، فمرد ذلك ليس

١ - « جيرالد دوغوري » في كتابه : « الجزيرة العربية فريدة عصرها » .

للقوة والسيف فحسب ، بل لانه سكب في اعماق الامة الناشئة اقوى عوامل  
التراس والتاسك ، اي التقيد الشديد باحكام القرآن .

فالجرائم التي ترتكب حالياً في العربية السعودية خلال عام كامل ، اقل مما  
يرتكب في باريس خلال يوم واحد . ويعود السبب في ذلك الى ان الحياة  
كلها تسير بسرعة استتباب القرآن ، والقرآن مجموعة شرائع تحسبت لكل  
شيء .

٦٧

اهتم ابن سعود بتحسين احوال الادارة المدنية وشؤون الحج ، بعد استتباب  
النظام والامن .

فان عدداً كبيراً من القبائل ، تعودت استيفاء « رسم مرور » من القوافل  
التي تعبر اراضيها وهي في طريقها الى مكة ، فمنع ابن سعود ذلك الاستغلال  
وكل الوسائل المشابهة المتوارثة من عهد السلاطين .

وكان الاستغلال التجاري للاماكن المقدسة قد بلغ خلال القرن التاسع  
حداً لا يطاق ، فلجأ بعض المكين الى الشراسة او الى الحيلة ليكسبوا في خلال  
بضعة ايام معيشتهم للسنة كلها : ادلاء ، مؤجرو دواب ، مؤجرو بيوت وغرف ،  
باعة تماثم وتعاويذ وماء من زمزم ، وحلاقون وحراس بيوت « تاريخية » .  
جميع الاصناف والانواع ، بارعون في تنظيف خرج كل حاج .

وعمل ابن سعود بكل طاقته لمكافحة هذه الاساليب الاستغلالية دون  
ان يتمكن مع ذلك من القضاء عليها قضاء مبرماً . فانشا جهازاً للنقل المنتظم



بين موانئ الساحل ومكة والمدينة، وأمر ببناء أحواض كبيرة للمياه في عرفات وعلى مقربة من الطرق التي تسلكها القوافل ، كما أقيمت مراكز صحية، وأخرى لاسعاف الجرحى في أعقاب حادث المحمل .

وعنيت الحكومة السعودية بعناية خاصة بتطوير وسائل المعالجة الطبية ومكافحة الأوبئة التي كانت تنتشر عادة بعد موسم الحج . واستعانت على مهمتها هذه ببعض الاتفاقات الدولية التي مكنتها من تعميم العيادات الطبية والمقارن الصحية التي تسهر على نظافة الشوارع وتعبيد الطرق وإزالة الأقدار ، ومد الحجاري . وشكلت لجان كلفت تطبيق تعاليم القرآن فتفرض الغرامة على من يتخلف عن عبادة الله وعن تأدية الفروض الدينية في أوقاتها، وقطع دابر الدعارة، ومنع الربا ، وكوفح البذخ وحظر على أي إنسان التحلي بالذهب أو لبس الحرير أو التدخين في دائرة الحرم وقضي على أي شكل من أشكال العبادة الشخصية .

واعاد ابن سعود تنظيم المجالس البلدية في مكة والمدينة وجدة وينبع والطائف وسواها ومنحها مناصات وسلطات واسعة ، وكان نصف أعضائها يتألف من الأعيان الذين يختارهم الملك والنصف الآخر ينتخبه الشعب .

ولما أصبحت موارد المملكة كافية ، فيما بعد ، ألغى الملك رسوم الحج التي كانت تدر على الخزانة حوالي سبعة ملايين دولار لأنه لا يريد - كما كان يقول - أن يجني أية أرباح مادية من حكمة الديار المقدسة ، ولقد دشنت هذه التدابير عهداً جديداً ليس بالنسبة إلى السعودية فحسب ، وإنما بالنسبة إلى الحج نفسه إذ أعطته المظهر اللائق به .

٦٨

أصبحت الضرورة تحتم إنشاء جهاز إداري متين بعد اتساع رقعة المملكة وانضمام المزيد من الأقاليم إليها . وكان الملك ، في البدء يستند لتسيير دفة الحكم

على خبرة والده وعدد قليل من « المستشارين » . لقد كان يشرف بنفسه على كل شاردة وواردة ويلاحق المقرارات التي يصدرها حتى يطمئن الى تنفيذها . اما اليوم فقد اصبحت ادارة البلاد تتجاوز ما يملكه رجل واحد من الطاقات ، واصبح توحيد المناطق وتنظيم استثمار موارد المملكة يتطلب قيام اجهزة ثابتة ، اي : حكومة ودولة .

قرر ابن سعود توزيع الممل بين وزراء مسؤولين يعينون على رأس المصالح المختصة : الداخلية ، والمالية ، والشؤون الخارجية ، والزراعة ، والدفاع الوطني وسواها . وكانت العربية السعودية ، في ذلك الوقت ، بلداً قليل السكان ، وكان معظم شعبها فقيراً جاهلاً ، باستثناء المشايخ ولكن عددهم كان محدوداً وكانت كفاءتهم تبرز في ميادين القتال . لقد تغيب الملك عامين فعمت الشعب موجة من الاستياء ، مما اثبت بشكل قاطع ان الذين عهد اليهم بزمم الامور ما كانوا على مستوى المهمة ، لذلك اضطر ابن سعود لدى عودته من الحجاز الى اتخاذ تدابير زجرية بحق بعضهم . وادرك كم هم قلة اصحاب الجدارة والكفاءة لحل المشكلات التي تواجههم والسير بالبلاد في طريق التقدم ، ذلك ان ابن سعود قد اخذ على عاتقه تحقيق اهداف ثلاثة : توحيد شبه الجزيرة العربية وبعث الايمان الصحيح وتحويل شعب الجزيرة الى مستوى امة عصرية . لقد تحقق الهدف الأول تقريباً وكان الثاني في طريق التحقيق . واما الثالث فكان لا يزال في عالم الأمل .

توصل ابن سعود بحنكته المعروفة الى حلٍ لهذه الازمة - ازمة البحث عن الكفاءات - فولى وجهه شطر البلاد العربية الاخرى ليغرف من معين الوطن العربي الكبير ، فلم يكن يهمله ان يكون وزراؤه من « جنسيات » غريبة ما داموا عرباً مؤمنين ومن ارومة نقية . السنا نتكلم لغة واحدة ؟ ان انعدام النزعة الاقليمية لم يكن وليد الصدفة ، انما كان ينبع من اعتقاد راسخ لدى الملك عبد العزيز ، فالعربي ، في نظره ، سواء أكان من دمشق او القاهرة ، من

البصرة او بغداد ، ليس غريباً ابداً ، لكنه عضو في مجتمع قومي وديني واحد وان هذا المجتمع المتفكك المجزأ الان سوف يستعيد يوماً ما ، وحدته في ظل علم واحد .

فعبده الله الفضل رئيس المجلس البلدي بمكة ، كان من مواليد « عنيزة » في « القصيم » . وحافظ وهبة المستشار الاول للملك كان مصريا ، ويوسف ياسين مستشاره الخاص كان من اللاذقية من شمال سورية ، ورشدي ملجس معاونة رئيس الديوان الملكي كان فلسطينياً ، وفؤاد حمزة ، احد الادمغة البارزة ، الذي اشرف على تنظيم وزارة الخارجية وشغل منصب وزير مفوض في باريس في فترة ما ، كان درزياً من لبنان ، والدكتور رشاد فرعون سفير العربية السعودية الحالي في باريس والذي يعود الفضل الى منشأه السوري ، في تفهمه العميق لعقلية الفرنسيين وتفكيرهم .

واما الموظفون المعاونون فقد اختيروا من بين التجار والمدرسين من مختلف البلاد العربية بما في ذلك شرقي الاردن والعراق .

وكان قرار الملك في هذا الصدد من افضل القرارات اذ اتاح له ان يجمع حوله رجالاً متطورين اكفاء . ان ذلك الاختيار يفسر لنا النتائج المدهشة التي توصل اليها سواء في سياسته الداخلية ام في سياسته الخارجية .

٦٩

لقد عكف ابن سعود على تثقيف نفسه بنفسه ، لان هجرته من الرياض في الحادية عشرة حالت دون ارتياده المدرسة في انتظام ، وكم كان يتضايق عندما كان يعي حاجته الى بعض المعارف التاريخية والدينية خصوصاً في مناقشاته مع

العلماء الذين يكثرون في احاديثهم من ايراد الامثلة القديمة والآيات والاحاديث ،  
لذلك حرص الملك على تثقيف ابنائه وعلى العناية بتعليمهم عناية فائقة على ايدي  
اساتذة خاصين .

وغني عن القول ان اسرة كبيرة كأسرة ابن سعود ، كان لا بد لها من دفع  
ضريبة باهظة للموت ، ولا سيما في بلد ترتفع فيه نسبة الوفيات ، ولم تكن القواعد  
الصحية الحديثة معروفة فيه بعد . ففي العام ١٩١٩ توفيت زوجته من آل  
الشيخ بالحمى الاسبانية التي اجتاحت الجزيرة العربية ، فتألم الملك لذلك التألم  
شديداً .

وزاد في فداحة المصاب ان الوباء نفسه قضى على نجله البكر الامير تركي ،  
وهو بعد في العشرين من عمره فكانت هذه الفجيرة الثانية بعد فجيعة الاولى  
اعظم من ان تحتمل حتى خيل لابن سعود انه لن يستطيع الصمود حيالها .

تركي الطامح جاذبية وشجاعة ، تركي الذي عز نظيره في الصيد ، تركي  
الذي كان يضع فيه كل اماله وامانيه لن يكون هنا في اليوم الموعد ليكمل  
المهمة ويحمل الرسالة . فما جدوى هذه المعارك اذن ، وذلك الكفاح ما دام ابنه  
البكر المفضل قد توارى ولن يصيبه شيء من هذا كله ؟ لقد فكر ابن سعود  
باعترال العالم ، وهد الحزن المزدوج قواه وصحته .

وهكذا عاش الاعوام ١٩٢٠ و ١٩٢١ و ١٩٢٢ منزوياً في قصره ، لا  
يستقبل الا نادراً ، ولا يتكلم الا قليلاً ، مكرساً ايامه كلها للابتهاال والصلاة وترتيل  
القرآن ، ودراسة التاريخ الاسلامي .

ومرت المملكة في فترة ركود فيما كانت بريطانيا منصرفه الى محاولة اقامة  
الممالك الهاشمية .

ولكن صحة الملك تحسنت مع الزمن وتغلّبت قوة بنيته وحيويته على الحزن واليأس ، وبدأ « فهد الصحراء » يشعر بأن جراحه قد التأمّت وعاد يستطيع شيئاً فشيئاً طعم الحياة ، واستأنف الصيد والقنص ، واخذ يوزع حبه وحنانه اللذين كان يكتنهما لتركي على أبنائه الآخرين .

واصبح الامير سعود بن عبد العزيز ، بعد وفاة اخيه ولياً للعهد . وقد ولد في الكويت في شهر ربيع الأول للعام الهجري ١٣١٩ ( ١٩٠١ ) .

وعين ابن سعود نجده الثاني الامير فيصل نائباً للملك في الحجاز ، وهو يختلف اختلافاً كبيراً عن اخيه سعود ، فليس له سوى زوجة واحدة وهويتكلم الفرنسية والانكليزية بطلاقة ويمثل الاتجاه العصري والحيوي في المملكة . ولم يطل الوقت حتى اصبح وزيراً للخارجية ، ثم رئيساً لمجلس الوزراء ، وسرعان ما اشتهر بمعرفته واطلاعه على شؤون العالم .

وعين ابن سعود بعد ذلك بسنوات نجده السادس الامير منصور مراقباً عاماً للمعسكرات ووزيراً للدفاع الوطني . واما بقية ابنائه فكانوا لا يزالون في سن لا تمكنهم من تولي المهام .

٧٠

واحتفظ الملك لنفسه شخصياً ببعض المهام التي كان يوليها عناية خاصة ، وفي مقدمتها تطوير « الاخوان » وتحويلهم الى جيش عصري . وكان الاخوان قد حققوا تقدماً باهراً منذ الفترة التي استقرت فيها اول فرقة من المتطوعين منهم بقيادة « متعب » في « الاورطاوية » . واصبح جيش الاخوات يضم خيرة المحاربين ، واضحى مع الزمن قوة مرهوبة الجانب اثبتت قيمتها في « تربة »

و « الطائف » وفتحت مكة وجدة والمدينة وفرضت النظام في الحجاز ،  
ونجحت بسرعة في ضم « عسير » الى المملكة .

ولكن ابن سعود كان واقعياً جداً فلم يغال في تقدير قوته ، فإن جيش  
« الاخوان » الذي نشأ ونما جيشاً « صحراوياً » لم يكن كافياً لضمان سلامة  
الدولة السعودية وامنها . فانصرف الملك الى مضاعفة عدد افراده وتطوير  
اسلحته وتدريبه وانظمته .

لم يكن في استطاعة الاخوان ان يواجهوا جيشاً اوروبياً ، وهذا ما كان  
يعرفه ابن سعود ، وما جعله يتحاشى اصطدامهم بالقوات البريطانية . فنسبة  
عدد السكان في الجزيرة العربية ، لا تتيح ، قبل زمن طويل ، تعبئة عسكرية  
كثيفة . ولكن من الممكن تطوير الجيش السعودي ليكون افضل جيش في  
العالم العربي ، يستطيع ان يفرض احترام حدود بلاده ، وان يصد اي عدوان  
من الدول المجاورة ، بل وان ينزل خسائر هامة بأية قوة اجنبية تحاول احتلال  
البلاد عسكرياً ، وذلك بفضل سرعة تحرك القوات السعودية وتمرسها بحرب  
العصابات .

ان فضلى ميزات الاخوان ، تلك التي ضمنت لهم النصر ، كانت سرعة  
الانتقال ، والاكتفاء بالقليل ، والقدرة على التحرك دون اي اعتبار للمسافة التي  
تفصل بين قاعدتهم وارض المعركة . وكان لا بد من المحافظة على هذه الميزات عند  
تحويلهم الى جيش عصري . ولهذا كان ابن سعود يسعى الى تنمية قوتهم دون  
ان يرهقهم بمعدات ثقيلة لا جدوى منها ، او يختصر دائرة اعمالهم الحربية .

اشترى ابن سعود بنادق رشاشة وعدة سيارات مصفحة ومدفعية خفيفة  
واستدعى بعض الخبراء البريطانيين والامير كين لتدريب جنوده على استعمالها ،

واسس مدرسة للتدريب العسكري ، ونظم اركان حرب دائمة ، وأوفد كبار الضباط للتدريب في مصر والولايات المتحدة .

ولم تمض عملية التطوير دون متاعب ، إذ اصطدمت بتيار معاد قوي كان لا بد من التغلب عليه . فقد اعتبر خيالة الاخوان المخترعات الاجنبية الحديثة عملاً شيطانياً ورفضوا التخلي عن السيف والجل واستبداهما بالرشاش والسيارة قائلين : ان قوه الاخوان لا تعظم بالاسلحة الحديثة بل بترسيخ العقيدة وتقوى الله . وكان شأن الملك في ذلك ، شأنه في مشاريعه الاصلاحية كلها .

وما كان من السهل افهامهم بأن تقديرهم خاطيء ، ولكن ابن سعود تمكن كعادته وبطريقته الفذة من اجتياز هذه العقبة الى ما كان يرى فيه الخير والمصلحة .

وقسم ابن سعود بعد ذلك جيشه الى فئتين : فئة الاخوان العاملين ، وفئة الاخوان الاحتياطيين . وكانت التشكيلات العاملة مؤلفة من ستين الف رجل يخدمون من بين مليون ونصف مليون بدوي صالحين للخدمة العسكرية ويشكلون قوة دائمة حسنة التجهيز والتنظيم ، تتولى حفظ الامن الداخلي . واما القوات الاحتياطية فتقيم في « الهجر » ولا تعبأ الا في حالة الحرب .

وهكذا صارت للدولة السعودية الحديثة بعد الحرب العالمية الثانية ، قوة عسكرية جديرة بالاعتبار يمكن ان يرتفع عدد افرادها لدى الحاجة الى ثلاثمئة وخمسين الف رجل ، مجهزة بمعدات اميركية توفرت لها خلال الحرب بموجب قانون الاعارة والتأجير ، او من فائض الاسلحة التي خلفتها الولايات المتحدة في البصرة ، وكانت مشحونة في الاصل الى الاتحاد السوفياتي . كذلك زود الجيش السعودي بسلاح جوي مؤلف من عدة اسراب من الطائرات يقودها طيارون



من شبيبة البلاد ، بحيث أصبح هذا الجيش الذي يستعمل اللاسلكي والاسلحة  
الايوتوماتيكية والمصفحات قادراً كما يقول المعلق الحربي البريطاني  
« ليدل هارت »<sup>(١)</sup> على مواجهة اي اعتداء خارجي محتمل .

٧١

كانت العقبات تعترض ابن سعود في كل عمل من اعماله الاصلاحية الكبرى  
وفي طليعتها تحويل الجزيرة العربية الى دولة حديثة . فقد كان امن البلاد  
والدفاع عنها منوطين بتطور « الاخوان » وكان هذا التطور رهناً  
بتضاعف « الهجر » الزراعية غير ان هذه « الهجر » نفسها كانت مرتبطة ،  
بدورها من حيث وجودها وازديادها « بمشكلة المياه » .

أوليس من الغرابة تأسيس قوة وامن بلد ما على الزراعة ، في حين ان  
هذا البلد صحراوي في معظم مساحته ، ليس من نهر يرويه ولا يتلقى سوى  
سبعة سنتيمترات من المطر في العام ؟ .. فالجفاف كان يقف حجر عثرة في  
طريق ابن سعود ، ويشكل عقبة من شأنها ان تحطم ارادته . أمن المعقول تحدي  
الطبيعة ، ومحاولة تحويل المصير الذي خطه القدر للجزيرة العربية منذ الآف  
السنين ؟ انه لعمل اشبه بمحاولة وقف سير الشمس ..

ومع ذلك ورغم النصائح التي كان يسديها اليه المحيطون به ، فقد رفض  
الملك الاستسلام للهزيمة . ان البسود يتداولون طائفة من الروايات الغريبة عن

١ - مجلة « باري ماتش » في ٢ حزيران ١٩٥١ .

المياه ويتوارثونها ابا عن جد منذ اجيال . فهم يتحدثون عن حقبة بعيدة من الزمن كانت الجزيرة العربية خلالها مكسوة بالحدائق والغابات ، فيهن معظم الناس اكتافهم ويصفون تلك الروايات بالاساطير . ولكن ابن سعود كان مقتنعاً بأن تلك الاساطير لا بد ان تنطوي على شيء من الحقيقة .

ان عرب الصحراء مصرون على الاعتقاد بأن موارد مياههم وآبارهم متصلة فيما بينها بمسالك في جوف الارض ، ومما يروون عن ذلك ، حكايات كرة خشبية سقطت في احدى الآبار ثم عثر عليها في بئر اخرى تبعد مئات الكيلومترات ، وهم على اعتقاد بأن ارتفاع مستوى المياه في آبار الاقليم الذي يقطنونه دليل على ان السماء تطر في اقاليم اخرى بعيدة ، وكان الصيادون على سواحل الخليج العربي يغوصون بحثاً عن المياه العذبة ، تحت طبقة المياه المالحة ويخرجون من قاع البحر خصلات من وبر الخرفان او الجمال . اليس في ذلك الدليل على ان منابع قعر البحر متصلة باقنية جوفية بمنابع الداخل ؟ الا يحجب جفاف الرمال طبقة واسعة من المياه تكمن في الاعماق .

كانت هذه المعتقدات الشعبية تحت الملك على مواصلة جهوده ، واقترح عليه الشيخ حافظ وهبة استدعاء خبراء مائين امير كيين ، وابتسم الحظ مرة اخرى لابن سعود . وجاء المهندسون المائون من الولايات المتحدة يستكشفون البلاد ويؤكدون صحة حدس البدو البديهي ، وعثروا على كميات غزيرة من المياه ليس في بعض الآبار وحسب ، بل دفينة تحت الرمال في اماكن لم يكن يخطر ببال احد من قبل ان هناك مياهاً .

ان للبدو نوعاً من الحاسة السادسة التي تمكنهم من تحديد المكان الذي يجب ان يحفروا فيه ليجدوا المياه . انها الحاسة فيهم لا تخطى ، يستحيل على الاجنبي الحصول عليها مهما فعل ، وذلك ما جعلهم يؤكدون غالباً وجود المياه حتى في

اماكن لم يأت منها سبر الاغوار بواسطة الخبراء الاوروبيين والامير كين بنتيجة ايجابية، فما كان ينقصهم سوى الوسائل الآلية الحديثة لاختراق جوف الارض والوصول الى اعماقها البعيدة، فلما وفرها لهم المهندسون الاميركيون بلغوا طبقات مائية جوفية، كانوا يحسون وجودها ولا يستطيعون بعثها الى النور بسبب نقص الوسائل الفنية.

كان هناك في الرياض حتى ذلك الحين عدد من الابار الشحيحة. فحفرت بئر جديدة على عمق هائل بلغ مئة وعشرين متراً بعرض ثلاثين متراً.

« لن انسى ابداً ذلك اليوم الذي جاء فيه الملك لزيارة ورشتنا ».

ذلك ما قاله المهندس « كنيث ادواردز » الذي كان يشرف على اعمال الحفر، ثم يتابع قائلاً:

لقد انحنى على حافة البئر وحدق في طبقة المياه التي كانت تتألق في الحفرة القائمة، فالماء هنا اثن من الذهب، انه عصب الحياة الذي يمكنه من تحقيق مشاريعه وتبديل وجهه مملكته شيئاً فشيئاً. ولما انتصب الملك كان وجهه الصارم عادة بادي الانفعال، وكانت عيناه مغرورقتين بالدمع، فربت على كتفي وقال لي بصوت متهدج:

— لقد حققت عملاً باهراً يا « ادواردز » فابق هنا بضع سنين فنقهر الصحراء ونحوها الى رياض غناء<sup>(١)</sup>.

١ - « المجلة الاميركية » تشرين الاول ١٩٤٧ .

واكتشفت على بعد اربعين كيلو متراً من جدة طبقة من المياه الجوفية اتاحت - بالاضافة الى مياه وادي فاطمة - تزويد المدينة والمناطق المجاورة بالمياه الجارية فسالت المياه في بلد لم تع ذاكرة الانسان رؤية الماء فيه من قبل ، الا مباعاً في قرب او مخزوناً في صهاريج .

واثارت هذه الاكتشافات حمى العمل فأمر ابن سعود بترميم الابار المهجورة ( اعيد ترميم وتعميق اكثر من مئة بئر في منطقة نجد وحدها ) ثم انشئت الاقنية والمجاري عبر الصحراء ، بإشراف وزير المالية الشيخ عبد الله السليمان ، وبنيت السدود لحصر مياه « جبل الطويق » ، اي سلسلة الجبال التي تعتبر العمود الفقري لأواسط شبه الجزيرة العربية . ثم حفرت شبكة من الابار الارتوازية بلغ عمق بعضها مئتين وخمسين متراً ، وكانت حصيلة هذه الابار كافية لارواء ٤٠٠ الف شخص واكثر من مليوني رأس من الماشية في كل عام .

وسرى نبأ حفر آبار مياه جديدة سريان النار في الهشيم بين قبائل الصحراء فاذا بمئة الف بدوي يدفعون امامهم مئة وخمسين الف جمل ، ومئة الف عنزة ، ومئتي الف خروف ، يظهرون فجأة وينحدرون نحو موارد المياه في موكب حافل بالبهجة ، لارواء مواشيهم . فلما ارتووا وسقوا مواشيهم وملاوا قريهم عاد معظمهم الى النجود التي هبط منها ، ولكن بعضهم بقي حيث الماء واستقر في الاودية<sup>(١)</sup> .

لقد اصبح بالامكان ، بفضل المياه المتدفقة ان تنتشر الحدائق وواحات النخيل والمزارع ، وان يتبدل وجه الحياة كلياً في تلك المنطقة من العالم .

١ - « القلق في العالم العربي » جريدة « الاورور » باريس ٢٨ اب ١٩٥١ .

واستقدم الملك بعد ذلك مهندسين زراعيين من الولايات المتحدة وطلب منهم اعداد تقرير شامل عن امكانيات الزراعة في البلاد . فطاف هؤلاء الخبراء مختلف ارجاء المملكة لاستكشاف مواردها وتحديد طاقات الانتاج فيها ، ثم قدموا لابن سعود بعد ستة اشهر تقريراً ساراً . وكان التقرير يقع في مئة صفحة كل واحدة منها اشد تفاؤلاً من الاخرى . ومما قاله الخبراء مثلاً ان في وسعهم تحويل ٢٦ الف هكتار في اقليم الاحساء وحده الى اراض زراعية ومضاعفة هذه المساحة خلال ثلاث سنوات . واما موسم الفاكهة فيمكن ان يزداد في سرعة حتى ثلاثة او اربعة اضعاف ، وكذلك انتاج العلف . وينتهي التقرير بتأكيد جازم : « ليس في الواقع حدود للامكانيات الزراعية في شبه الجزيرة العربية » .

وكانت هذه النتائج ابعد مما كان يحلم به الملك ، فقرر الانتقال فوراً الى التحقيق وركز هدفه الأول على الاكثار من عدد المزارع وزيادة قدرتها على الاستيعاب ووصل بعضها ببعض بسلسلة من الحدائق والبساتين .

ولا عجب اذا كانت بساتين الرياض موضع عنايته الخاصة . ويقول الكاتب « جيرالد دوغوري » الذي زارها في العام ١٩٣٥ انه دهش ، منذ تلك الحقبة ، بعظمتها النادرة . كان هناك ، على طول مجرى المياه المتدفقة في وادي حنيقة جنائن من اشجار المشمش والرمان ، تفصل بينها خمائل مخضوضرة نضرة . وكانت الجمائم تتطاير من هنا وهناك ، تسبح في اشعة النور ، او ترسم الدوائر حول ذرى النخل المذهبة <sup>(١)</sup> . ولم تكن هذه الحدائق المزهرة على مدار العام الوحيدة

١ - ذي اميركان ماغازين - المجلة الاميركية - تشرين الارل ١٩٤٧ .

من نوعها ، بل كان هناك نظيرها في « السلايل » و « مقرن » و « سلمى » و « ليلي » و « الدلم » و « منفوحه » و « الحوطة » و « المجمع » و « الجلاجل » المترامية على سفوح جبل الطويق تحت اقدام القصور المحصنة القديمة التي فتحها عبد العزيز في عهد شبابه ، والتي يرجع بعضها الى عهد سعود الكبير .

وانشأ ابن سعود مزرعة نموذجية ، في « الخرج » يقضي فيها معظم اوقات فراغه بعيداً عن مشاغل الدولة ، وهي واحة طبيعية تبلغ مساحتها ١٢ كيلومتراً مربعاً وتقع على مسافة خمسين كيلومتراً من الرياض وكان الملك قد اسكن في هذه المزرعة فريقاً من قدماء « الاخوان » مع عيالهم فعهد الى احد الخبراء الامير كين ( ادواردز ) بإدارتها وتحويلها الى حقل تجارب تسير على هديها مزارع مماثلة اخرى .

استقدم « ادواردز » اربعة اختصاصيين من تكساس ، وانشأ قناة للري من الاسمنت يبلغ طولها ١٨ كيلو متراً تغذيها اربع مضخات بدفق من المياه يقدر بخمسة وثلاثين الف لتر في الدقيقة ، مما اتيح ري مساحة تبلغ ثلاثة الاف هكتار بصورة دورية . وفاقته النتائج كل تقديرات الخبراء . فما ان رويت الارض الظمأى منذ قرون ، حتى انتفضت من سباتها الطويل وتفجرت من احشائها محاصيل عزت نظيرها .

ويصف « ادواردز » كيف ان كل شيء كان ينبت بوفرة ، وكأنا بشكل عفوي رغم العواصف الرملية والرياح السموم : الحلفاء والقمح والشعير والبنندورة ، والجزر والثوم والبطيخ ، والبادنجان ، واذا بحقول القمح تعطي ١٧ قنطاراً في كل هكتار مقابل اربعة قناطير ونصف القنطار في تكساس ويمكن للمزارع ان يعمل الشجل في حقول القنطاري للعلف الأخضر عشرين يوماً بعد الزرع مما يوفر ١٨ موسماً في العام ، فيما لا تعرف مزارعنا سوى اربعة او خمسة مواسم في العام .

ولما بلغ المركز الزراعي في « الخرج » ذروة النجاح ، طلب الملك الى الخبير الاميركي وضع مخطط لانشاء وزارة للزراعة في البلاد فكانت اول مؤسسة من هذا النوع عرفتها الجزيرة العربية عبر تاريخها المديد .

٧٣

وراح الملك ، بلا كلل ، يدفع الجزيرة العربية في طريق التقدم مثيراً حماسة البعض ، معرضاً عن انتقادات البعض الآخر ، وباعثاً النشاط في نفوس المحيطين به محاولاً ان يعكس على نفوسهم الحيوية التي تفيض في نفسه الوثابة .

ولكن هذا الاندفاع الخلاق كان بعيداً عن ان يحظى بالتأييد الجماعي . وكان المتزمتون يتساءلون : ماذا يريد الملك ؟ الا يمكنه ان يكتفي سعيداً هانئاً بحكم المناطق التي اخضعها لسلطانه ، وما الفائدة من هذه البدع التي يريد فرضها على الجزيرة العربية : السيارة ، والطائرة ، والهاتف ، واللاسلكي ؟ وانطلقت الالسن بالهجاء ، ولم يطل الوقت بهم حتى بدأوا يتهامون فيما بينهم مستغربين متوهمين بان الملك يسوق البلاد الى الضياع .

ولكن هذه المعارضة ، لم تكن في الواقع ، لتقلق ابن سعود ، فلقد اندفع في سبيله وما من عقبة يمكن ان تعترض هذا السبيل ، ولم يابه لانتقادات المنتقدين بل استعمل دهاءه للتغلب على كل معارضة لافئاع اولئك المنتقدين .

وكان الملك يحلم بانشاء شبكة من الخطوط الحديدية ، ولكن الحلم شيء وتحقيقه شيء آخر اذ لم يلبث ان اصطدم بعقبة صعبة التخطي اكثر من عقبة شح المياه : اين يجد الاموال اللازمة ، فوارد الدولة تعتمد بالدرجة الاولى على الرسوم التي تجبى من الحجاج والتي لم يكن ابن سعود مرتاحاً لجبايتها لانها تضي



على حماية الديار المقدسة طابعاً تجارياً بأنفه . ولم يكن وارداً بحث زيادتها وتكرار السابقة التي عمد اليها الحسين . ومع ذلك فقد كانت عائدات الحجاز كافية لتأمين احتياجات الحجاز ، ولكنها كانت بعيدة عن تغطية موازنة الدولة السعودية ، فكم بالاحرى مستلزمات مخطط انشائي كبير . فمن اين يأتي بالمبالغ الضخمة لشراء الاسمنت ، والفولاذ ، والمعدات والآلات ، وكل ما يتطلبه تحويل الجزيرة العربية الى دولة حديثة في بلاد لا تصنع شيئاً ، ولا تملك اية طاقة ويسيطر عليها البؤس بشكل رهيب .

ومرة اخرى احسَّ ابن سعود انه حيال حاجز لا يخترق ، وحدود لا يمكن تخطيها .

ولكن الحظ لم يفارقه . وفاجأه بعطاء ابن من وفرته اغرب ما في حكايات الف ليلة وليلة .

٧٤

حوالي خريف العام ١٩٢٠ كان « ماجور » بريطاني يدعى « فرانك هولمز » يقوم بسبر الاغوار في منطقة « البحرين » لحساب احدي الشركات البحرية البريطانية ، فتوصل الى اكتشاف غير متوقع اذ وجد نفسه امام طبقة صغيرة من النفط . والبحرين بمجموعة من الجزر في جنوبي الخليج العربي على بعد ٢٢ كيلومتراً من ساحل الاحساء يحكمها شيخ تربطه بالامبراطورية البريطانية معاهدة حماية شأن سائر الامارات الصغيرة المجاورة .

تقدم « هولمز » من شيخ البحرين بطلب امتياز للتنقيب في تلك المنطقة

فحصل عليه مكتمل الشروط القانونية وعاد الى لندن فعرض الامتياز على عدد من شركات النفط ولكن هذه الشركات وجدت القضية غير جديرة بأن تشير اهتمامها . فنفت الجزيرة العربية لم يكن سوى اسطورة ، ان لدى بريطانيا في كل الاحوال ، ما يكفي من نفط ايران والعراق فلا داعي للبحث عن موارد جديدة .

ولم يدر « هولمز » ماذا يفعل فباع امتيازه بأجنس الاثمان من شركة اميركية صغيرة « غولف اويل كومباني » - شركة نفط الخليج - التي كانت تستثمر بعض الابار على سواحل الخليج العربي ( ربيع ١٩٢٥ ) وتوقفت القضية عند هذا الحد ، ولم تعد موضع بحث . غير ان هذا لم يمنع بعض الاوساط المالية من الاهتمام بها .

ففي اواسط حزيران ١٩٣٠ نزل في ميناء الهفوف ، في الاحساء ، فريق من البدو في مظهر غريب ، يرتدون العباءة ويعتمرون بالعقال ولكنهم ما كانوا ينطقون بكلمة عربية واحدة ، ويبدلون قصارى جهدهم حتى لا يثيروا اي انتباه ... فأي نشاط سري يمارسون اذن ؟ لقد اصدر الملك اوامره عندما أبلغ نبأ وجودهم بفتح تحقيق في الأمر .

فجاء جواب شرطة الاحساء يؤكد انهم عملاء سريون لدولة اجنبية ، وان مظهرهم يخفي طبيعة مهمتهم . فقرر الملك القاء القبض عليهم والتحقيق معهم ثم علم فجأة انهم ليسوا في الواقع الا جماعة من الخبراء الاميركيين جاؤوا يستكشفون ما اذا كانت منطقة الاحساء تنطوي ، هي الاخرى ، على النفط . فأعاد ابن سعود النظر في قراره وكتب الى حاكم الاحساء ان يدع اولئك الشبان وشأنهم لينقبوا كما يحلو لهم . وكان هذا القرار من اسعد القرارات التي اتخذها الملك في حياته (١) .

١ - يدعي البعض ، وهو امر غير مستبعد ، ان الملك ابن سعود بدل رأيه بشأن هؤلاء =

قام « البدو المزيقون » بسلسلة من اعمال سبر الاغوار اثبتت لهم بالنتيجة ان الطبقة النفطية التي تمتد من القفقاس الى الخليج العربي مارة بايران والعراق ، تجتاز البحر حتى تصل الى قلب شبه الجزيرة العربية . ما هي كمية الذهب الاسود الكامنة تحت رمال الصحراء ؟ كان يتعذر الجواب على هذا السؤال بالتدقيق في ذلك الحين . ولكن مما لا ريب فيه انها كميات ضخمة ، وكانت العينات المستخرجة من اجود الانواع .

وكان لهذا النبأ - كما هو متوقع - ضجة في اوساط الغرب المالية اعنف من الضجة التي اثارها اكتشاف « هولمز » قبل سنوات . « يبدو انه تم العثور على النفط في الجزيرة العربية » وتطايرت هذه العبارة على الالسن وترددت في لندن ، امستردام ونيويورك وباريس ، وهرع الى الرياض موفدو اعظم شركات النفط امثال « رويال دوتش » و « شل » و « ستاندارد اويل » و « المفوضية السوفياتية للمحروقات السائلة » اميركيون ، وانكليز ، وهولنديون ، وارمن والمان وروس ويابانيون ، كانوا يتسابقون في اروقة القصر ويلحون في طلب المقابلات . وتراكت الطلبات لدى وزير المآل . كل يريد الوصول اولاً ليقطع الطريق على منافسيه ، والجميع - حسب قوتهم - ما كانوا يحملون الا بسعادة الشعب العربي ، وقد أخذوا فجأة بحب خالص للجزيرة العربية . ولكن ابن سعود لم يكن بالذي يخدع بأقوالهم المعسولة ، فأبقاهم ينتظرون عدة اسابيع . ولما لفت بعض المقربين نظره الى ان هذا التصرف مخالف لما اشتهر به الملك من حسن ضيافة قال لهم باسمياً :

- دعوني اتصرف . اني رئيس ديني ، واعرف كيف يجب ان يعامل هذا النوع من الحجاج .

= بناء على تدخل المهندس كنيث ادوارد الذي كان يشرف على المركز الزراعي في الخرج والذي كان ابن سعود يوده كثيراً . كان ادوارد من ولاية تكساس ، وكذلك المنقبون .

ورفض الملك رغم العروض المسرفة في الاغراء ان يبيع اية قطعة من اراضي المملكة ، فهو يعتبر بلاده ملكاً لشعبه مثلما هي ملك له ، وان ليس له الحق في التفريط بأي جزء منها . ولم يوافق الا على التأجير ، لمدة محدودة ايضاً ، وبشرط ان تؤول اليه كل المنشآت والمعدات بعد انتهاء امد الاتفاقية .

كان ابن سعود بحاجة ماسة الى المال لمتابعة برنامجه الاصلاحى ، ويمكن ان تصبح قضية النفط هذه مورداً هاماً ، ولكنه ظل شديد الحذر - وشديد الريبة ايضاً - بحيث لا يقيد نفسه قبل ان يلمّ بالامور من جميع نواحيها .

وقرر في النهاية التعامل مع شركة صغيرة « غولف اوف كومباني » وهي نفسها التي كانت قد اشترت امتياز « هولمز » الذي اتينا على ذكره .

وعندما سئل الملك عن السبب الذي جعله يفضل هذه الشركة الاميركية على سواها اجاب :

- ان الشركات الاميركية تتمتع باستقلال كبير ازاء حكومتها ، كما ان الولايات المتحدة بعيدة عن البلاد العربية ، وليست لها كالدول الاوربية اهداف سياسية فيها . ثم ان بعض المواطنين الاميركيين ادوا لي حتى الآن خدمات لا تقدر ، وآمل ان يفعل هؤلاء مثل ذلك .

٧٥

ورثت شركات النفط عهد السادة الاقطاعيين من الفرنجة الذين استقروا في الشرق زمن الحروب الصليبية ، واصبحت هذه الشركات كخلايا النحل تحوم حول الخليج العربي : الشركة الايرانية - البريطانية ، شركة نفط العراق ،

شركة شل ، شركة نفط الكويت ، شركة ارامكو وستاندر اويل في نيو جرسى وكاليفورنيا ، وشركة نفط تكساس ، وسوكوني فاكوم ، تضاف اليها شركات اخرى تعرف « الذهب الاسود » دون ملل من اعماق الارض . وكانت عظمة هذه الشركات صارخة في آبارها العميقة ، ومصافيهـا البراقة في وهج الشمس واسطول ناقلاتها الذي يزرع ، ليل نهار ، الطريق المائي الذاهب من شط العرب الى المحيط الهندي .

هذه الشركات العملاقة اليوم لم تكن في مستهل عهدها كذلك . بل كانت متواضعة تعاني المتاعب ثم تطورت خلال سلسلة من الازمات والمنافسات والمنازعات التي دارت صامته مقنعة في مجالس الادارة ، وبين مكاتب الوزارات احيانا ، او دامية مفجعة احيانا اخرى .

ولقد عرفت « حرب البترول » الدائرة الرحي منذ نصف قرن في هذه المنطقة من العالم بعض فترات من الهدنة ، ولكنها لم تعرف السلم ابداً ، ولا بد من عودة الى الورااء لاستكشاف اسباب تصادم هذه المصالح والمطامع .

حوالي عام ١٩٠٦ اكتشف احد رجال الاعمال البريطانيين ( ارسى ) لنفط في ايران فحصل من الشاه على امتياز لاستثاره وأسس برؤوس اموال بريطانية « شركة النفط الايرانية - البريطانية » . ثم حصلت شركة « روبل دوتش » بشخص رئيسها « سير هنري ديتيردينغ » من السلطان عبد الحميد وبواسطة شخص ارمني يدعى « كالوست كولبانكيان » على حق استئجار البترول في منطقة الموصل ، وتأسست في اعقاب ذلك شركة عالمية لاستخراج النفط باسم « شركة النفط التركية » التي حصلت الشركة الايرانية على خمسين بالمئة من سهمها وحصل المصرف الالماني « دوتش بنك » على خمسة وعشرين . واما الربع الباقى فكان من حصة جماعة من الممولين البريطانيين والهولنديين والارمنى

كولبانيان ، وهكذا وضعت بريطانيا ، بفضل هذا التنظيم ، يدها على بترول الشرق كله .

ولكن تغير الاوضاع السياسية والاقليمية التي نجمت عن انتصار الحلفاء في الحرب العالمية وعن انهيار الامبراطورية العثمانية في العام ١٩١٨ آلت الى تبديل جذري في هذا التنظيم ، فحصلت فرنسا بموجب معاهدة « سان ريمو » سنة ١٩٢٠ ، على حصة الالمان في شركة النفط التركية اي ٢٥ ٪ ، وبقيت بريطانيا مسيطرة على الثلاثة الارباع الاخرى .

ولم يشأ رجال الاعمال البريطانيون ان يتركوا دفعة الامور للصدف ، فعمدوا سلسلة من المؤتمرات مع ابرز شركات النفط في الولايات المتحدة الاميركية ، اسفرت عن موافقة هذه الشركات على الا تتدخل في قطاع الشرق الاوسط ، وزيادة في الاطمئنان اخذت وزارة الخارجية البريطانية ، ذات النفوذ القوي في البلاد العربية ، وعوداً تعهد بموجبها حكام العرب ، من هاشميين وشيوخ ساحل الخليج العربي ، الا يمنحوا اية امتيازات بترولية لشركات او حكومات غير بريطانية . وظل ابن سعود ، الذي يحكم صحراء قاحلة .. بعيداً عن هذه المفاوضات .

ولما ركن البريطانيون الى سلامة مركزهم الاحتكاري بالنسبة الى الاميركيين والعرب ، اتجهوا صوب شركائهم الفرنسيين والهولنديين وحملوا حكومتي فرنسا وهولندا على توقيع اتفاق تفران فيه بأنه لا يحق - الا بناء على اتفاق جماعي - لأية دولة اشتركت في اقتسام الامبراطورية العثمانية ، ان تنشئ حقولاً جديدة للنفط ، او تزيد من استثمار الآبار القائمة في محيط يشمل الجزيرة العربية والعراق وسورية وفلسطين وشرقي الاردن .

ولم تكتف الشركات البريطانية بهذا القدر من الاطمئنان ، بل انشأت هيئة

لها فيها اكثرية الاصوات ، لتحديد بعض اوضاع النفط ولا سيما تلك التي تتعلق  
باسعار المبيع وكميات الانتاج ، بشكل لا يمكن تعديله الا باجماع اعضاء الهيئة ،  
وبالتالي فالكفة البريطانية هي الراجحة دوماً .

المصلحة البريطانية في دنيا البترول ، حسب اربابها ، بعد هذه التدابير  
والاحتياطات ، انها اصبحت قلعة محصنة ! .. هذا ما جعل الانكليز ينتفضون  
غضباً لدى سماعهم سنة ١٩٢٦ بان الامتياز الذي منحه شيخ البحرين للماجور  
« هولمز » قد انتقل الى شركة اميركية - شركة نفط الخليج - وهي نفسها التي  
حصلت فيما بعد على امتياز مماثل من ابن سعود . فعلت الضجة في الاوساط  
المالية اللندنية . ولكن حاكم البحرين رد على اعتراضات حكومة صاحب  
الجلالة البريطانية بحجة معقولة : فهو لم ينكث بالعهد لانه تعامل مع شركة  
مسجلة في كندا ، وقد كانت او لا تزال جزءاً لا يتجزأ من الكومنولث  
البريطاني .

واتخذت الشركات البريطانية على الاثر سلسلة من التدابير الاحتياطية للحد  
من خطورة ذلك التسرب الى منطقة نفوذها فحملت « شركة نفط الخليج » على  
الانضمام الى الهيئة البريطانية والتقييد بانظمتها ، فلما طلبت هذه الشركة الى  
مجلس « الهيئة » الاعلى منحها حصة اكبر من الانتاج لتتمكن من استثمار نفط  
الاحساء ( التي كانت اخذت امتيازها رأساً من ابن سعود ) ، اصطدم طلبها  
بالرفض القطعي من قبل المجلس لأن الشركة البريطانية كانت تريد ان تتفادي  
باي ثمن - مزاحمة تؤدي الى انخفاض سعر النفط في الاسواق العالمية . وكانت  
تنوي تجميد نفط الجزيرة العربية .

لقد قررت بأن نفط الاحساء محكوم عليه بأنه لن يبصر النور .

ولم يكن باستطاعة الامير كيين ان يبقوا في موقف اللامبالاة حيال هذا



الوضع ، فاحتجوا ضد هذا الاحتكار وضد هذا الحق الذي يدعيه البريطانيون في وضع يدهم على بترول الشرق باجمعه . وبعد مفاوضات شاقة توصلوا في سنة ١٩٢٨ الى عقد اتفاق سري بتعديل الاتفاقية التركية للبترول ، واصبح اسمها شركة نفط العراق . فحصلت اميركا بموجب هذا التعديل على ٢٣،٥٪ من اسهم الشركة الجديدة واخذت فرنسا النسبة ذاتها واحتفظت بريطانيا بنسبة ٤٨٪ وبقيت الخمسة الاخيرة من نصيب الارمني ( كولبنكيان ) الذي اصبح مواطناً انكليزياً .

غير ان هذا التعديل ، في الحقيقة ، لم يحمل اي تغيير لسياسة بريطانيا الاحتكارية وتجميد بترول الجزيرة .

ولما اشتد الضغط البريطاني على عنق « شركة نفط الخليج » وعجزت عن تغطية نفقاتها ، ولم تتوصل الى استثمار نفط الاحساء ، استسلمت لليأس ولم تجد مفرأ من بيع امتيازها سنة ١٩٣٣ الى شركة اميركية اخرى هي « شركة ستاندر اويل اوف كاليفورنيا » بمبلغ خمسين الف دولار .

ولما مثل مبعوث شركة كاليفورنيا امام مجلس ادارة شركته سأله الرئيس بلهجة كلها ريبة :

— ما هي حصيلة هذه الاتفاقية ؟

فأجاب :

— كتلة هائلة من الرمال والذباب والحرارة ، وكتلة تماثلها من الثقة .

وفي عام ١٩٤٣ اي بعد ذلك بعشر سنوات ، صرح السيد « هارولد ايكز » ناظر الداخلية في حكومة روزفلت امام الكونغراس الاميركي :

– ان شراء شركة ستاندر اويل اوف كاليفورنيا لامتياز استثمار بترول الجزيرة العربية ، هو اعظم صفقة تجارية في العصر الحديث .

كان ذلك هو الصدع الثاني في السياسة البترولية البريطانية ... صدع لم يلبث ان تحول سريعاً الى ثغرة مفتوحة .

ذلك لأن « شركة نفط كاليفورنيا » لم تكن مقيدة بقوانين الهيئة البترولية ولا خاضعة للقيود التي فرضها الانكليز ، بل كانت متحررة من حدود «الكوتا» ومن « فيتو » المسيطرين على شركتي نفط العراق وايران ، فكانت لها المبادرة في حفر آبار جديدة في الاحساء وتطوير هذه الآبار والسعي لايجاد اسواق لتصريف انتاجها في الشرق الاقصى (١) .

ولم يكن هنالك في الواقع سوى شركة اميركية واحدة تمتلك سوقاً لتصريف البترول في الهند هي « شركة نفط التكساس » فاتفقت مع شركة كاليفورنيا على تأسيس شركة جديدة سنة ١٩٣٦ باسم « شركة نفط كاليفورنيا العربية » ( ارامكو ) اخذت على عاتقها استثمار نفط الاحساء ودخلت في منافسة جديدة مع الشركة الايرانية وشركة « شل » ، على الاسواق الاسياوية .

واحتجت الحكومة البريطانية لدى واشنطن على ما وصفته بالخرق الفاضح لاتفاق ١٩٢٨ واقنعت الحكومة الفرنسية بدعم احتجاجها ، ولكن نظارة الخارجية الاميركية اصمت اذنيها دون سماع الاحتجاج .

وكان ذلك بدء تحرير النفط العربي من طوق الهيئة فارتفع الانتاج السنوي من ١٧٤ الف طن في العام ١٩٣٥ الى ٦٤٠ الف طن في ١٩٣٦ ثم بلغ مليوناً

١ – تفاديا للاصطدام بالشركات الاميركية الاخرى التي كانت تبيع انتاجها في اوروبا .

ومئة الف في العام ١٩٣٧ ومليون في طن في العام ١٩٣٩ ، وثلاثة ملايين في ١٩٤١ . وانتصب عدد من المصافي على طول الساحل ، وانشئت كيلو مترات من الارصفة ، وعدد من المضخات والخزانات والاحواض ، وضجت الحياة في منطقة من العالم كانت تعيش في صمت لا تعكره سوى اناشيد صيادي اللؤلؤ . واجتذبت الاجور العالية في صناعة البترول قسماً هاماً من السكان فأصبحوا يعملون في تصفية وتخزين وتعبئة السيول غير المنقطعة من الذهب الاسود المتدفق في الصحراء . وارتفعت تبعاً لذلك موارد الدولة السعودية .

ان عهد الرفاهية لم يبدأ بعد ، ولكن طلائعه بدأت ... لقد اصبح بالامكان تخطي حدود الفاقة والحرمات .

\*

\* \*

وكما كانت الحلفاء والحنطة تنبتان على خطوط المياه، كذلك كانت شبكة الطرق الحديدية ، والطرق الاخرى تتطور في جوار البترول ، فامتدت الطرق الفسيحة المعبدة على طول الساحل واخترقت شيئاً فشيئاً اواسط البلاد .

وجاء الى الجزيرة العربية خبراء اخرون ، ليؤكدوا ان جوف الصحراء ينطوي على اغنى الثروات ، فهو لا يحوي النفط فحسب ، بل الحديد والنحاس والفضة والكروم والذهب ايضاً ، واستت جماعة من الممولين من اهل نيويورك في العام ١٩٣٧ شركة اطلقت على نفسها اسم « رابطة المناجم في العربية السعودية » لاستغلال ثروات الحجاز المعدنية . واستؤنف العمل في منجم «البحران» الذي ظل مهجوراً طوال قرون ، والذي يعتبر اقدم منجم في العام اذ كان يستغل منذ عهد الملك سليمان ، فأصبح مصدر الذهب لوزارة المالية السعودية .

وكان الملك حريصاً على ان تؤول هذه الثروات كلها الى البلاد عندما ينتهي مفعول الاتفاقات والمعاهدات المعقودة مع الشركات الاجنبية حوالي عام ٢٠٠٠.

وعني الملك عناية خاصة بتثقيف الشعب . فالارض بكر في هذا المجال . غير انه لقي استعداداً وتجاوباً ليسا غريبين على امة بنت قصوراً كقصور بغداد وقرطبة ، وانجبت قادة حروب امثال ابي عبيدة وموسى بن نصير ، وشعراء كالمتنبي ، ورياضيين كثابت بن قره والحوارزمي ، وائمة في العلوم والفلك كابن سينا وابن رشد .

وما خفي على الملك انه لن يصل بالشعب طفرة واحدة الى المستوى الذي بلغه اسلافه بل كان همهم بالدرجة الاولى تزويد الجيل الجديد بالعلم والمعارف الفنية والمهنية الكافية لتحمل المهام التي يعدها له المستقبل القريب . وما تبقى فيتحقق بعد ذلك بمعونة الله .

وكان الملك قد خص مركز البحوث الاسلامية في مكة ببالغ هامة تأتية من موارد الحج ، فحول قسماً من موارد الجديدة لانشاء المدارس الابتدائية ومراكز التدريب المهني ، واصبح تطوير الثقافة العامة شغله الشاغل ، ولم يدع فرصة تمر الا وشدد فيها على اهمية ذلك التطور . فاذا لم يستطع العرب ان ينشئوا مجتمعاً على مستوى كافٍ من العلم والرقى ، فإن وريثه سيجدون انفسهم مرغمين على تجديد امتيازات الشركات الاجنبية فتظل سيطرتها بشكل يهدد استقلال البلاد ويجعله حلاً من الاحلام .

ففي الخطاب الذي القاه الملك في تشرين الثاني ١٩٣٨ في المركز الزراعي في « الخرج » بمناسبة الذكرى الخامسة لتأسيسه ، قال : « ان التطور الفني والصناعي في الجزيرة العربية يجب ان يسيرا جنباً الى جنب مع الثقافة المهنية للشعب ، والا

فسنكون دائماً مرغمين على الاستعانة بالاجانب « ووضح الملك كيف ان الحرية السياسية مرتبطة بالحرية الاقتصادية . »

وقال ايضاً : « ان الشعب العربي كان دائم الحذر من الاجنبي ، لان الاجنبي كان دوماً عنصر ضرر له ، وقد سرنى ان الاحظ منذ بعض الوقت تبديلاً في هذه العقلية ، وان اشهد نشوء علاقات جديدة بين النخبة المثقفة من ابناء البلاد وبين الخبراء الاجانب ، وما ذلك الا لانهم يرون فيهم اليوم مرشدين يحررونهم من الجهل ويشقون لهم طريق مستقبل افضل . وليعلم اصداقنا الغربيون ان بقاء صداقتنا منوطة باحترامهم تقاليدنا وعاداتنا ومعتقداتنا . لقد فتحنا لهم ابواب بلادنا بوصفهم مدرسين لا اسياداً ، وضيوفاً لا غزاة . فالجزيرة العربية شاسعة بحمد الله ، وكافية لارضاء اي مطمح ما خلا واحداً هو النيل من سيادتها ... هذه السيادة التي كلفتنا غالياً جداً والتي نعزبها ونفضل ان نموت فقراء على التفريط بشيء منها . »

لقد بين الملك في هذا الخطاب نهجه الوطني حيال الدول الاجنبية التي حظيت بامتيازات للعمل في بلاده . وهو نهج لم يقابله الامير كيون الذين استمعوا اليه بأي استياء . انهم ليقدرّون هذه النزعة الاستقلالية التي لازمت جهودهم في بناء العالم الجديد . وكم من وجوه الشبه بين معركة الحياة التي يخوضها البسود اليوم وماضيهم . فقد كانوا ، هم انفسهم ، في الماضي رواداً بؤساء لا رأس مال لديهم سوى قوة سواعدهم وايمانهم بالله . وقد اضطروا هم ايضاً للدفاع عن حريتهم الناشئة ضد مطامع الدول الاكثر ثراء وتطوراً .

وهكذا التقى في بناء المملكة الحديثة في الجزيرة العربية عالمان مختلفان .

وفي خلال ذلك ، كانت السحب القاتمة تتجمع في سماء اوروبا ، حتى اندلعت نيران الحرب العالمية الثانية قبل نهاية العام ١٩٣٩ .

لقد دهمت الاحداث ابن سعود على حين غرة سنة ١٩١٤ . اما هذه المرة فكان على اتم استعداد . عام ١٩١٤ كان فقيراً اعزل ، واما اليوم فسبيل للمقارنة بين ما هو عليه من بأس و ثراء ، وبين ما كان عليه عند نشوب الحرب العالمية الاولى . لم يكن في العام ١٩١٤ سوى امير قليل الاهمية ذي سلطة محدودة مغفولة برمال الصحراء الوسطى ، اما هذه المرة فانه ملك يبسط سلطانه على قسم من سواحل البحر الاحمر والخليج العربي ، وذو سلطة اعترفت بها رسمياً الدول الكبرى وله بعثات دبلوماسية في ابرز عواصم العالم .

عباً الملك جيش « الاخوان » وحشد قواته باتجاه الشمال والغرب ، بشكل يمكنه من التدخل في عدة اتجاهات في وقت واحد ، وراح يرقب مجرى الاحداث بدقة وانتباه . لقد كانت الحرب العالمية الاولى الضربة القاضية على الامبراطورية العثمانية ، فهل تكون الحرب العالمية الثانية بداية انهيار الامبراطورية البريطانية؟

وكما حدث في العام ١٩١٤ فإن الحرب التي اندلعت في بولونيا وسهول « الفلاندر » الفرنسية لم تلبث ان لفت الشرق . فقد احتل الالمان على التوالي في العام ١٩٤١ كلا من سالونيك واثينا وكريت ، وزحف من برقة الى الاسكندرية فيلق الماني - ايطالي . وبدأت انكلترا تتلقى اقسى ما عرفت في تاريخها من ضربات ، فقد طردت من اليونان واصبحت مهددة في مصر وفي

ظهرها ايران المعادية وافغانستان والهند اللتان تغلي فيها مراحل الثورة . واما الجزيرة البريطانية فقد كانت تحت رحمة قاذفات القنابل الهتلرية ، ورحمة القوات الالمانية المتمركزة على سواحل المانش وبحر الشمال . ان بريطانيا كما قال تشرشل ، كانت تبذل المستحيل للمحافظة على رأسها طافياً فوق سطح المياه .

كان الامير عبد الله لا يزال يحكم شرقي الاردن ، اما في العراق فقد تبذلت الحال اذ توفي الملك فيصل الأول فجأة في جنيف عام ١٩٣٣ خلال احدى دورات عصبة الامم وخلفه على العرش غازي الذي توفي بدوره اثر حادث اصطدام سيارته بعمود كهربائي في نيسان ١٩٣٩ ، قال الملك الى فيصل الثاني وهو في الخامسة من عمره بوصاية خاله الامير عبد الله شقيق زوجة غازي وحفيد الحسين .

وخشي تشرشل على مصالح الامبراطورية البريطانية في تلك المنطقة وهي نبعة الجزء الاعظم من الوقود الذي يسيّر بحريتها وطيرانها ، فأصدر اوامره الى احدى الكتائب الهندية بالنزول في البصرة ( ١٨ نيسان ) وكان ذلك خرقاً فاضحاً لاتفاق الحماية الذي يربط البلدين (١) .

فشارت نقمة الضباط الوطنيين في الجيش العراقي وقوامه اربعون الف جندي فتوجهوا لمقابلة رشيد عالي الكيلاني احد الساسة المعروفين بعدائهم للانكليز واصلوا تأييدهم له اذا قام بحركة انقلاب .

---

١ - اقيم نظام الحكم في العراق في العام ١٩٢١ وفق الخطوط الكبرى التي وضعها لورنس عندما كان تشرشل وزيراً للمستعمرات ولورنس مستشاراً للوزارة . وقد عقدت معاهدة بين العراق وبريطانيا تؤمن للعراق الحماية البريطانية لقاء حق الانتخاب ويقضي الاتفاق بأن تكون القوات البرية تابعة للحكومة الوطنية وكذلك الشرطة وان تكون لبريطانيا قاعدة جوية في مطار الحبابية .



ولم يتردد رشيد عالي في قبول المهمة ، ولم تلق حركته سوى مقاومة شكلية من الوصي عبد الاله الذي خشي على حياته ففر من بغداد وانتقل الى القاعدة الجوية في الحباية حيث وضع نفسه تحت حماية الإنكليز .

ولما اصبحت السلطة في يد رشيد عالي الكيلاني ، امر بحل مجلس النواب ، والغاء الانتداب البريطاني ، واعلن العراق دولة مستقلة ، وقامت قوات الشرطة العراقية بتطويق السفارة البريطانية ووجه الانقلابيون انذاراً الى السفير بالقضاء على جميع افراد الجالية البريطانية اذا لقت الطائرات البريطانية قبلة واحدة على بغداد .

وبدا لشاه ايران رضا بهلوي ان ايام الامبراطورية البريطانية الاخيرة قد دنت ، فمزق بدوره المعاهدات التي تربطه ببريطانيا وتهايا لضم جهوده الى جهود رشيد عالي الكيلاني .

لقد كان الانكليز محاصرين في جزيرتهم ولكنهم مع ذلك ، ظلوا متمسكين بمصالحهم الاستعمارية . فان نكسة العراق وايران تعتبر بالنسبة الى نكومنولث خطراً يوازي خطر غارات الطائرات الالمانية على بريطانيا . فبدر تشرشل الى اتخاذ سلسلة من التدابير المعاكسة وعهد الى الجنرال « كلارك » بإدارة العمليات الحربية في الشرق الاوسط وعزز الحماية الجوية في الحباية بعقد سراب من قاذفات القنابل ، وامر الجنرال « اوشينلت » بالنزول على رأس قوة بريطانية في شط العرب والزحف بحـذاء مجرى نهر اى بغداد . ثم طلب خيراً من الجنرال كينضتون ان يجهز قوة مصفحة ويسير بها الى عاصمة نعيسين لانقاذ السفير وافراد الجالية البريطانية .

وفوجى رشيد عالي الكيلاني برد الفجر لعنيف الذي لم يكن يتوقعه ، وعندما رأى طائرات سلاح الجو الملكي تنزق حمموف قوته ووجه نداء الى حكومة

الرايخ يطلب النجدة . ولكن حكومة الرايخ كانت ابعد من ان تستطيع تقديم العون ، فاكتفت بتزويده ببعض الاسلحة من مخلفات جيش المشرق الفرنسي ، وباعت منه مئة طائرة مطاردة لم ينجح سوى ٤٠ منها في الوصول الى هدفها حتى ان طائرة قائد السرب الماجور « بلومبرغ » اسقطها الانكليز قبل ان تهبط على ارض العراق .

وكان ابن سعود يتابع بانتباه مراحل الصراع من وراء حدوده . اجل ، كانت رغبته ان ينتصر العراقيون ، ولكنه لم يشأ محاربة الانكليز ولا التعرض لغارات سلاح الجو الملكي الكاسحة .

٧٧

وحشد الكولونيل « كينغستون » او « كينغول » قواته في الرطبة على طريق خطوط انابيب النفط بين الموصل وحيقفا ثم عززها بمدد من بدو « الجيش العربي » الذين جندهم الماجور « كلوب » .

كلوب ، رجل مربع القامة ، ذو شاربين اغبرين ، في وجهه ندبة عميقة جعلت البدو يلقبونه بـ « ابو حنيك » . كان واحداً من اولئك المغامرين الذين تبعث بهم انكلترا الى الشرق بين حين وآخر لخدمة مصالحها ولا تتردد في التخلي عنهم كلما ورطوها في متاعب تجد نفسها في غنى عنها .

انه رجل ثقة في نظر البعض ، ولغز محير في نظر البعض الآخر ، وقد هيا نفسه ليلعب في هذه الحرب الدور الذي لعبه لورنس في الحرب العالمية الاولى .

ادرك كلوب باشا سريعاً ان اول شروط النجاح في الشرق هو ان يستوعب

المرء اساطيره ويعيشها ... لقد جاء الى البلاد العربية قبل عشرين عاماً فجعل من نفسه بتأييد من وزارة الخارجية البريطانية مستشاراً عسكرياً للأمير عبدالله وتولى مهمة تنظيم جيش شرقي الاردن . نشيط طموح ، ذو شخصية جذابة . لقد عرف مؤسس « دوريات الصحراء » كيف يستولي على قلوب جنوده . انه اقل شاعرية من « لورنس » ولكنه كان يتفوق عليه بميزة لا تنكر ، هي واقعيته . يقول « سومرست دوشير الذي اشترك في حملة العراق في جيش « كينغستون » : « كنت اذكر اسم « لورنس » في حلقات البدو وفي قلب القرى الجائئة على بعض الذرى والتي لا يمكن ان يبلغها سوى المشاة والخيالة وكنت ارى تلك الوجوه تصفي الي وتباعدل نظرات ذات مغزى ، ولكن شهرة لورنس لم تنتشر الا بالتواتر بفضل ترويج كتاب او صحيفة او فيلم سينمائي . ان اسمه هو واحد من الاسماء التي يحسن بالانسان ادعاءها لنفسه في الشرق . وامسا كلوب باشا ، ابو حنيك ، فهو قطعة من الشرق نفسه . »

ولما انهى جيش « كينغستون » استعداداته الاخيرة بدأ الزحف نحو الشرق بحماية قوات كلوب باشا ، وشق لنفسه بصعوبة كلية طريقاً عبر الرمال ( ٥ ايار ١٩٤١ ) . وكان تقدم تلك الحفنة التائهة من الرجال امراً شاقاً في ذلك القفر الشاسع ، فقد كان الفصل رديئاً واصيبت العناصر الآلية بمختلف انواع العطب ، وغشيت اعين الجنود من وهج الشمس ، وتعرضوا لغزوات البسود ولقصف متكرر من طائرات تحمل العلم العراقي . كانت هذه العناصر الامامية مرهقة من التعب عندما ادركت بعد خمسة عشر يوماً مصب دجلة ولاح لها في الافق ، الجانب المشرق من عاصمة العباسيين .

وكان متفقاً على ان تمتقي الحملة التي يقودها الجنرال « اوشيلنك » بحملة « كينغول » في هذا المكان . ولكنها لم تصل في الموعد المحدد ، بل كانت لا تزال في مدينة الناصرية على نهر الفرات الى الجنوب .

غير ان وصول « كينغول » اثار الاضطراب في صفوف العراقيين، فهم ما كانوا يتوقعون ظهور العدو في هذا الموقع واعتقدوا بأن الآليات والسيارات المصفحة ما هي الا طلائع قوة كبيرة، فقرر الجنرال « كينغستون » استغلال عامل المفاجأة ولم يتمهل بانتظار وصول حملة « اوشينك » فاتجه نحو الحبانية حيث تجمع اكثر من ٩ الاف مدني بريطاني واقتحم القاعدة الجوية فاضطر العراقيون المدافعون عن القاعدة والذين ارهقتهم الغارات الجوية الى الانسحاب، مخلفين وراءهم قتلاهم وجرحاهم .

وبقيت مهمة فك الحصار عن السفارة البريطانية، ولكنها كانت عملية دقيقة تستوجب التوغل الى قلب بغداد وسط رأي عام ناغم مما يعتبر مغامرة جنونية بالنسبة الى القوة البريطانية المحدودة .

ولكن « كلوب باشا » « صديق العرب » كان هناك ليثبت في مثل هذه الظروف، انه عضد لا يقدر بثمن وتمكنت القيادة العليا بواسطته من اجراء بعض الاتصالات في العاصمة العراقية وعاد الرسل يبلغون القيادة ان بالامكان ايفاد بعض المبعوثين البريطانيين فجر الثامن والعشرين من ايار .

ولكن ... اي فرق شاسع بين الاستقبال الحماسي الحافل لقوات « النبي » عند دخولها دمشق قبل ربع قرن، وبين دخول ممثلي صاحب الجلالة اليوم عاصمة هارون الرشيد .

لقد اقتيد المبعوثان البريطانيان معصوبي الاعين عبر مراكز الحراسة العراقية ولم ترفع العصابتان حتى وصولهما الى ضواحي المدينة، وكانت شوارعها شبه مقفلة، فيما عدا دوريات الجنود العراقيين الذين كانت تأخذهم الدهشة لدى رؤيتهم هذين الضابطين البريطانيين .

ولما عاد موكب السيارات يجتاز شوارع بغداد في طريقه الى الحبانية تقل السفير وحاشيته كانت المدينة قد استيقظت وازدحم الناس في الشوارع وتزايد عدد الجنود وشيع الموكب بنظرات الحقد والكراهية .

وحطت في اليوم نفسه في الحبانية طائرة ضخمة وهبط منها شاب يرتدي اللباس العسكري الاميركي ، انه الضابط جيمس روزفلت ، احد ابناء الرئيس الاميركي جاء يدرس الموقف عن كثب ، فرحب به الضباط البريطانيون ترحيباً حاراً لأنهم كانوا في حاجة ماسة إلى مؤازرة الولايات المتحدة ، الا انهم ما كانوا في قرارة نفوسهم مغتبطين كثيراً لوصول هذا المراقب في ظرف بمثل هذه الدقة .

وكانت لزيارة جيمس ، في الواقع ، نتائج هامة . فقد لفت لدى عودته الى واشنطن نظر والده الى اهمية الشرق الاوسط العسكرية والاقتصادية ، والى ما لاحظته في الوقت نفسه من تدني مكانة بريطانيا في المنطقة .

وتوجهت في التاسع والعشرين من ايار بعثة من الوجهاء العراقيين المعروفين بصداقتهم للانكليز الى قاعدة الحبانية حيث قابلوا الجنرال « كلارك » واصلوا عن رغبتهم في عقد الهدنة .

وتم الاتفاق بسرعة ، بفضل المساعي الحميدة التي بذلها كروب باشا ، واصبحت الهدنة نافذة المفعول ابتداء من منتصف ليل ٣٠ ايار .

واجلي الجيش العراقي عن بغداد في صبيحة اول حزيران ، وعهد بصيانة الامن الى قوات مختلطة من الشرطة العراقية والبريطانية ، وفر رشيد عالي الكيلاني الى ايران وجرت حركة «تطهير» شملت جميع الذين اشتركوا في الثورة ، وعاد الامير عبد الإله الى بغداد بحماية القوات البريطانية والى حكومة جديدة اخذت على

عاقبها تسهيل مهمة الجيش البريطاني في حربه ضد المانيا وايطاليا ، « بكل الوسائل الممكنة » . وحكم على رشيد عالي الكيلاني بالاعدام . وانتهت « حرب الثلاثين يوماً » التي لم تكن في الواقع سوى ثورة محلية تفتقر الى السلاح والتنظيم ، ولكنها اثارت ، مع ذلك ، الكثير من المتاعب للحكومة البريطانية ، وصرح تشرشل في مجلس العموم « لقد عاد كل شيء الى مجراه الطبيعي ولكن بوسعي ان اعترف لكم بأن الهزة كانت حامية »<sup>(١)</sup> .

وما ان تمت تصفية القضية العراقية حتى صدرت الاوامر من لندن بطرد الفرنسيين « الفيشيين » من سورية ولبنان .

وبدأ الهجوم على سورية من قبل القوات البريطانية - الدوغولية ، تدعمها فرق هندية واوسترالية ، بعد غارات جوية عنيفة على مدينة بيروت ومطار النيرب ، فأصدر الجنرال دانتر ، المفوض السامي الفرنسي في المشرق ، اوامره بالمقاومة حتى الرمق الاخير .

ودارت معارك دامية في البر والبحر والجو ، وقاوم الفرنسيون كالمجانين على طول الجبهة ، وصمدت حامية تدمر في معركة يائسة ضد قوة مهاجمة تفوقها عشرة اضعاف مدة ثلاثة عشر يوماً .

واضطرت القوات الفرنسية التي تقاتل على الساحل في الجنوب ، والتي تعرضت لقصف شديد من البحرية البريطانية الى الانسحاب من صيدا في الخامس عشر من حزيران ، ودخلت القوات البريطانية - الدوغولية ، دمشق بعد ذلك باسبوع ( ٢٢ حزيران ) .

١ - خطاب تشرشل في مجلس العموم ٩ ايلول ١٩٤١ .

وكانت حامية تدمر التي تقلصت الى حفنة من الرجال ما تزال تقاوم بمعدل واحد ضد مئة ، ثم اضطرت الى الاستسلام بعد نفاذ الذخيرة والمياه ( ٣ تموز ) .

وفي العاشر من تموز اصدر المرشال بيتان اوامر الى المفوض السامي الفرنسي في بيروت بالقاء السلاح بعد ان خسر الفرنسيون ١٨١٩ قتيلًا ومفقوداً مقابل ٥٠٠ قتيل وجريح من القوات البريطانية .

وبدأ الجنرال كاترو بتحقيق ما اعتبره تنفيذ الوعد الذي قطعه من اذاعة القاهرة بإنهاء الانتداب الفرنسي ، فتألفت في دمشق حكومة برئاسة الشيخ تاج الدين الحسيني وعكف الجنرال سبيرز على مهمته الرامية الى تصفية الوجود الفرنسي في الشرق .

ولما انتهت الامور في سورية الى هذا الوضع وشعر الانكليز بانهم سادة الموقف اتجهوا نحو ايران التي لاحت عليها بوادر تأييد الثورة الاستقلالية في العراق ، فاجتاحت القوات البريطانية والسوفياتية حدود ايرانية في الخامس والعشرين من آب ١٩٤١ ثم احتلت طهران وارغمت الامبراطور رضا شاه بهوي على التخلي عن العرش بعد ان اتهمته بتباعد سياسة موالية لمانيا على غرار سياسة رشيد علي الكيلاني ، وعقدت في الثامن والعشرين من كانون الاول ، بعد نفي الامبراطور رضا الى جزيرة موريس ، معاهدة تحالف ثلاثية بين الاتحاد السوفياتي وبريطانيا والحكومة الايرانية الجديدة قضت باحتلال شمس البلاد حتى نهاية الحرب (١)

١ - لقد نصت تلك المعاهدة بوضاً على تقسيم ايران الى منطقتي نفوذ : شمالية تابعة للاتحاد السوفياتي وجنوبية تابعة لبريطانيا . وكانت المعاهدة من بعض النواحي تحديد المعاهدة المذكورة - روسية في ٣١ اب ١٩٠٧ . وقد ادعى التنازل البريطاني للاتحاد السوفياتي في ايران الى نتائج خطيرة بالنسبة لبريطانيا في ازمة تأميم البترول الايراني في عهد الدكتور مسدود .



وهكذا فان بريطانيا رغم حراجه موقفها في اوروبا كانت لاتزال قادرة على فرض ارادتها في الشرق الاوسط .

كانت كل هذه الاحداث تجري وابن سعود يتابع تطوراتها بجذر وحنكة بعيداً عن ان يجر بلاده الى اية تجربة من هذا النوع .

٨٧

وكان على حق في ما فعل . فالحرب ليست قائمة وحسب ، بل ان الشرق الاوسط ستكون له في العام ١٩٤٢ أهمية تفوق كثيراً تلك التي كانت له في بداية الحرب .

فإن الصراع الذي كان مقتصرأ على اوروبا وشمالى افريقيا ، قد شمل العالم بأسره وجرف اليابان والولايات المتحدة ، بعد الاتحاد السوفياتي . واصبح الخليج العربي والبصرة ، مرة اخرى ، نقاطاً تلتقي عندها دروب القوات المتصارعة .

لقد عرض «رومل» منذ تموز ١٩٤١ على رئاسة اركان حرب القوات الالمانية خطة ترمي الى احتلال قناة السويس ، ولكن اهدافه الشخصية كانت تذهب الى ابعد من ذلك ... الى احتلال البصرة لقطع الطريق على المعدات الاميركية التي كانت قد بدأت ترد الى الاتحاد السوفياتي عبر الخليج العربي .

يقول الجنرال البريطاني «يونغ» في هذا الصدد : « انه لمن المفيد ان نعود الى تقرير الجنرال «اوشينلك» عما طرأ من احداث على الشرق الاوسط بين اوائل تشرين الثاني ١٩٤١ و ١٥ آب ١٩٤٢ ، لنعلم كم كان لدينا من القوات في سورية

للمحافظة عليها بعد ذهاب الفيشيين؟ وكم كان لدينا في العراق وايران؟ وكم كان سهلاً في اي وقت قبل نهاية صيف ١٩٤٢ الاستيلاء على قبرص؟ واخيراً كم كان الجنرال « اوشينك » ، منشغلاً بالتهديدات الجاثمة على جناحه الشمالي؟ فهو لم يكن يجهد المخاطر التي يتعرض لها من احتمال قيام هجوم ألماني عبر القفقاس فحسب ، بل كان يتخوف من اي هجوم ، فإن قواتنا الهزيلة لم تكن تسمح لنا بمواجهة اي هجوم مهما كان ضعيفاً<sup>(١)</sup> .

لقد استبعدت القيادة الالمانية العليا خطة « رومل » ولكن « هتلر » تمسك بخطوطها الكبرى وقال لسفيره في باريس « اوتواوبتز » في الخامس من كانون الثاني ١٩٤٢ : « لو عرف الانكليز ما ينتظرهم في الشرق لما كان لهم ان يهملوا فإن اليابانيين سيصبحون سادة خليج البنغال عندما تسقط سنغافورة - وقد سقطت فعلاً بعد قليل - وستظهر غواصاتهم في الخليج العربي في نهاية الربيع . واكون في ذلك الوقت قد استأنفت الهجوم على الجبهة الروسية بجيش اقوى من جيش ١٩٤١ ، فتتقدم فرقي المصفحة باتجاه القفقاس ثم تنحدر حتى الخليج العربي ، ويكون لقاءنا مع اليابانيين في البصرة<sup>(٢)</sup> . »

اما في الجبهة المعاكسة ، فكان الجنرال « اوشينك » واركان حربه يستعدون لمواجهة العاصفة ويعيدون النظر في ما يملكون من قوة .

ذلك ، ليس لأن القوافل البحرية قد انقطعت بسبب تعرضها لقذائف الغواصات وحسب ، بل لأن القيادة البريطانية العليا قد اضطرت الى سحب بعض

١ - الجنرال ديزموند في كتابه : « رومل » .

٢ - تقرير الاميرال دارلان في ٩ كانون الثاني ١٩٤٢ .

وحداتها المرابطة في مصر وفلسطين لارسالها الى الشرق الاقصى . وتم تقريباً  
اجلاء القوات العسكرية في العراق وسورية وايران لنقلها الى ضفاف النيل ،  
فالجيش الثامن المدافع عن مصر اضحى في موقف حرج بعد ان تعرض لسلسلة من  
الهزائم الخطيرة ، وقد ابعد نصف الفرقة الاولى الافريقية الجنوبية في « سيدي  
رزق » واما الفرقة النيوزيلندية فلم يبق منها سوى الثلث ، وتقلصت الفرق  
المصفحة الثلاث التي كانت عصب الجيش الثامن الى تشكيلة واحدة مختلطة ،  
اي انه لم يبق هنالك شيء هام للصمود في وجه الاندفاع المتزايد الذي يقوم به  
« رومل » وجيشه الافريقي .

ورأت هيئة الدفاع عن الشرق الاوسط انها بحاجة الى ثنائي فرق على الاقل  
- منها ثلاث فرق مصفحة - لتستطيع الدفاع عن المناطق التي عهد بها اليها ،  
بغض النظر عن احتمال هجوم الماني من الشمال ... من القفقاس او تركيا .

وابرق « اوشينك » الى وزارة الحربية في لندن : « لن يكون في وسعنا  
الصمود حيث نحن قبل ثلاثة اشهر على اقل تقدير . ارسلاوا الى على جناح السرعة  
مدافع ودبابات وطائرات وجنوداً . ولا بد من تعزيز الدفاع عن جزيرتي مالطة  
وقبرص بالمدافع المضادة للطائرات ، فإن سقوط مالطة يجعل ضياع مصر وارداً  
في الحسبان » .

وكان جواب الحكومة الانكليزية مخيباً للآمال . فهي في وضع لا يمكنها من  
ارسال اي شيء ، وان عليه الصمود بالامكانات التي لديه ، وقد اعلمته علاوة على  
ذلك انها تنوي سحب قوات اخرى من الشرق الاوسط لنقلها الى سنغافورة  
حيث كان الموقف مفرجاً . فرد الجنرال « اوشينك » قائلاً : « لن يكون في  
وسعي ، في هذه الحالة ، ان استأنف الهجوم قبل ستة اشهر على اقل  
تقدير » .

وفي اثناء هذا الحوار بين القاهرة ولندن ، كانت طلائع قوات المرشال « فون بوك » قد ادركت مدينة «مايكوب» في القفقاس وكانت فرق «رومل» المصفحة قد تحطت طبرق واندفعت في زحف حاطف الى العلمين ، وكانت القطع البحرية اليابانية ، اخيراً ، قد شوهدت في المحيط الهندي . وهنا يقول المرشال « كيتل » : « لم نكن يوماً اقرب الى النصر منا في هذا اليوم ، ولم يبق سوى القليل حتى ندخل الاسكندرية ونتقدم حتى السويس وفلسطين (١) » .

ولكن عقدة ستالينغراد وحدها هي التي كانت تحول بين القوات النازية ، والمناطق شبه الخاوية في الشرق الاوسط (٢) .

الطرق المؤدية الى الهند كانت كلها مهددة بالانقطاع : الطريق البحرية المارة بقناة السويس وعدن وسيلان ، والطريق البرية المارة بجيفا وبغداد والبصرة ، وكذلك طريق ثالث ، لا تقل عنها اهمية ، كانت قد فتحت اخيراً في الخليج العربي .

١٦٩

تلك الطريق الثالثة ... هي التي كانت تتدفق منها ، عبر ايران ، الشحنات المتزايدة من المواد الغذائية والمعدات والاسلحة من الولايات المتحدة الى الاتحاد السوفياتي لدعم مجهوده الحربي . فصمود ستالينغراد والخوول دون نزول القوات الالمانية صوب البلاد العربية كانا منوطين باستمرار الاشراف على هذه الطريق .

١ - الجنرال ديزموند في كتابه « رومل » .

٢ - تقرير الجنرال « اوشينك » .

لقد طلب الروس الى الانكليز بعد احتلال ايران في آب ١٩٤١ تزويدهم بالمواد الاولية ، وعقد اتفاق بين البلدين كان على الاتحاد السوفياتي بموجبه ان ينقل البضائع من طهران الى بلاده ، في حين يتحمل الانكليز عبء نقل البضائع من مصدرها حتى الخليج العربي ثم تفريغها ونقلها براً عبر جنوبي ايران حتى حدود المنطقة التي يشرف عليها الروس .

لم يكن لدى الانكليز في بداية العمل سوى مرفأ واحد على طول ساحل الخليج ، هو البصرة ، على شط العرب . وكان بحكم وجوده في العراق مرتبطاً بخطوط حديدية مع تركيا وسورية وفلسطين ، بينما لم يكن يتصل بإيران الا بواسطة طريق صحراوي . اما « كرمناشاه » القائم على الضفة المقابلة فلم يكن جديراً باسم مرفأ ، ويمكن القول نفسه عن « بندر شاهبور » المحطة النهائية للخط الحديدي العراقي - الايراني الواقعة ابعد الى الشرق على الخليج العربي .

ولم ينشأ هذا الخط الحديدي في الاصل الا لنقل البضائع الخفيفة ، ولم يكن ثمة سوى بضعة مئات الشاحنات وكانت القاطرات محدودة القوة لاتستطيع جر معدات ثقيلة في منزلقات خطيرة ومنعطفات حادة . وكان الخط في اتجاه واحد يمر فوق مئات الجسور في اواسط ايران ويعبر نفقاً كل ثلاثة كيلومترات في المناطق الجبلية المرتفعة . وكانت هنالك طرق برية تتجه شمالاً نحو طهران وبحر قزوين ، ولكنها لم تكن في الواقع سوى ممرات لا تصلح الا للحمير والجمال<sup>(١)</sup> .

ونجح الانكليز رغم هذه الظروف العسيرة ، في ان يسلموا الروس خلال الاشهر الستة الاخيرة من العام ١٩٤١ ثمانية وثلاثين الف طن من مطاط سنغافورة

١ - ادوارد ستيتينيوس في كتابه : «الاعارة والتأجير سلاح النصر» ( نيويورك ١٩٤٤ )

و ١٣ الف طن من القنب الهندي ، و ٨ آلاف طن من قصدير ماليزيا ، و ١٨ الف طن من رصاص برمانيا و استراليا . وبدأ واضحاً حيال الحاح ستالين المتزايد ، بأن الانكليز لن يتمكنوا وحدهم ابدأ من القيام بمهمتي تأمين احتياجات السوفيات الهائلة ، وتجهيز المرافىء والطرق في ايران ، فمالت لندن الى واشنطن وطلبت اليها المساعدة .

وكان المسؤولون في الولايات المتحدة في انتظار اشارة كهذه . فوصلت في نهاية خريف ١٩٤١ بعثة برئاسة الجنرال « ويلر » الى ايران لدعم جهود الانكليز ، وركز المهندسون الاميركيون جهودهم على « كرمنشاہ » تاركين للانكليز ، البصرة وبندر عباس ، فبنوا فيها ارضفة جديدة واحواضاً ، وعمقوا مجرى شط العرب ليتسع لمرور السفن الكبيرة ، ونصبوا الرافعات لتفريغ المعدات الثقيلة ، وقعدت الهندسة الاميركية طريقاً بدائياً تمتد من « كرمنشاہ » الى « الاهواز » على مسافة ثمانين كيلومتراً فحولتها الى طريق رائعة ، و اقيمت ورشات لصنع المراكب الصالحة لنقل المعدات الثقيلة في مياه النهر بين « الاهوار و كرمنشاہ » .

وبدأ المهندسون الاميركيون اخيراً في ربيع ١٩٤٢ بتأسيس مصنع في « ابيدجيان » لقاذفات القنابل التي كان السوفيات بحاجة اليها بكميات كبيرة ، ومهد مطار قرب المصنع لتجربة الطائرات قبل تسليمها الى الروس .

وهكذا تزايد حجم البضائع المنقولة شهرياً بواسطة سكة حديد العراق - ايران ، الى ثلاثة اضعاف ، ودب النشاط على طول الساحل الشمالي للخليج العربي ، فاصبحت الشاحنات الانكليزية والقاطرات الهندية تسير بين قاطرات « كروب » والشاحنات التي اشتراها الشاه السابق المخلوع . ومد العمال الايرانيون باشراف المهندسين البريطانيين والاميركيين مئات الكيلومترات من الخطوط

الحديدية المستوردة من الولايات المتحدة . وبدأت القاطرات والشاحنات تصل من اميركا، ثم تلاها بعد ذلك قوافل من سيارات الشحن وشقت الطرق الجديدة وانتصبت ورش التصليح على طول مراكز المواصلات الحيوية . وتضخم طوال العام ١٩٤٢ حجم البضائع التي تجتاز ايران في طريقها الى روسيا بنسبة تضخم قوافل المعدات الاميركية ، في حين كانت اعمال بناء المرافىء وشق الطرق ، بإشراف الجنرال « ويلر » تسير بشكل جنوني .

وبدرت عن الرئيس روزفلت في العام ١٩٤٢ - دون استشارة الكونغرس - بادرة سخية ، فاعلن « ان جيش الولايات المتحدة سيرفع عن كاهل بريطانيا بعد الآن عبء مسؤولية نقل المعدات الى الاتحاد السوفياتي بطريق ايران » . ونتيجة لهذا القرار اتيح للادارة الاميركية ان تحمل شيئاً فشيئاً محل الادارة البريطانية في تلك المنطقة من العالم . وما هي الا خمسة عشر يوماً حتى تولى الجنرال الاميركي « كونوللي » قيادة مصالح الحلفاء كلها في الخليج العربي .

وقفز حجم المؤن المنقولة الى روسيا بطريق ايران حتى بلغ في ايار ١٩٤٣ مئة الف طن ، اي عشرة اضعاف ما كان عليه في اب ١٩٤١ .

وفي عام واحد ، بين تموز ١٩٤٢ وحزيران ١٩٤٣ ، بلغ حجم المواد المشحونة الى روسيا ثلاثة ملايين طن ثم تزايد خلال العام التالي . وانه يدهشنا حتى اليوم استعراض ما تم نقله والجهد الذي بذلته الولايات المتحدة وتنوع البضائع المقدمة الى الاتحاد السوفياتي : ٤١٠٠ طائفة ، ١٣٨٠٠٠ سيارة شحن وجيب ، ٩١٢٠٠٠ طن من الفولاذ على اختلافه وكميات من الالمنيوم والنحاس ، و ١٠٠٠٠٠ طن من البارود ، ومئات الكيلومترات من الخطوط الحديدية ، وما تبلغ قيمته اكثر من مئة وخمسين مليون دولار من التجهيزات الصناعية ، امثال الساحقات والكسارات والادوات القاطعة والافران والمحركات الكهربائية .



وكل ما يلزم لحفر آبار النفط لمساعدة الاتحاد السوفياتي على زيادة انتاجه ، ست مصاف للنفط جاهزة للتركيب معبأة في صناديق ، مصنع للمطاط كاف لصنع مليون اطار سيارة شحن في العام ، مولدات كهربائية لزيادة الطاقة الكهربائية السوفياتية واجهزة هاتف واذاعة ، ومليون و ٥٠٠ الف طن من المواد الغذائية ، بالاضافة الى تسعة آلاف طن من البذور والنباتات المختارة .

قال روزفلت : « علينا ان نقدم للروس كل ما يحتاجون اليه وليس عليهم الا ان يقولوا لنا كيف وبماذا يريدون ان نساعدهم . » اما الفرق الاميركية المكلفة بالتسليم والفرق السوفياتية المكلفة بالاستلام فقد نشأت بينهما منافسة حامية ، اذ كان الجنود الاميركيون يبذلون جهدهم لا يصال الشحنات الى مراكز النقل بأسرع مما يستطيع السوفيات نقلها .

وما هو الا وقت قصير حتى ازدحمت المرافئ المستحدثة بذلك الفيض من الشحنات وعجز الساحل الشمالي الصخري المهدد بالرياح عن استيعاب القوافل وتموينها وكان لا بد من تعميق مرفأى « البصرة » و « كرمناشاه » باستمرار لتجنب الوحول التي تحملها مياه شط العرب ، ولم يكن هنالك بد من اللجوء الى الساحل الجنوبي من الخليج العربي المحصن بصورة افضل ضد الرياح . ولكن مرفأى ذلك الساحل وأرصفتة وطرقته كانت كلها تحت سيطرة ابن سعود .

وكان الملك في ذلك الحين يعاني ازمة مالية ، فلقد انقضت موارد الحج بسبب الحرب . واما المبلغ الذي حصل عليه على حساب حصصه من شركة ارامكو وقدره ستة ملايين وثمانمائة الف دولار ، فقد انفق على تسليح الاخوان وتجهيزهم . وكان الجيش في حالة تعبئة منذ ثلاث سنوات مما ادى الى انخفاض الانتاج الزراعي . وكان لا بد من إيجاد عشرة ملايين دولار .

وكان ابن سعود يردد بينه وبين نفسه : « يريد الانكليز ان يحتفظوا بطريق الهند مفتوحة ، ويريد الامير كيون الاحتفاظ بطريق الى الاتحاد السوفياتي ، وهم فوق ذلك يبحثون عن مكان أمين لاصلاح بواخرهم وافراغ حمولتها . ان لدي ما يريدون في موانئ الاحساء ، فهناك الرافعات والمستودعات والارصفة والمنشآت المرفئية المختلفة التي بنتها شركات النفط الاميركية . ولما كانت هذه المنشآت قد اقيمت كلها في الاراضي السعودية لأغراض مدنية وتجارية فلا يمكن استخدامها لأغراض عسكرية الا بعد موافقتي . واني لمستعد للموافقة ما دمت أؤيد الحلفاء واعتقد بأنهم سينتصرون بالنهاية ... اذن لا بأس من ان استغل هذه المساعدات التي سأقدمها لهم لمصلحة بلدي وشعبي . »

٨٠

لقد اقضت الولايات المتحدة الحكومة البريطانية مؤخراً ، مبلغ ٤٥٠ مليون دولار ، وطلب الرئيس روزفلت من وزير خارجيته ان يبلغ الانكليز ما يلي :

« ان الرئيس سيكون سعيداً اذا جرت مفاوضات بريطانية مع ابن سعود وهو يرغب كذلك ان تدفعوا له جزءاً من المال الذي اقترضتموه منا »<sup>(١)</sup> . وكلف المسؤولون في شركة نفط كاليفورنيا ابلاغ الملك سرأ ، أن الذي سيتلقاه من الانكليز ليس مصدره كرم لندن وسخاؤها .

وقبل الانكليز « بالنصيحة » فقد لعب ابن سعود خلال الحرب العالمية الاولى اللعبة

١ - مجلة « لايف » ٢٩ حزيران ١٩٤٩ .

البريطانية ضد الاتراك فهل هو يحاول اليوم ان يلعب اللعبة الاميركية ضد بريطانيا، وكان من رأي ساسة لندن ان الحرب المقنعة التي شنها الرئيس روزفلت ضد الامبراطورية البريطانية تحت ستار مساعدة الشعوب المتخلفة « سلاح ذو حدين لا بد ان ينقلب على صاحبه ». كما ان دبلوماسي وزارة الشؤون الخارجية لم ترق لهم هذه الطريقة الاميركية في العطاء بيد والاخذ باليد الأخرى . ولكن العالم، بالتأكيد، قد تبدل كثيراً منذ عهد اللورد « كرومر » والملكة فكتوريا، عندما كان يكفي ان تقطب بريطانيا حاجبها حتى يهلع العالم وينحني امام ارادتها .

ودارت مفاوضات بين الانكليز ومندوبي ابن سعود في القاهرة انتهت بأن رفض ابن سعود القرض « البريطاني » لان المفاوضات الانكليز وضعوا مقابل القروض شروطاً سياسية .

وقرر الرئيس روزفلت ان يعالج القضية بنفسه، وقد دفعته الى ذلك عوامل عديدة . فان ابنه جيمس قدم له تقريراً عن مهمته في العراق اشار فيه الى العداء الشديد الذي تكنه الشعوب العربية للبريطانيين، كما ان الجنرالين « ويدر » و « كونوللي » اطعاه على الثروات الهائلة النكامنة حول الخليج، وكانت « شركة كاليفورينا للنفط » لاتني تلفت بظرة الى الموارد غير المحدودة في العربية السعودية، ففي خلال رحلته الى طهران في تشرين الثاني ١٩٤٣ توقف في القاهرة حيث استقبل عدداً من شخصيات العلم الاسلامي التي عبرت عن رغبتها في التقرب من الولايات المتحدة وعرضت عليه مشكلاتها بطريقة جعلته ينظر الى النزاعات القائمة بين الدول من عل . كما ان اساليب الشرق بدأت تفعل فعلها في نفسه رغم الذهنية الواقعية التي يعيشها .

وزاده استعداداً للاهتمام بما جرى في هذه المنطقة تقرير كان قد تلقاه اخيراً من السناتور « لنديس » ، اصبح بعد ذلك دستور البيت الابيض في سياسته في الشرق الاوسط . فقد اقترح كاتب التقرير نفس « الكتلة الاسترلينية » بعد ان اوضح دورها كوسيلة بالية للسيطرة البريطانية ، واقامة اتصال وتبادل مباشرين بين الولايات المتحدة والبلاد العربية .

وابتسم روزفلت عندما بلغه ان الانكليز يحاولون التوصل الى مكاسب سياسية لقاء القرض المالي ، وانهم يبحثون ايضاً وايضاً في توسيع منطقة نفوذهم . انهم في الحقيقة متحجرو العقلية . ولكن من الحماسة ان يعتقدوا بأن الولايات المتحدة على استعداد لدفع الثمن ، وان دولارات العم سام يمكن ان تستخدم لهذه الغاية .

وكان رد فعل الرئيس الاميركي سريعاً ، فأدرج المملكة العربية السعودية ، دون استشارة احد ، في لائحة الدول المستفيدة من قانون الاعارة والتأجير ، بحيث يتاح للولايات المتحدة ان تقدم لها المعدات وتسلفها الاموال دون وسيط . وصدق القرار باكثرية كبيرة في الكونغرس .

وسمى روزفلت بعد هذه « المبادرة الودية » الى تمتين العلاقات التي تربط بين الولايات المتحدة والعربية السعودية ، وجاءته الفرصة لدى توقفه في مصر - شباط ١٩٤٥ - وهو في طريق العودة من مؤتمر بالطة . فأبرق الى الملك العربي بواسطة القنصل الاميركي في جدة قائلاً : « سأكون سعيداً جداً بالتعرف اليكم خلال مروري بالاسكندرية » .

امتعض الانكليز عندما بلغهم نبأ هذه الدعوة التي وجهت بمعزل عنهم . ففي عشية اليوم الاخير من مؤتمر بالطة قال روزفلت لتشرشل ، انه عازم على التوجه

بالبطائرة غدا الى مصر لانه اعد العدة لاجراء مباحثات هناك مع ملك مصر ،  
وابن سعود ، وهىلا سلاسي امبراطور الحبشة على متن طرادته في « البحيرة المرة  
الكبرى » .

وبدا اثر المفاجأة جلياً على تشرشل ، ولم يتسع امامه مجال استيضاح الرئيس  
سرا عن فحوى المحادثات ، لان روزفلت احتاط للامر وتعمد ابلاغه النبأ امام  
جمع من الحضور . وكان تشرشل يزداد عصبية كلما امتدت السهرة . اخيراً ، لم  
يعد يملك نفسه فانتحى جانباً « بهاري هوبكنز » وراح يستوضحه عن نوايا الرئيس  
حيال رؤساء الدول الثلاثة .

يقول « هارى هوبكنز » ، رجل البيت الابيض ، في مذكراته : « لقد اجبت  
تشرشل بانى اجهل تماماً هذه النوايا ولكن اعلم ان الرئيس يرغب في بحث الحالة  
في فلسطين مع ابن سعود . غير ان حديثي مع تشرشل لم يشف غليله وظل  
مقتنعاً بأننا سلكنا سبيل المؤامرة لنسف الامبراطورية البريطانية في تلك  
لمناطق » .

وقال رئيس الوزراء البريطاني لروزفلت في اليوم التالي : « انه سيذهب هو  
الآخر الى مصر بعد اقامة قصيرة في اليونان ، وانه سيقابل اموك الثلاثة ايضاً وقد  
ارسل اليهم بروجوهم البقية في مصر لأنه يرغب في اجراء مباحثات معهم بعد  
سفر الرئيس الاميركي » .

اثار هذا الحديث ابتسامة روزفلت ولكنه ظل على تحفظه ولم يقل شيئاً .  
لقد كان غضب تشرشل شيئاً بسيطاً امام ما حدث من غليان لدى الدوائر  
البريطانية في لندن . ولم لا والشرق الادنى منذ قرن ونصف منطقة صيد  
محرمة ، لا يجوز دخولها الا لصاحب الجلالة البريطانية ، وهذا هو الآن منافس

قوي يريد ان يدخل هذه المنطقة باستهتار غريب ! نعم انه اليوم صديق حليف،  
ولكنه في الغد ، قد يصبح عدواً عنيداً .

لقد عامل الامير كيون ابن سعود باحترام زائد ، وارسلوا مدمرة خاصة الى  
جدة لتكون تحت تصرفه في هذه الرحلة .

وتمت المقابلة في ١٤ شباط ١٩٤٥ ، عند مدخل البحر الاحمر ، على ظهر  
الطراد « كوينسي » حيث احيط الملك بكل ما استطاع من اكرام  
واحترام .

وقال الرئيس الاميركي وهو يمد يده باشا مرحباً: « انني سعيد برؤيتكم فما الذي  
يمكنني ان افعله في سبيلكم ؟ »

اجاب ابن سعود :

-- لقد سعدت باستقبالكم الودي ! ولكن ليس لي اي مطلب اتقدم به .  
فانتم الذين رغبتم في رؤيتي ، ولهذا افترض ان لديكم ما تقولونه لي !

كانت لهجة ابن سعود مختلفة عن لهجة الشخصيات العربية التي قابلها روزفلت ،  
فقد اسرفت في تملقه . واستعان الرئيس الاميركي بكل براعته في التأثير ، تلك  
البراعة التي فعلت فعلها في الكثيرين من زعماء العالم ، ومنهم ستالين .

ولكن بشاشة الرئيس الاميركي لم يكن لها اي اثر على زائره . وكان من  
عادة الملك الا يبخل بالكلام ، وان يدعم خطبه او احاديثه بأمثال شعبية او  
او بآيات من القرآن ، ويسلسل رغباته بكثير من المنطق حتى يصل بها بشكل  
بارع الى الهدف المنشود ، فيتوقف اذ ذاك ويبتسم ابتسامة ذات مغزى كمن يقول

لمحدثه : « ألسنا على وفاق » ؟ . ولكنه لجأ ، هذه المرة ، الى طريقة اخرى .  
لقد بدا متحفظاً وصامتاً ليحمل محدثه على ان يكشف اوراقه اولاً .

وذلك ما حدث في النهاية . فقد تعب روزفلت من الانتظار واندفع في  
الموضوع الذي كان يشغله بوجه خاص وهو مستقبل اليهود في فلسطين .

ويقول « هاري هوبكنز » في مذكراته : « لا ريب في ان الرئيس كان يجهل  
تماماً حقيقة الرجل الذي دعاه لزيارته . انه ملك مهيب ، ذو سلطة كبيرة ،  
جندي بالفطرة وعربي صميم اولاً . لقد طلب اليه الرئيس ان يوافق على مجيء  
مهاجرين جدد من اليهود الى فلسطين ، و اشار الى ان عددهم لن يشكل سوى نسبة  
ضئيلة من مجموع شعوب العالم العربي . فاصيب روزفلت بصدمة عندما سمع ابن  
سعود يجيب دون اي تردد : لا ! »

وشدد ابن سعود على امر واقع وهو ان اليهود اذا كانوا قد نجحوا في تحويل  
التربة الفلسطينية الى اراض خصبة ، فالفضل في ذلك لرؤوس الاموال الاميركية  
والبريطانية التي تدفقت عليهم بمئات ملايين الدولارات والجنسيات ، وان هذه  
الاموال ، لو اعطيت العرب ، لكان في وسعهم ان يفعلوا بالمثل . وقال ان هناك  
جيشاً يهودياً كامل التسليح لا تبدو عليه اية رغبة في محاربة الالمان ، بل يشكل  
تهديداً دائماً دائماً للعرب .

واعلن الملك بصراحة ان العالم العربي لن يسمح بدخول افواج جديدة من  
المهاجرين اليهود الى فلسطين ، وان العرب سيحملون السلاح ، وانه سيكون  
بصفته الدينية والسياسية ، في طليعة المحاربين الى جانب اخوانه في فلسطين .  
ويبدو ان روزفلت لم يفهم تماماً ما قاله ابن سعود ، فأعاد مراراً طرح القضية  
على بساط البحث . وكان الملك كل مرة ، يبدو اكثر صلابة في الرفض .



لا ريب في ان الملك كان له اثر عميق في نفس الرئيس . فبات على يقين بان العرب لا يلقون الكلام على عواهنه (١) .

وفي هذا يقول روزفلت في حديث له مع برنار باروش ، بعد اجتماعه بابن سعود :

« بين جميع الاشخاص الذين تعاملت معهم في حياتي ، ما وجدت واحداً حصلت منه اقل مما حصلت عليه من هذا الملك العربي ذي الارادة الحديدية (٢) . »

وتناقش الرئيس والملك طوال ساعات في ظلال المدافع البحرية الضخمة ، فلما يش روزفلت اخيراً من زحزحة الملك عن موقفه حيال قضية فلسطين انتقل الى موضوع آخر ، فعرض رغبات القيادة الاميركية العليا في الخليج العربي لاستخدام ساحل الاحساء وموانئه لايواء القوافل وتموينها بالوقود واقامة قاعدة جوية كبرى .

دارت المناقشات هنا في جو اكثر صفاء . فالبحث يدور حول قضايا تخص العربية السعودية دون سواها ، واظهر ابن سعود استعداداً للتفاهم فوافق مبدئياً على رغبات روزفلت ، ولكنه اشترط ان تتعهد الولايات المتحدة بما يلي :

١ - الا تتعرض العربية السعودية ، بأي حال من الاحوال ، لاحتلال عسكري على غرار ما حدث في سورية والعراق وايران .

٢ - الا يقتطع اي جزء من ارض الوطن ، والاماكن التي سوف يستخدمها

١ - روبرت شيروود : « في ذكري روزفلت » .

٢ - اليوت روزفلت في كتابه : « ابي .. قال لي » .

الجيش الاميركي تكون على سبيل الايجار لمدة خمس سنين. ومق انقضت السنوات الخمس تعود للدولة السعودية بكل ما عليها من ابنية ومنشآت .

٣ - تكون للمملكة العربية السعودية الافضلية في الحصول على المعدات الحربية المودعة في « كرمناشاه » لاستخدامها في تطوير تسليح « الاخوان » . ويتعهد ابن سعود ، مقابل ذلك ، بالايهاجم الحلفاء وبأن يصد اي اعتداء تقوم به قوات المحور .

٤ - تؤيد الولايات المتحدة وفقاً للحريات الاربع ، المنصوص عليها في ميثاق الاطلسي ، كل المبادرات التي تتخذها الدولة السعودية اسهاماً في تحرير الشعوب العربية الراضحة تحت نير الاحتلال الاجنبي .

لقد ضمن ابن سعود في البند الأول ، من هذه الشروط ، استقلال الجزيرة العربية ، بينما اكد في البند الرابع حرصه وتمسكه باستقلال البلاد العربية .

قال روزفلت بشأن البند الأول : لن اسمح بأية بادرة عدائية من جانب الولايات المتحدة ضد الشعوب العربية . وأما البند الرابع فليس موضع بحث لأنه داخل في صلب سياسي ، فإن عهد الاستعمار قدولى وكذلك عصر الامبراطوريات . وان من بين مكاسب هذه الحرب توجيه الضربة القاضية للاستعمار .

و ضرب روزفلت بسورية ولبنان مثلاً على ذلك ، فقال ان لديه تمهداً خطياً من لجنة الجزائر بمنح هذين البلدين استقلالهما الكامل ، وان بوسعه ان يكتب في اي وقت الى الحكومة الافرنسية مطالباً باحترام وعدها .

واضاف الى ذلك انه سيساند السوريين واللبنانيين بجميع ما لديه من وسائل - باستثناء القوة المسلحة - ويأمل في ان يفعل بالمثل بالنسبة الى بقية الاقطار العربية عندما تطالب باستقلالها .

اما فيما يتعلق بالبندين الثاني والثالث - ولا سيما حيال مدة ايجار الاراضي السعودية للجيش الاميركي - فقد حاول روزفلت الحصول على شروط افضل ، ولكن دون جدوى اذ اصر الملك على موقفه حتى اقتنع الرئيس الاميركي بوجهة نظره ، غير انه ابدى تحفظاً واحداً يعود الى توضيح بعض التفاصيل بواسطة لجنة من الخبراء .

ثم استبق الرئيس الاميركي الزمن واثار قضية النفط . فطلب الى الملك منح الولايات المتحدة حق استثمار نفط المملكة العربية السعودية . واحتدمت المناقشة هنا مرة اخرى ، الى ان توصل رئيسا الدولتين الى اتفاق يرتكز على الاسس التالية :

١ - لا يتخلى ابن سعود عن اي جزء من اراضيهِ ، بل تكون الشركات المستثمرة مستأجرة للأراضي .

٢ - مدة الاستثمار ستون عاماً - اي انها تنتهي في العام ٢٠٠٥ وتعود بعدها الآبار ومنشآت البترول كلها الى الدولة السعودية .

٣ - يرفع الرسم المدفوع للملك عن كل برميل من البترول المصدر من ١٨ الى ٢١ بنس اميركي .

٤ - توسع المنطقة التي تستثمرها شركة « ارامكو » الى مساحة تبلغ مليون و ٥٠٠ الف كيلومتر مربع .

وعرض روزفلت بعد ذلك مشروع انشاء خط من الانابيب بطول ١٧٥٠ كيلومتراً يصل بين الاحساء وأحد مرافئ شرقي البحر الابيض المتوسط - حيفا او صيدا - ( لم يكن مكان المصب قد حدد بعد ) ، فأجاب الملك ان

هذا المشروع ينسجم مع اهدافه ، وانه سيفعل كل ما بوسعه لتسهيل تحقيقه .  
ولكنه ابدى رغبته في ان يتم المشروع بواسطة شركة خاصة وليس بإشراف  
الحكومة الاميركية ، كما كانت ، على ما يظهر رغبة الرئيس الاميركي .

ومع ان جو المحادثات بين الرجلين لم يكن في البداية صافياً ، فقد افترق  
الملك والرئيس الاميركي وكل منها مسرور بالآخر ، ولديه انطباع بانه حقق  
عملية رائعة . واهدى الرئيس الاميركي كرسيه الخاص الذي كان جالساً عليه  
للملك السعودي ، تعبيراً عن امتنانه .

اما الانكليز فكانوا اقل سروراً ، اذ بلغهم خبر ما دفع من ثمن لقاء حياذ ابن  
سعود . ولم يكن بوسعهم الا الرضوخ للامر الواقع .

ففي الخفاء ، ودون ان يبدو اي شيء يلفت انتباه الرأي العام العالمي ،  
وجهت الى السيطرة البريطانية في الشرق ضربة اليمة ، وتخلصت بواسطتها العربية  
السعودية من دائرة النفوذ البريطاني ...

وهكذا ... في يوم واحد ، تم لابن سعود ان يثأر لحقبة طويلة دامت  
عشرين عاماً .



أجزاء الخامس  
المملكة العربية السعودية في مضمار التقدم  
(١٩٥٣ - ١٩٤٥)





بدأ فوراً تنفيذ الاتفاق المعقود على ظهر المدمرة « كوينسي » بين ابن سعود وروزفلت، ومنذ شهر اذار ١٩٤٥ شرع خبراء « ارامكو » ينقبون في اعماق المساحات الجديدة من الاراضي التي نالت الشركة امتياز استثمارها. ودلت اعمال التنقيب على ان طبقة المحروقات الراكدة تحت الصحراء ترتفع الى ملياري طن، فقد كانت المملكة العربية السعودية اغنى منجم للذهب الاسود اذ ان فيها وحدها ٤٢ بالمئة من البترول المكتشف في العالم بأسره حتى ذلك الحين .

واصبحت الاوساط البترولية الاميركية بما يشبه الدوار عندما نشرت هذه الارقام في « وول ستريت » بنيويورك ، فقد ضمنت الولايات المتحدة حق استثمار هذه الثروات الضخمة حتى العام ٢٠٠٥ بفضل بعد نظر الرئيس . فكم كانت صفقة « شركة نفط كاليفورنيا » عظيمة عندما اشترت امتياز الاستثمار بمبلغ خمسين الف دولار !

غير ان ملوك النفط ما كانوا جميعاً يشاطرون مدراء شركة « ارامكو » ابتهاجهم . فقد كانوا يخشون ان تعمد هذه الاخيرة بالطاقات الهائلة التي لها الى خنق الشركات الاخرى التي تجني اضعف ارباحها من تصدير البترول الاميركي الى الخارج امثال « ستاندرد اويل اوف جرسى » و « سوكوني فاكوم اويل كومباني » .

كذلك أخذ القلق يسيطر على الانكليز من جراء الثغرة التي فتحتها الاميركيون، واصبحت تهدد سياسة التوازن النفطي بنتائج مفرجة . فأي مصير ينتظر شركة

نفت العراق وشركة نفط إيران أمام سيول المهروقات التي لن تتأخر شركة «ارامكو» في اغراق الاسواق بها؟ وضحى العالم على شفير صراع اقتصادي حاد تجمعت عناصره حول البترول. ولن يطول الأمر بتاسيح النفط حتى يفترس بعضها البعض الآخر.

ولكن الحكومة الاميركية تدخلت في الوقت المناسب لما بلغت الأزمة ذروتها، واستطاعت ان تعقد عدداً من الاتفاقات للحيلولة دون تفجر الحرب بين شركات البترول. وادرك المشرفون على «ارامكو» انهم لن يتمكنوا وحدهم من استثمار كمية من البترول بلغت هذا الحد، فاعلنوا في ١١ كانون الاول ١٩٤٦ ان الشركتين المؤسستين «لآرامكو» وهما: «ستاندارد اويل اوف كاليفورنيا» و«تكساس اويل»، وافقتا على منح ٤٠ بالمئة من حصتها في الامتياز الى شركتين هما «ستاندارد اويل اوف نيوجرسي» و«سوكوني فاكوم». وتم توقيع الاتفاق بعد ١٥ يوماً. وسويت بذلك أزمة البترول الاميركية الداخلية.

وفي اليوم نفسه (٢٦ كانون الاول ١٩٤٦) اذيع نبأ اخر كان له وقع القنبلة في نيويورك ولندن، واخذ الناس علماً بأن «ستاندارد اويل اوف نيوجرسي» و«سوكوني فاكوم» قد اشترتا من الاميرالية البريطانية ٤٠ بالمئة من انتاج شركة النفط الايرانية وذلك لمدة عشرين سنة. ولما كانت شركتا «ستاندارد» و«سوكوني فاكوم» تملكان  $\frac{1}{2}$  ٢٣ بالمئة من اسهم شركة نفط العراق فقد امتد نشاطها بذلك الى انحاء الشرق الاوسط كلها.

ثم عقدت ثلاثة اتفاقات اقل اهمية جاءت تكمل ذلك «التجمع»، فقد تقاسمت شركة «سوكوني فاكوم» مع شركة النفط «الانكليزية المصرية»، استثمار النفط في منطقتي السويس وشبه جزيرة سيناء. وتشاركت «نفت الخليج» و«شركة النفط الايرانية» في الكويت وانبثقت عنها «شركة نفط الكويت».

وعقد اتفاق مشابه في إمارة قطر . وعهد أخيراً الى شركة ذات اكثرية اميركية  
ساحقة بمد انابيب البترول لحساب الانكليز والاميركيين على السواء .

وتم في المقابل توقيع اتفاق بين لندن وواشنطن يقسم بموجبه الشرق الاوسط  
الى منطقتين بتروليتين :

الاولى بريطانية تضم إيران والعراق .

والثانية اميركية وتشمل شبه الجزيرة العربية كلها .

وهكذا استبعد النزاع ونوافرت لشركة النفط العربية - الاميركية ( التي  
تضم اقوى العناصر المالية في الولايات المتحدة : روكفلر ومورغان وميلون )  
رؤوس الاموال والخبرة الفنية والمعدات الضرورية لاستثمار نفط الاحساء . لقد  
تلقى الانكليز درساً قاسياً ، واصبحت سيادتهم المطلقة على بترول الشرق  
الاطوسط محض ذكرى من ذكريات الماضي الغابر .

واحتج تشرشل في مجلس العموم بعد ان اقضته انتخابات ما بعد الحرب عن  
الحكم على ما وصفه بـ : « سياسة الهزيمة والتراجع » فرد « ستافورد كريبيس »  
باسم حكومة العمال بأن السير ونستون يتحمل هو نفسه اكبر جانب  
من المسؤولية في هذه القضية ، وان اوضاع بريطانيا المالية المثقلة بديون الحرب  
لا تسمح لها بالتوصل الى حلول اخرى .

٨٢

ولما بدأ « التجمع » البترولي نشاطه ، جاءت النتائج بسرعة تدهش جميع  
المراقبين وتفوق كل الاحتمالات .

فقد استثمرت اربعة حقول للنفط في آن واحد ، احدها في جزيرة البحرين ،  
وثلاثة منها على الساحل السعودي في « القطيف » ، « الدمام » ، « بقيق » تصل  
فيها بينها شبكة من الانابيب مربعة المجاري يبلغ طولها ١٥٥ كيلومتراً  
بالإضافة الى انبوب تحت سطح البحر يصل بين منشآت الساحل وميناء  
البحرين .

وانشأت المصافي الجبارة في البحرين « و بقيق و الدمام » اهمها مصفاة رأس  
تنورة شمالي القطيف حيث قام ميناء مجهز بأحدث الوسائل ، وانتصبت  
خزانات ممتدة على طول الرصيف هي الاكبر والاضخم من نوعها في العالم ويتسع  
بعضها لـ ١٨٠ الف برميل وتتملأ يومياً ما يتراوح بين ٨٠ ومئة ناقلة بترول اي  
حوالي ٢٦ الف ناقلة في العام .

وانبثقت الظهران - عاصمة النفط - كالعجوبة ، خلال خمس سنوات  
وسط الرمال ، بكل ماتحتوي عليه المدن الحديثة من ابنية وشوارع واحواض  
للسباحة وحدائق تروى بأثمان تضاهي الذهب .

وأصبحت الظهران تلك البلدة الصغيرة التائهة في الصحراء ، بين يوم وآخر ،  
محط اهتمام رجال الاقتصاد في العالم وارتفع عدد سكانها بين العامين ١٩٣٣ و  
١٩٥٣ من سبعة آلاف الى تسعة وستين الف نسمة . وقامت الى جانب الأحياء  
الاميركية الصرف أحياء ذات طابع عربي بمساجدها واسواقها وحماماتها العامة  
حيث يقيم الامير بن جلوي حاكم المنطقة والرجل الرهيب الذي طهر الاحساء  
من عصابات اللصوص التي كانت تسيطر عليها قبل ثلاثين عاماً .

ارتفعت الرسوم التي تدفعها « ارامكو » الى ابن سعود في السنوات الاخيرة من حياته الى ٤٠ الف دولار في اليوم اي الى حوالي ١٦٠ مليون دولار في السنة ، فخصص الملك هذه الاموال لتحقيق الاهداف التالية :

١ - استيراد المواد الغذائية والاقمشة التي لا غنى عنها ( الارز والسكر ، والشاي والقهوة ، والاقمشة القطنية ) .

٢ - شراء السيارات الكبيرة والصغيرة .

٣ - تحقيق المرحلة الاولى من تحويل المملكة العربية السعودية الى دولة حديثة :

آ - كهربة الرياض واهم مدن حجاز ، مكة والمدينة وجدة والضايف . . .

ب - انشاء شبكة من الخطوط البرية و الحديدية والجوية .

ج - تطوير الثقافة العامة .

د - اتباع سياسة خارجية تفرض اعتبار المملكة العربية السعودية في الاقطار العربية ، وتقاوم النفوذ الاجنبي في تلك الاقطار

اما فيما يتعلق بالطرق البرية فقد وضع الملك مشروعاً لسق وتعبيد ٤٣ الف كيلومتر من الطرق الفسيحة خلال تشرين عدماً ، وما هي الا فترة قصيرة حتى

بدأت السيارات الضخمة تهدر على الطرقات المعبدة ، ويملاً ضجيجها وهاد نجد .  
وما كاد يمضي شهر او شهران حتى تعبد طريق جديدة وتصل يد العمران الى  
مناطق كانت شبه مجهولة حتى ذلك الحين . واصبح من السهل اجتياز الجزيرة  
العربية من الساحل الى الساحل - عبر الرياض - على طريق معبدة طولها الف  
كيلو متر ، يجتازها السائقون وكأنهم في نزهة ، كما اصبح بالامكان الانتقال  
بالسيارة من عدن الى بغداد ( ٣٤٠٠ كيلو متر ) .

ولكن اهتمام الملك كان منصرفاً بالدرجة الاولى الى الخطوط الحديدية رغم  
التطور المدهش في تعبيد الطرق البرية ، وكان المهندسون الاميركيون يصفون  
ابن سعود « بالملك الهاجس بالخطوط الحديدية » . فقد استدعى ممثلي احدى  
الشركات في نيويورك وطلب منهم وضع مخطط لمسد خط حديدي بين الرياض  
والظهران كان لا بد له من اجتياز ٦٠٠ كيلو متر وسط رمال الصحراء .

وجاء الخبراء يحملون الى الملك اكداس الخرائط والدراسات ليثبتوا ان  
المناطق الرملية لا تصلح لمسد خط حديدي ، فأزاح ابن سعود الخرائط كلها بيده  
وقال بلهجة حاسمة : « اريد خطاً حديدياً ، لقد احضرتكم لانشاءه ؟ فأما ان  
تفعلوا ، واما ان استدعي شركة اخرى ، ان كنتم عاجزين » .

ولم يمض شهران حتى كانت اول وصلة من الخط الحديدي تثبت في الرمال ،  
وظل الفا عامل يشتغلون ليل نهار طوال اربع سنوات ، وصبت الآف الاطنان  
من الاسمنت حيث لا تتحمل الارض وطأة القطارات ، او سكبت انهار من  
النفط الخام الذي يمتزج بالرمل فيحواله الى كتلة متجمدة تمد عليها الخطوط .

واصبح الخط الحديدي بين الرياض والظهران حقيقة راهنة في ٢٥ من تشرين  
الاول ١٩٥١ .

وزاد هذا النجاح في حماسة ابن سعود فأمر حالاً بتحقيق المشاريع التالية :

١ - مد خط حديدي طوله ٢٢٠٠ كيلومتر يصل البحر الاحمر بالخليج العربي عبر الرياض .

٢ - تمديد خط دمشق - المدينة ، عبر مكة حتى عدن .

٣ - اصلاح شبكة الخطوط الحديدية في الحجاز .

اما في حقل المواصلات الجوية فقد اصبحت المملكة السعودية ملتقى مختلف الخطوط الجوية العالمية . ووصلت بين اهم مدنها خطوط جوية منتظمة .

٨٤

ولكن ابن سعود لم يبذل شيئاً من طريقة عيشه بالرغم من ذهب البترول المتدفق على خزائن المملكة . لقد ظل يمارس حياة البداوة الخشنة التي اعتادها منذ كان طفلاً ، والتي مكنته من المقاومة عندما كان منفيماً في الربع الخالي . كان يأنف الاسرة الناعمة ، ويفضل النوم على مرتبة متواضعة ويهجر القصور الفخمة ليعيش تحت خيمة كلما سئحت له الظروف بذلك . وكان غذاؤه اليومي العادي يتألف من حليب النوق وقليل من اللحم والارز ، ومن حفنة من التمر ، ولم يكن يشرب سوى الماء والقهوة والشاي ، حتى انه طبع حياة الحاشية بالتقشف الذي يعيشه هو .

اما الرياض فما عادت تلك القرية الكبيرة التي عرفها الملك في صباه بل اصبحت مدينة تضم مئة الف نسمة ويعيش سكانها جميعاً على حساب الملك ، ويغدو كل من دخلها ضيفاً على الملك يجلس الى مائدته المفتوحة للجميع . وكان

موعد الغداء عند ظهر كل يوم، فيجتمع الوزراء والامراء والمستشارون والضيوف البارزون حول مائدة الملك فيبدأون حديثهم اليه بقولهم: « حياك الله ... » وينادونه باسمه مجرداً من كل لقب بشكل ينطوي على كل معاني البساطة والتواضع ... والعظمة في آن واحد .

وكان خلال الاجتماعات يتوجه بالحديث الى الجميع ، ويعرف الجميع ، ويهتم بأصغر المشكلات التي يعانيتها كل فرد . وكان يوسع اي مواطن ان يشكو اليه ظلامته فينصفه ، وكان يهوى الشعر ، ويستطيب النكتة الحلوة ، ويضحك لها من اعماق قلبه .

٨٥

كان الملك يردد : « اني لا انجس ارامكو قيمتها بل اقدرها حق قدرها » ، وهو لا يعني بذلك ما يدره عليه البترول من عائدات وحسب ، بل كان يفكر بالفوائد التي يجنيها الشعب كله .

فالعامل الاميركي الذي يؤتى به من الولايات المتحدة كان يكلف مبلغ ثلاثة الاف دولار قبل ان يباشر عمله ، فرأى المسؤولون في الشركة ان يقللوا ما استطاعوا من الايدي العاملة الاميركية ، فتقتصر على الادارة العليا والاجهزة الفنية ، وان يستعينوا باليد العاملة المحلية على اوسع مدى .

ولكن استخدام اليد العاملة المحلية كان يستلزم اولاً ايجاد مساكن للعمال ، فرصدت الشركة لذلك مبلغ ٢٦ مليون دولار ينفق لمدة خمس سنوات ابتداء من ١٩٤٥ لبناء بيوت سكن للعمال تتوافر فيها المياه الجارية والمطابخ الكهربائية وآلات تكييف الهواء .



وكان لا بد من تثقيف العمال وتدريبهم، ففتحت لذلك مدارس لتعليم العربية والانكليزية وتدريس الرياضيات ومبادئ استخدام الآلة، وانشئت مراكز صحية مجانية لمعالجة الامراض السارية. وسرعان ما اثبت الموظفون والعمال العرب كفاءتهم وأتقنوا مختلف المهن، وكان البعض منهم عندما يتوفر له رأس المال يتخلى عن عمله لينصرف الى تجارة حرة، كما ان الممولين السعوديين اقدموا على توظيف اموالهم في مشاريع والتزامات بدلا من خزنها في الصناديق.

كان ابن سعود مخلصاً في تقدير الخدمات التي تؤديها « ارامكو » في مختلف المجالات، ولكنه كان حريصاً على ان يحترم « الاساتذة الاجانب » عادات البلاد وتقاليدها.

لقد حمل البترول وما تبعه من ارتفاع الاجور، الى العرب كل ما في الغرب من مغريات. « ان مجتمعاً بكامله، لم يبدل طريقة حياته منذ قرون، اصبح الآن وجهاً لوجه امام المدنية الحديثة التي تهدده بالانهيار<sup>(١)</sup>. »

كان ابن سعود يرحب بمحاسن الحضارة الغربية، ولكنه كان يابى ان تتسرب معها مساوئها الهدامة التي يمكن ان تلقي برعاياه في خضم من الفوضى اين منها تلك التي عاشها اسلافهم.

وكان القرآن هو سند الملك الاقوى والفعال الذي اتاح له استبعاد تلك المساوئ، مثلما مكنه من تأسيس الاخوان وتوحيد القبائل المتنافرة.

كان ابن سعود حريصاً على ان يبقى العرب متصلين بماضيهم، محافظين على تقاليدهم، لتكون لهم درعاً يقيهم من سموم المدنية العصرية، فلم يسمح للاجانب

١ - موريس جارتو.

بانتهاك الشرائع الاسلامية في بلاده ، وحظر على ارامكو استخدام اي اميركي او غير اميركي يدين باليهودية ، واصدر عام ١٩٥٢ قراراً يمنع فيه ارامكو والبعثات الاجنبية من استيراد الخمر وقاية لشعبه من اخطار الكحول .

٨٦

اجل ، لقد ادت « ارامكو » للسعودية خدمات جلي ، ولكن المملكة العربية السعودية ادت بدورها للولايات المتحدة خدمات لم يكن روزفلت بنفسه يتصورها عندما دعا ابن سعود الى زيارته على ظهر المدمرة « كوينسي » .

فقد بدأت الولايات المتحدة منذ عام ١٩٤٦ تعاني ازمة نفط ، وراحت الشائعات حول انخفاض الطاقة الانتاجية في ميدان المحروقات تقلق الاوساط الاقتصادية . وتعددت ظاهرات التقنين في استهلاك البترول سواء في مجالات السير أو التدفئة المركزية بالرغم من قسوة الشتاء في ذلك العام . فما الذي حدث ؟... قيل ان احتياطي النفط في العام الجديد اوشك على النفاد نتيجة الاستهلاك الزائد زمن الحرب ، فاذا صح ذلك فإنه يعني ان الولايات المتحدة على وشك ان تتناهبها كارثة رهيبه .

اما في الواقع ، فلم تكن اسباب الازمة ، لحسن الحظ ، خطيرة الى هذا الحد . وجل ما في الامر ان الاستهلاك العام للنفط بين العامين ١٩٣٥ و ١٩٤٦ في الولايات المتحدة قد زاد بنسبة ٩٦ بالمئة ، في حين لم ترتفع نسبة الانتاج الى اكثر من ٣١ بالمئة . اي ان عجزاً مقداره ٦٥ بالمئة قد استمر طوال ايام الحرب ، ولم يكن سببه شح الآبار بل سوء حالة المصافي التي ارهقها العمل ، بلا هواة او رعاية كافية او اصلاح طوال مدة الحرب ، واصبح من الضروري استبدالها مما

يستلزم كميات من الفولاذ غير متوفرة لدى الولايات المتحدة في ذلك الحين ،  
للأزمة التي كانت تعانيها في إنتاج هذه المادة .

كان يعسر على الولايات المتحدة اجتياز الأزمة لولا وجود البترول السعودي .  
وحدث لأول مرة في التاريخ ان توجهت ناقلات البترول الأميركية لتتمون  
بالنفت من الشرق الأوسط . ذلك واقع لا يكاد يصدق ، ان يتحول مصدر  
البترول الأميركي الى مستوردين ، وان تجد نيويورك وشيكاغو في الظهران  
والبحرين وسيلة الخلاص من أزمة خانقة في مجالات الوقود

٨٧

إذا كان البترول لعربي حيوياً الى هذا الحد في زمن السلم بالنسبة الى لولايات  
المتحدة ، فما عساه يكون الحال في زمن الحرب عندما يزيد الاستهلاك عشرة  
أضعاف .

وهكذا وجدت الولايات المتحدة نفسها مرتبطة ، أكثر فأكثر ، بشؤون  
الشرقين الأدنى و الأوسط .

كانت الخطوة الأولى في هذا المجال قد ذكرنا في تشرين الأول من العام ١٩٤٢  
عندما تولى الجنرال « كونيولي » الاشراف على مصالح الحلفاء في الخليج العربي ،  
« واعفى البريطانيين من عبء مسؤولية تزويد الاتحاد السوفياتي بالمدات والمؤن  
عبر إيران » .

ثم حقق ترومان الخطوة التالية في ١٢ آذار ١٩٤٧ عندما بلغ كونيوليس :  
« ان بريطانيا لم تعد في وضع يمكنها من تحمل تبعاتها في تركيب والبيوتان ، وان

الولايات المتحدة اخذت على عاتقها ان تقوم بالمسؤوليات البريطانية في شرقي البحر الأبيض المتوسط وفي الشرق الأوسط .

ولم تبق هناك سوى مرحلة اخيرة ، اجتازها « جون فورستال » وزير الدفاع عندما اعلن في المؤتمر المشترك لرؤساء اركان الحرب المنعقد في ميامي ( ٢٣ حزيران ١٩٤٨ ) « ان الدفاع عن المملكة العربية السعودية يدخل في نطاق الدفاع عن العالم الحر » .

ولكن الشيء الذي اكتشفه الامير كيون رويداً رويداً ، كان الروس على علم به منذ زمن بعيد ، ولم تكن سياستهم ، في هذا المجال ، غير امتداد لسياسة التوسع القيصري . لم يشترط مولوتوف لدى اجتماعه بهتلر في اذار ١٩٤١ لعقد الحلف العسكري الالماني - الروسي ان تطلق يد موسكو في العراق وايران ، وان تستولي على جزء هام من المملكة العربية السعودية لتأمين الاشراف السوفياتي على الخليج العربي وخليج عدن ؟ وقد عرف ذلك من بعض وثائق ابرزت في محادثات « نورمبرغ » (١) .

ولبت ساسة الكرملين على مبدئهم منذ ذلك الحين . فقد عرض الجنرال تيموشنكو - على ما يقال - في المؤتمر الذي عقده هيئة اركان الحرب السوفياتية العليا في ٢٣ تشرين الثاني سنة ١٩٤٨ ، وحضره الاعضاء النافذون في المكتب السياسي للحزب الشيوعي ، خطة شاملة لعمليات عسكرية تتضمن « شن هجوم صاعق على الخليج العربي بواسطة جيش قوامه خمسون فرقة مصفحة (٢) » .

وبعد ذلك بعامين اي في تشرين الثاني ١٩٥٠ عقد الروس مؤتمراً في باطوم خاصاً بالشرق الأوسط ودرسوا فيه بحضور مندوبين عن الأوساط الشيوعية في

١ - نيويورك تايمس ١٩ اذار ١٩٤٩ .

٢ - « سامدي سوار » ٨ تشرين الاول ١٩٤٩ .

تركيا وفلسطين وايران والعراق وسورية ولبنان وشرقي الاردن ومصر وسائل  
حماية منطقة النفط في الاتحاد السوفياتي . « وللتوصل في الوقت نفسه ، الى  
موارد اخرى من المحروقات في البلاد المتاخمة ، »<sup>(١)</sup> .

كلها ظاهرات تدل بشكل حاسم على ان السياسة الروسية لم تتبدل ، وان  
اهدافها بقيت هي نفسها تدور دوماً حول المضائق والمتوسط والخليج العربي .

فالصراع الروسي - الاميركي على الخليج العربي لا بد منه ، لأنه من منطق  
الأشياء . فالولايات المتحدة والدول الغربية تشرف على ٩٠ بالمئة من انتاج النفط  
في العالم وعلى ٧٥ بالمئة من الاحتياطي المعروف ... فاي موقف ، ترى ، يكون  
للإتحاد السوفياتي في حالة حرب ، ونتاجه يبلغ عشرة بالمئة ، والاحتياطي لديه  
خمسة وعشرون بالمئة . وماذا تشكل ٣٧ مليوناً من الاطنان سنوياً بالنسبة الى  
٥٢٢ مليوناً يملكها تجمع الاطلسي<sup>(٢)</sup> .

ان على روسيا اذن معالجة هذا النقص .

وكيف يتأتى لها ذلك ، بغير الاستيلاء على آبار جديدة ؟ ولكن اين هذه  
الآبار الاكثر قرباً منها ؟ أليست هي ايران والعراق والجزيرة العربية ؟ !

وازداد الاميركيون قناعة باهمية المنطقة ، وادركوا ان العربية السعودية  
ليست نبعة للمحروقات فحسب بل القاعدة الكبرى المرنة التي يمكن ان ينطلق  
منها هجوم جوي ضد منابع النفط السوفياتي في « باكو » و « باطوم » .

ولم تضع وزارة الدفاع الاميركية شيئاً من الوقت في سباق القواعد الحربية

١ - مجلة « اللوستراميون » ٩ كانون الاول ١٩٥٠ .

٢ -- هذه الاحصاءات خاصة بالعام ١٩٤٤ . ( المترجم )

مع الاتحاد السوفياتي ، فأجرت محادثات مع ابن سعود سعياً الى تجديد اتفاقية  
الظهران التي تنتهي في شباط ١٩٥٠ . و جدد الاتفاق لمدة خمس سنوات اخرى  
في ١٥ تموز ١٩٥١ .

٨٨

اهمية الشرق الاوسط في مخططات السيطرة العالمية ، من المعطيات السياسية  
التي اتخذتها بريطانيا قاعدة منذ ان انطلقت من جزيرتها تشيد امبراطوريتها  
الواسعة . هذه الاهمية وعتمها روسيا منذ زمن بعيد ، غير ان الولايات المتحدة  
ما عرفتھا الا مؤخراً ، واحتلت في الشرق الأوسط مركزاً هاماً على حساب  
بريطانيا ، غير ان العناد البريطاني اشهر من ان يحفل ، ولن تتلقى بريطانيا  
الصفحة دون ردة فعل !

ذلك ان لها بعد في المنطقة مواقع قوية جداً بفضل رؤوس الاموال البريطانية  
الموظفة في استثمارات نפט العراق وايران<sup>(١)</sup> والنفوذ البريطاني رغم تقلصه  
يرتكز على هذه القواعد المالية وعلى شبكة خطوط الأنابيب العراقية -  
ال فلسطينية الممتدة من كركوك الى حيفا ومن بغداد الى طهران . وبالتالي ،  
فسياسة البترول البريطانية والسياسة الاميركية تتعارضان مباشرة .

كانت السياسة الاميركية غاية في البساطة ، فان احتياطي النفط في الغرب  
قد استنفد في تغذية حربين عالميتين وقدر المسؤولون عن الاقتصاد الاميركي ،  
الذين كانت أزمة ١٩٤٧ بمثابة انذار لهم ، ان من الضروري الاقتصاد في استهلاك  
النفط الاميركي الذي لن يدوم الى الأبد ، وكانت أفضل وسيلة لذلك اغراق

---

١ - لا بد من التذكير بأن بريطانيا كانت تملك ٤٨ بالمئة من نفط العراق و ٥١ بالمئة من  
النفط الايراني .

أوروبا بفيض من النفط السعودي بسعر منخفض يجعل تصدير النفط الأميركي إلى الخارج عملية خاسرة للشركات المنتجة .

أما سياسة بريطانيا فكانت تقوم - للأسباب نفسها - على الاقتصاد في استخراج نفط الامبراطورية وعلى استهلاك النفط الاجنبي - اي النفط الأميركي ، ذلك ما حمل حكومة لندن على تسعير نفط ايران والعراق بشكل يجعله اغلى من النفط الأميركي المستورد بطريق البحر .

وقد توصلت إلى ذلك عن طريق فرض « حد أعلى » للإنتاج على شركات النفط في الشرق الأدنى ، ومنعت بالتالي شركة نفط العراق من استخراج كميات سنوية تزيد على أربعة ملايين وسبعمائة الف طن ومن استثمار آبار جديدة .

وقد مرّ بنا ان ثغرة فتحت في هذا النظام يوم عمدت شركة نفط الخليج إلى بيع امتيازها من شركة « ستاندارد اويل اوف » ، ويوم قررت « ارامكو » تخطي الفيتو البريطاني والتوسع في استخراج آبار الاحساء . ولكن منوك المال في لندن لم يهزموا بهذا القرار ، فقد كانت لديهم وسيلة اخرى للتحكم في تحديد الاسعار .

فالنفط المستخرج من الظهران او البحرين يجب ان يدور حول شبه الجزيرة العربية ليسلك سعداً طريق البحر الأحمر ، ثم يعبر قناة السويس ومنها إلى الأسواق الأوروبية ، مما يشكل مسافة تبلغ ٧٠٠٠ كيلومتر . وكانت « ارامكو » لا تملك وسائل النقل الضرورية في حين انزلت بريطانيا إلى البحر ناقلات نفط جديدة صنعت زمن الحرب عندما كانت الولايات المتحدة منشغلة بصنع بوارج حربية بكميات كبيرة . وكانت مضطرة إلى استعمال ناقلاتها في خطوطها الداخلية ، وهكذا فان قسماً كبيراً من نفط الاحساء كان ينقل بواسطة شركات بريطانية .

يضاف إلى ذلك ان بريطانيا كانت تفرض رسماً يتراوح بين ١٥ و ٢٠ سنتاً

امير كيا على كل برميل يعبر قناة السويس . ولنا ان نتصور مقدار المبالغ المدفوعة عندما اصبحت ناقلات النفط تشكل ٥٨ بالمئة من الملاحه عبر قناة السويس عام ١٩٤٨ مقابل ٤٣،٩ عام ١٩٤٧ و ١٧ بالمئة عام ١٩٣٨

فقد واصلت بريطانيا ، اذن ، فرض ارادتها في تسعير النفط العربي :

اولاً - بتحديد غير مباشر لانتاج ارامكو التي كان باستطاعتها ان تطرح في السوق مقدار خمسين مليون طن في العام او - اكثر - لولا عرقلة انتاجها من جراء ضآلة وسائل النقل الموضوعه تحت تصرفها من قبل الشركات البريطانية .

ثانياً - برفع او تخفيض اسعار النقل .

ثالثاً - برفع او تخفيض رسوم المرور عبر قناة السويس .

ان الانتاج البترولي العربي كله كان لا بد من ان يعبر قناة السويس التي كانت بريطانيا تشرف عليها وتتحكم بواسطتها بأسعار الكلفة .

وكان طبيعياً ان يسعى الأمير كيون ، الى التحرر من هذه السيطرة . وكانت لديهم وسيلتان لذلك : الاولى بناء عشرين ناقلة نفط كبرى كافية لاستيعاب ٥٠٠ الف طن ، فتحل بذلك مشكلة اجور النقل دون ان تحل مشكلة رسوم القناة .

والثانية كانت تقضي بمد خط من الانابيب - تابلاين - عبر البلاد العربية يصل الظهران مباشرة بالبحر الابيض المتوسط ، وهو مشروع كان قيد النرس منذ عام ١٩٤٣ وجرى بحثه بين روزفلت وابن سعود على ظهر « كوينسي » وكان من شأن هذه الأنابيب التي ستمتد على مسافة ١٧٥٠ كيلومتراً اختصار المسافة الى الثلثين واتاحة صب ٤١ مليون ليتر من النفط يومياً في حوض المتوسط .



كان هذا المشروع ضربة أليمة لبريطانيا . ترى هل تستطيع شركة النفط الانكليزية الايرانية الصمود طويلاً امام المزاحمة الاميركية؟ والبلدان التي تعتمد عليها بريطانيا لاستمرار نفوذها في الشرق الادنى؟ هل تصبح بين عشية وضحاها عرضة للضياع والانهيار؟ لقد قام وجود العراق على نفطه ، وشرقي الاردن على حراسة خط انابيب النفط العراقي . وهكذا فان الحرب الحفيدة الناشبة بين « بترول الاسترليني » و « بترول الدولار » قد تحولت الى نزاع حاد بين الانابيب وناقلات البترول .

لم تعترض مد خط الانابيب في الاراضي السعودية اية عقبة . ولكن الامر كان على غير ذلك في المرحلة الثانية بين الحدود الشرقية الشمالية للعربية السعودية وساحل المتوسط ، اذ كان لا بد للخط هنا من اجتياز مناطق خاضعة للنفوذ البريطاني - شرقي الاردن وفلسطين - وكانت لندن مصممة على ان تحول بكل ما لديها من وسائل ، دون التابدين وبلوغ البحر .

وبدأ الاميركيون مرحلة مفاوضات متعبة وطويلة ، مع كل من شرقي الاردن وسورية ولبنان لمد الانابيب من الظهران الى صيدا .

وكانت الحكومة السورية تؤجل باستمرار اتخاذ قرار بهذا الشأن ، وتتذرع بمختلف الاعذار للتهرب من الموافقة على المشروع .

وتعثرت المحادثات سنوات طويلة ، حتى ان الانابيب التي كان مقرراً الانتهاء من مداها عام ١٩٤٦ لم تكن قد ظهرت الى حيز الوجود عام ١٩٤٩ .

كان الانكليز يقاومون وهم على ثقة بانهم لن يصمدوا الى النهاية في وجه المنافسة الاميركية . فسيأتي يوم تصبح فيه « بترول الدولار » ناقلاته التي تمكنه من الاستغناء عن الناقلات البريطانية ، وينتهي الامر بالتابلين الى الوصول

الى البحر . غير ان ما كان يهدف اليه البريطانيون هو ارهاق الشركات الاميركية حتى توافق على عقد اتفاقات جديدة ، وعلى قيام تشارك اميركي بريطاني على استثمار ثروة الشرق الاوسط النفطية يكون اكثر « عدالة » و« مساواة » من اتفاق عام ١٩٤٦ .

لقد عرض الانكليز في مناسبات عدة اقتراحات بهذا الشأن على واشنطن ، فرفضها الاميركيون . اما اليوم فان المشرفين على « ارامكو » بدأوا يفقدون شجاعتهم ، وراح بعضهم يتساءل : « اليس من الافضل التفاهم مع الانكليز والدخول في مفاوضات لهذه الغاية مع لندن ، فكان الانكليز على وشك اقتطاف ثمرة جهودهم عندما ظهرت على المسرح في سورية شخصية جديدة ما كان احد يتوقع بروزها : الزعيم حسني الزعيم .

لقد بدل استيلاؤه على السلطة في سورية قضية البترول من جميع وجوهها .

٨٩

فمن هو ذلك الرجل الذي دفعت به الأحداث الى مقدمة الصفوف ؟ ولد حسني الزعيم في حلب عام ١٨٩٧ وكان ضابطاً محترفاً تلقى جزءاً من دروسه العسكرية في فرنسا ، وخدم في الجيش التركي بين العامين ١٨١٧ و١٩١٨ وشارك في عملية الانسحاب من سورية بقيادة مصطفى كمال . وكان اول ضابط سوري تولى قيادة وحدة فرنسية بعد وصول الجنرال « غورو » الى بيروت . وفي عام ١٩٤١ عهد اليه الجنرال « دانتر » بقيادة احدى الفرق والدفاع عن دمشق ضد القوات البريطانية . ثم حكم عليه بالسجن بعد ان عقدت الهدنة ودخلت القوات الفرنسية الحرة والقوات البريطانية سورية . فلما اطلق سراحه عام ١٩٤٣ عين مفتشاً عاماً لقوى الأمن ثم قائداً عاماً للقوات السورية المسلحة . كان حسني الزعيم في مطلع عام ١٩٤٩ يسيطر على الجيش وقوى الأمن ،

فقرر مع ثلاثة من اصدقائه ضباط القيادة العليا : بهيج كلاس ، سامي الحناوي  
وأديب الشيشكلي ، قلب الحكم في سورية واقصاء الرئيس شكري القوتلي  
وحكومته .

وهكذا ارتد الجيش السوري العائد من فلسطين بقيادة حسني الزعيم على  
دمشق فاعتقل رئيس الدولة ورئيس الحكومة وبرز الوزراء دون اراقة نقطة من  
الدماء . واستقبل الشعب السوري الانقلاب بحماسة ، واعلنت استقالة الرئيس  
شكري القوتلي في السادس من نيسان ، وتلاه رئيس الحكومة خالد العظم في  
اليوم الثاني . وانتخب حسني الزعيم في الثامن والعشرين من ايار عام ١٩٤٩  
رئيساً للجمهورية بأكثرية ٧٢٦١١٦ صوتاً من اصل / ٧٣٠٧٣١ / نخباً ، فمنح  
نفسه رتبة مشير وعهد الى محسن البرازي بتأليف حكومة جديدة .

وكان حسني الزعيم يفكر باصلاح اجتماعي واقتصادي على غرار ما قام به  
مصطفى كمال في تركيا .

ولم تكن مشاريعه الاصلاحية هذه لتروق لجميع الناس . فسرعان ما قامت  
في وجهه معارضة شديدة ، كما اثار تميوله نحو فرنسا ، وعداؤه للملك عبد الله  
نقمة الاوساط الهاشمية التي كانت تعمل لانشاء حلف سوري - عراقي - اردني  
تابع للنفوذ البريطاني . ولكن هذه المعارضة لم تقلق حسني الزعيم وكان  
يشعر بقدرته على مواجهتها .

وما هي الا ايام حتى مهر حسني الزعيم بتوقيعه الاتفاق الذي يجيز لشركة  
« التابلاين » مد انابيبها عبر الاراضي السورية . (١)

١ - لقد قام حسني الزعيم بتوقيع ثلاثة اتفاقات وهي اتفاق الهدنة مع «اسرائيل» واتفاق  
التابلاين واتفاق النقد مع فرنسا . ( المترجم )

## وربح الدولار معركة النفط !

٩٠

كان لهذا النبأ وقع مثير في لندن ولم تخف الحكومة البريطانية قلقها من توقيع الاتفاق . وتقول جريدة « لوموند » ان جميع خبراء الشرق الأوسط الانكليز قد استدعوا لعقد اجتماع في وزارة الخارجية في الرابع والعشرين من حزيران عام ١٩٤٩ لتدارس كيفية مواجهة تدهور الموقف البريطاني في الشرق العربي . لقد خسرت حكومة العمال معظم اوراقها منذ تولت الحكم قبل خمس سنوات . وقلب حسني الزعيم مخططات بريطانيا التي عكفت على اقامة دويلات موالية على طول ساحل المتوسط لتأمين استمرار المواصلات بين بغداد والقاهرة والحوؤل دون وصول ابن سعود الى البحر المتوسط .

لقد كان هذا الهدف الشغل الشاغل لجميع رجال الدولة البريطانيين الذين تعاقبوا على الحكم منذ عام ١٩١٩ فيما كان ابن سعود يوجه الضربة تلو الضربة للمعازل البريطانية تارة هنا وطوراً هناك .

فقد توغل السعوديون للمرة الاولى عام ١٩١٩ في الجوف وطريف واضطرتهم بريطانيا الى الانسحاب تحت وابل من القنابل . ثم احتل الاخوان للمرة الثانية ممر وادي السرحان فقطعوا الاتصال بين شرقي الاردن والعراق ، وادركوا الحدود السورية ولكن الانكليز تمكنوا من اجلائهم عن طريق المفاوضة . وها هو ابن سعود يعود مرة ثالثة على متن فيض من البترول ، وساعياً للتحالف مع حسني الزعيم .

ان معنى ذلك القضاء على النفوذ البريطاني في المنطقة ، فالنفط الاميركي

سيسيل حراً الى البحر الابيض المتوسط ولن يكون في وسع شركتي نפט العراق وايران الصمود في وجه منافسة ( الارامكو ) وستضطران الى التخلي عن مواقعها لشركات اميركية وتصبح بريطانيا تابعة للولايات المتحدة على صعيد النفط الذي يغذي طيرانها وبحريتها .

اما النتائج السياسية فكانت لا تقل سوءاً، فلسوف ينفصل العراق عن شرقي الاردن وينعزل كل منها عن الآخر مما يهدد بانهارهما ، فتفقد بريطانيا بذلك آخر اثنتين من دعائم نفوذها في الشرق .

وعلاوة على ذلك فقد تأسست الجامعة العربية، بمساعي عبد الرحمن عزام احد المؤمنين المتحمسين للوحدة العربية، واعلن ميثاقها في القاهرة يوم الثاني والعشرين من اذار ١٩٤٥ لتنسيق التعاون بين مختلف الدول العربية في الشرق الادنى ، فاضحى ابن سعود « المغامر الذي لا مكان له على مائدة الامراء » كما كان يقول لورنس - عضواً نافذاً في هذه الجامعة منذ تأسيسها . وكانت تتألف من سبع اعضاء : « مصر والسعودية واليمن وشرقي الاردن والعراق وسورية ولبنان » . وكانت القرارات فيها تتخذ بالأكثرية ، فتصوت مصر والمملكة العربية السعودية واليمن في جانب ، بينما يصوت العراق وشرقي الاردن في الجانب المعاكس . وكان الحلف السوري - اللبناني هو الذي يرجع الكفة لمصلحة هذا الفريق او ذلك ، فاذا ما اصبحت سورية ويتبعها لبنان آلياً في صف بن سعود ، فستكون للمملكة السعودية خمسة اصوات من اصل سبعة . وتصبح مع مصر سيادة جامعة العربية .

وقرر الخبراء في وزارة الخارجية انه لا يجوز ان تاتف لندن مكتوفة اليدين . وجاء الحل بعد عشرين يوماً سريعاً وعنيفاً .

ففي الرابع عشر من آب ١٩٤٩ . ساعة الثالثة صباحاً ، فيم كانت قود من

الجيش تطوق القصر الجمهوري بدمشق توقفت ثلاث سيارات مصفحة امام المدخل ونزل منها عدد من الضباط فتبادلوا والحرس بعض الطلقات النارية ثم اقتحموا غرفة حسني الزعيم وقتلوه . وكان على رأس هؤلاء الضباط الزعيم سامي الحناوي .

ونقلت جثة حسني الزعيم الى سجن المزة فيما توجه فريق اخر من الضباط الى منزل رئيس الوزراء محسن البرازي الذي لقي المصير نفسه ووضعت جثته الى جانب جثة المشير في المزة .

واستولى الزعيم سامي الحناوي على السلطة، واعلن للشعب من محطة الاذاعة « انتهاء عهد الظلم والطغيان » .

ومر حسني الزعيم مروراً عابراً في افق السياسة السورية .

وفاز « النفط الاسترليني » بالجولة الثانية .

٩١

لقد ساد الاعتقاد في دمشق بأن بريطانيا كانت وراء اغتيال حسني الزعيم ، وسيان ان ذلك صحيحاً ام لم يكن ، فالثابت ان حكومة لندن قد تنفست الصعداء حيال الاحداث التي هزت عاصمة الامويين صبيحة الرابع عشر من آب عام ١٩٤٩ .

وعاد خبراء وزارة الخارجية البريطانية الى الملفات القديمة فرأوا ان الضرورة تقضي بالعودة الى الخطط التي رسمها الكولونيل لورنس ، والى بعث مشروع الاتحاد العربي تحت سيطرة الهاشميين . سيكون مشروعاً اقل طموحاً

من ذلك الذي وضعت خطوطه عام ١٩١٩ وسيضم اقطاراً ومساحة اقل ولكنه سيحمل اسماً شعرياً جميلاً : « الهلال الخصيب » .

وكان مفروضاً ان يتحقق المشروع البريطاني على مرحلتين : توحيد سورية ولبنان وشرقي الاردن اولاً ، ومن ثم اتحادهما مع العراق تحت تاج الملك عبد الله او الملك فيصل الثاني حفيد فيصل الاول الذي كان لا يزال يتلقى علومه في جامعة « هارو » البريطانية ، على ان يتألف مجلس وصاية يضم بالاضافة الى الملك عبد الله والامير عبد الاله الوصي على عرش العراق ، كلاً من رئيسي الجمهوريتين السورية واللبنانية ورئيسي الطائفتين الشيعية والمارونية .

ولكن الاكثية الساحقة من السوريين واللبنانيين عارضت مشروع الاتحاد، هذا الذي لم يكن في الواقع « سورية الكبرى » بل كان عبارة عن « عراق كبير » . ووافق الجمهوريون السوريون على الاتحاد مع العراق وحده شرط ان يتخلى عن النظام الملكي ، مما كان يتنافى واهداف الانكليز في اخضاع سورية للسيطرة الهاشمية ... او بتعبير صحح ملك صديق للندن . فمظنوب اذن ان تتخلى سورية عن النظام الجمهوري .

في التاسع عشر من كانون الاول عام ١٩٥٠ ، افقت دمشق صبيحة ذلك اليوم على انقلاب عسكري جديد بقيادة العقيد ديب الشيشكلي ، وعلن راديو دمشق انه ثبت للجيش لسوري ان اللواء الحسني ونسيبه اسعد طلس يتآمران لضم سورية الى احد الأقطار المجاورة ، وان الجيش قام بحركة هذه خلاصاً منه للنظام الجمهوري والدستور .

١ .. وهنا يستعرض المؤلف بعض الاختلاطات التي كانت تتصف بها مشاريع الاتحادات لينتهي الى القول بان المساعي قد اتجهت اخيراً الى اقامة وحدة بين سوريا والعراق يعمل بها بعض حكام العراق مع فريق من السياسيين السوريين وهذا وقع انقلاب الشيشكلي .

وفي الثلاثين من تشرين الاول عام ١٩٥٠ قتل سامي الحناوي برصاص محمد  
حرشو البرازي - نسيب محسن البرازي - فيما كان يغادر منزله في حي المزرعة  
في الضاحية الجنوبية من بيروت .

كانت الضربة قاسية على لندن . ولم يعد هناك اي شك بأن انابيب البترول  
ستصل قريباً الى البحر .

١٢

وحل الثالث عشر من تشرين الثاني عام ١٩٥٠ ، فادار ابن سعود بعد صلاة  
الظهر جهاز التحويل فتدفقت من « ابيق » السيول الاولى من النفط الخام عبر  
الانابيب في طريقها الى الهدف البعيد : « صيدا » .

وكان المشروع الذي تحقق جباراً ، فإن خط انابيب البترول عبر البلاد  
العربية يقطع مسافة ١٧٨٣ كيلومتراً بين منابع النفط في الاحساء ومصبه على  
ساحل البحر الابيض المتوسط ، وبلغت تكاليفه ٢٨٠ مليون دولار ، واشترك  
اسطول من البواخر في نقل المعدات اللازمة لانشائه ، والتي قدرت بثلاثة  
مليارات من الاطنان ، بينما استهلك الخط نفسه ٢٦٥ الف طن من الانابيب  
الفولاذية ، وساهمت خمسة آلاف شركة في تأمين احتياجاته .

وشقت على طول الخط طريق معبدة يبلغ طولها الفا وثمانماية كيلومتر  
تعبرها ليل نهار اكثر من ١٥٠٠ شاحنة ، وتحوم فوقها الطائرات ساعة بعد ساعة  
لمراقبة ورشات العمل والحماية ، وحفرت اربعون بئراً على طول الطريق لحاجات  
العمل والعمال ويرتوي منها الآن مئة الف بدوي مع قطعانهم في حائل .



واقامت خمس مضخات على خط الانابيب في المملكة العربية السعودية لم تلبث ان تحولت الى محطات لاقامة الخبراء الاميركيين والى مراكز زراعية جديدة للاخوان ثم الى مدن حديثة بكل ~~مقتطبه~~ من مساجد ومستشفيات ومحطات كهربائية وملاعب رياضية واحواض سباحة على احدث طراز .

ان ما حققته « شركة الانابيب عبر البلاد العربية » ( التابلاين ) اين منه طاقة ناقلات البترول الخمس والستين التي كان لا بد لها من ان تقطع خمسة الاف كيلومتر حول شبه الجزيرة العربية . فمدة اجتياز المسافة تختصر عشرة ايام . والانابيب تنقل يومياً ٣٥٠ الف برميل اي ٤١ مليون ليتر الى خزانات جبارة انشئت في صيدا تتسع لسبعة ملايين برميل وهي كمية تتجاوز انتاج البترول اليومي في الولايات المتحدة .

وهكذا استطاعت « ارامكو » بواسطة « التابلاين » اغراق الأسواق الاوربية بفيض من النفط الارخص والأفضل ، ومن زيادة انتاجها اربعة اضعاف ، مما ضاعف بالنسبة نفسها دخل المملكة العربية السعودية من النفط . وهكذا ربح النفط الدولار الجولة الاخيرة .

٩٣

نظرة الى الأوضاع التي كانت تسود الدول الواقعة على البحر المتوسط او على الخليج العربي عام ١٩٥١ ، كانت تكفي للدلالة على فقدان الاستقرار ، فقد كان كل شيء في غليان من القاهرة حتى طهران .

وكانت المملكة العربية السعودية تبدو في وسط هذه العواصف وكأنها واحة الاستقرار والأمان ، بينما كانت الاغتيالات والثورات والانقلابات تتلاحق في الاردن وسورية ومصر والعراق وايران ، فاختلطت فيها الوطنية بالشيوعية ، والعنصرية بالعصبية الدينية ، ووجدت الجمعيات والمنظمات السرية والعلنية ، في ربوعها ، ارضاً خصيبة .

لقد كانت هذه الاقطار احوج ما تكون الى حكمة ابن سعود وتجاربه وبعد نظره للتغلب على متاعبها ومشكلاتها .

لقد اغتيل رياض الصلح في السادس عشر من تموز عام ١٩٥١ خلال زيارة قام بها الى الاردن ، ثم اغتيل الملك عبد الله نفسه وهو على اهة دخول المسجد الاقصى في القدس لتأدية الصلاة .

وكان عبد الله آخر عمود من اعمدة الهيكل الذي اراد لورنس بناءه سنة ١٩١٩ على انقراض الامبراطورية العثمانية . وكان غيابه عن المسرح ضربة للنفوذ البريطاني لاسيما وان ولي عهده ووريثه الامير طلال كان معروفاً بكرمه للانكليز .

وبدأ القلق يساور حكومة لندن على مصير الاردن فحاولت التقرب من ابن سعود . ودعا رئيس حكومة العمال الامير فيصل بن عبد العزيز الذي كان ينوب عن والده في تصريف الشؤون الخارجية ، للتفاوض معه ، ليس في القاهرة كما في السابق بل في لندن نفسها . واستقبل هربرت موريسون وكليمانت اتلي الامير فيصل في مقر رئاسة الحكومة البريطانية بكثير من الحفاوة والتكريم . ولكن الامير فيصل ابدى تحفظاً وحذراً ، ولم يشأ الارتباط بأي تعهد عندما رجاه الدبلوماسيان البريطانيان في ٨ - ١١ آب ١٩٥١ الا تتدخل حكومته اذا اقدم العراق على ابتلاع شرقي الاردن .

وارغم الانكليز على القبول بانتقال عرش عمان الى الامير طلال (٥ ايلول ١٩٥١ ، الذي لم يلبث بعد توليه الملك ان اشتبك في صراع سافر مع الجنرال كلوب باشا ، مع ان هذا الاخير كان قد اعلن انه سيخدم الملك الجديد بالاخلاص الذي كان يخدم به والده الراحل . ولكن الملك طلال كان يريد عزله من قيادة الجيش . وبعد سلسلة اصطدامات مضحكة مبكية بين الجانبين ، وبعد ان ساءت حالة

الملك الصحية ، اجتمع مجلس النواب الاردني وقرر تنحية الملك طلال «لأسباب صحية» وطلب اليه ان يسافر للمعالجة والاستراحة في مصحة قرب جنيف .  
وخلف الملك الفتى حسين بن طلال والده علي العرش الهاشمي ( ٢ ايار ١٩٥٢ ) .

اما في سورية فقد كان الشيشكلي يبدو سيد الموقف حتى اواخر عام ١٩٥٣ عندما نشبت الثورة بقيادة سلطان باشا الاطرش وكان لوجود سلطان باشا على رأسها معنى كبير . فهو الذي حارب الاتراك عام ١٩١٧ الى جانب نورنس . وكان في الثاني من تشرين الاول ١٩١٨ اول من دخل دمشق . وكان هو ايضاً في خلال الأعوام ١٩٢٢ - ١٩٢٥ قائد الثورة ضد الفرنسيين .

اندلعت نيران الثورة ضد الشيشكلي من قرية المزرعة حيث كان سلطان باشا الاطرش قد اعد كميات من الاسلحة والذخيرة والبنادق الرشاشة وانقنابل اليدوية . ولكن الجيش تمكن من اخماد الثورة بعد قتال دام عدة اسابيع ولجأ سلطان باشا الى الاردن . وما ان خيم الهدوء على جبل الدروز حتى قامت حركة تمرد داخل الجيش في حلب ( شباط ١٩٥٤ ) لم تلبث ان اتسع نطاقها فغادر الشيشكلي البلاد لاجئاً الى المملكة العربية السعودية .

أما في وادي النيل فقد كان الموقف اشد اضطراراً اذ مزق النحاس باشا في التاسع من تشرين الاول عام ١٩٥١ معاهدة عام ١٩٣٦ مع الانكليز . وقامت الجماهير تحرق المباني الانكليزية في القاهرة من متاجر ومصارف وشركات ملاحه يدفعها الحقد على البريطانيين ، بل على كل ما هو اجني . وتحول فندق « شيرد » الشهير الى اطلال من الحجارة السوداء .

ومشى في اليوم التالي مليون من سكان القاهرة في تظاهرة صامتة احتجاجاً على وجود القوات البريطانية في السويس . وكان النحاس باشا نفسه على رأس المتظاهرين ( ١٤ تشرين الأول ١٩٥١ ) .

وكانت بريطانيا قد اتخذت تدابيرها الاحتياطية فوصلت فرقة المظليين السادسة عشرة التي يدعى افرادها « الشياطين الحمر »، من قبرص الى الاسماعيلية بانتظار وصول نجات اخرى . وكان الاسطول البريطاني في البحر المتوسط في حالة تأهب . وصرح سفير بريطانيا في القاهرة ان حكومته لن تراجع امام التحدي فيما كان النحاس باشا يتقدم من مجلس الوزراء بمشروع اعلان التعبئة العامة في البلاد واصبحت الحرب متوقعة من وقت الى آخر .

وحاولت العناصر المعتدلة ان تتدخل لتلافي تدهور الموقف ، ونصح الامير كيون الفريقين بالتريث والحذر . وبدا الملك فاروق مستعداً للتفاهم مع الانكليز عندما استولى على السلطة فجأة فريق من الضباط الشبان برئاسة اللواء محمد نجيب ، تماماً كما فعل حسني الزعيم واديب الشيشكلي في سورية ، فاقصوا الملك فاروق عن العرش واستبدلوا الملكية بدكتاتورية عسكرية ، وانذروا الانكليز بالجلء فوراً عن السويس والسودان .

ورأت شركة « ارامكو » ، وهي تشهد ارتفاع موجة الحماسة الوطنية في العالم العربي ، ان تستجيب لضغط الحكومة السعودية . فأعلن مجلس ادارتها في اول كانون الثاني عام ١٩٥١ موافقته على تعديل الاتفاق مع ابن سعود تعديلاً شاملاً ، بحيث تدفع الشركة خمسين بالمئة من ارباحها للخزانة السعودية . كما اعترفت بحق الملك ، بوصفه رئيس دولة ، في ان يفرض ضريبة على عائدات الشركة .

تلك اول مرة في التاريخ تتخلى فيها شركة مستثمرة كبرى عن جزء هام من امتيازاتها وتضع نفسها تحت سلطة قوانين الدولة التي تعمل في اراضيها وتستثمر ثرواتها . وكانت هذه الخطوة نقطة انطلاق مبدأ المناصفة .

وكان لا بد ان يكون لهذا القرار سلسلة ردات فعل في البلاد المنتجة للنفط التي منحت شركات اجنبية حق استثمار النفط في بلادها .

فقامت الاوساط الوطنية في العراق بحملة عنيفة تهدف الى اعادة النظر في الاتفاق مع شركة نفط العراق وكان امتيازها على وشك ان ينتهي . اما في ايران فقد لقي الجنرال رازمارا رئيس الحكومة الموالية للانكليز ، مصرعه اغتيالاً ( ٧ اذار ١٩٥١ ) فخلفه الدكتور مصدق الذي قاد على الاثر حملة قوية ترمي الى تأميم النفط واخراج الانكليز . وهكذا ، هبت الرياح التي لم تلبث ان تحولت الى عواصف من القاهرة الى طهران ، مروراً بعمان ودمشق وبغداد .

واستمرت بريطانيا في المقاومة رغم كسوف هيبتها وتضاؤل مواردها الاقتصادية ، وظلت توطد مواقعها الاستعمارية بذلك النوع من العناد الذي اتاح لها في الماضي ان تحول سلسلة هزائنها الى انتصار .

ذلك ما كان عليه الوضع في الشرق الأدنى ، في الوقت الذي كان فيه ملك العربية السعودية يوشك على تخطي عتبة عامه الرابع والسبعين . لكم تبدلت معالم الأشياء منذ طفولته حتى الآن ! ... لقد كانت حياته الحافلة تبدو وكأنها اجيال من البشر تعاقبت منذ فجر ذلك اليوم البعيد ، يوم طرق مسامع الطفل عبد العزيز للمرة الأولى نداء المؤذن يتعالى في الفضاء ، داعياً المؤمنين الى الصلاة .

ان عالماً بات يفصل بين قصرالرياض الأثري ، حيث رأى النور ، وبين المنشآت الصناعية في الظهران من خزانات فولاذية ومدارج طيران ومصانع وطائرات تملأ الفضاء بهدير محركاتها . ما اقل الرجال الذين يستطيعون ان يفاخروا انهم قطعوا مثل هذا الشوط في حياتهم .

لقد بدأ عبد العزيز حياته وهو لا يملك سقفاً بأوي اليه ، فاصبح الآن يحكم مملكة يزيد عدد سكانها على ستة ملايين نسمة ، وتبلغ مساحتها مليوناً و ٩٠٨ آلاف كيلومتر مربع .

ترى هل كان ابن سعود يتصور ان تتحول احلامه الى هذا الواقع ، حتى في  
اشد ساعات شبابه حماسة ، يوم كان يعيش في صحراء الربع الخالي الملتهبة  
منفياً ومشرداً ؟ ... ويوم اقسام على تحرير الجزيرة العربية وتوحيدها ! ...

ها هي اربعة اخماس شبه الجزيرة محررة موحدة خاضعة لسلطانه ، وهذا  
سيفه يبسط ظله على مساحات شاسعة تطل على بحرين ... وهذه قفزة  
الاحساء التطورية الجبارة توفر لبلاده مستوى اقتصادياً رفيعاً وتجعل منها  
بلداً من اغنى اقطار العالم .

وهذه مدينة الرسول ومكة المكرمة ... وفيها ضريح النبي وبيت الله ،  
ومنها ينبع الايمان ، تجتذبان كل عام اكثر من ٣٠٠ الف حاج ويمتد اشعاعه  
من الاطلسي الى الصين ! ...

ألا يمكن القول بأن هذا النجاح الذي حققه قد تجاوز آماله وامانيه ؟ ...

لقد جاهد « فهد الرياض » طويلاً حتى بلغ هذه الاهداف ، فلم يهن له عزم ،  
وما انهارت ارادته مرة أمام العقبات . لقد عرف كيف يترقب الساعة الملائمة ،  
وكيف يصبر حين لا يستطيع القتال ، وكيف يبقى مترصداً اشهرأ وسنين  
بانتظار اللحظة المناسبة للانقضاض على خصمه .

لقد دلل طيلة اكثر من نصف قرن على انه كان شجاعاً وحذراً ، قوياً ومرناً ،  
متصلاً ومداوراً .

لقد رزقه الله حظاً نادراً اذ اكتشف الماء عندما بدأ يشعر بأن الجفاف  
سيخذه ، وتدفق الذهب الاسود في بلاده حين رأى نفسه مشلولاً امام  
الفاقة .

وأى توافق عجيب في الظروف رافق مراحل صعوده مع التطورات

العالمية ! فقد اتاح له تضعف الامبراطوريه العثمانية استرجاع نجد وفتح الاحساء ، كما سهل له ضعف الامبراطورية البريطانية تخليص الحجاز واحتلال حائل . وأدى تصاعد القوة الأميركية الى الاسراع في تقدم شبه الجزيرة وتطورها . ولما بدأ الأميركيون يرفعون صوتهم ، ظهر الألمان على المسرح من جديد وجاءوا يحملون إلى الملك الحلول البديلة ، فاستطاع بذلك الا يشعر بانه تحت رحمة أي انسان . لقد حلت عليه « البركة » ، فهو مؤسس أسرة ومجتمعات بشرية ومدن ، ثم هو موحد اقاليم ومؤسس مملكة ، وكانت فعاليته بارزة في جميع المجالات ، لقد بلغ قمة النجاح والتوفيق .

لو جاء ابن سعود قبل عشرين ، أو بعد عشرين عاماً ، لكان تحقيق مثل هذا النجاح الذي حققه امراً مستحيلاً .

لقد تمكن بفضل انحسار المد العثماني من فرض الوحدة على قبائل الصحراء ، ومن جمع شتاتها المبعثرة والحيولة دون وقوعها تحت سيطرة اجنبية . ولولا العمل الذي حققه خلال الأعوام ١٩٠٠ حتى ١٩٢٥ لما كان في وسع ابن سعود ان يتحرر من الأتراك وان يصمد امام لندن ، وان يفرض شروطه على واشنطن ، ولأصبحت الجزيرة العربية ، التي كانت تابعة للسلطان ومطية لوزارة الخارجية البريطانية ، مجرد ( مجال ) يستثمره البيت الأبيض .

يقول كلمنصو : « ان اعظم ما في هذه الحياة ان يشق المرء لنفسه طريقاً بين الرجال » . واما ابن سعود فقد شق لنفسه طريقاً بين الممالك والامبراطوريات !

غير ان الجزيرة العربية اذا كانت قد افادت حتى الآن من تطور العالم ، فهي معرضة بالمثل لأن تكون ضحية ذلك التطور في وقت قريب . إن فقرها وعزلتها ابقياها في قديم الزمان ، في منأى عن الاحداث التاريخية الكبرى . ولقد مضى ذلك الزمان الذي كان يمكن التحدث فيه عن « العربية السعيدة » ، لأن



الثروات التي لا تصدق، والتي اكتشفت في ارضها، تهدد بأن تجعل منها واحدة من أشد المناطق تعرضاً للمطامع . لقد بات محالاً على الجزيرة العربية ان تنزوي في حياذ مريح لتلعب مرة اخرى لعبة الدول المتصارعة ، وليس في ذلك من حرج ، فقد فقدت في هذا العصر كلمة الاستقلال الكثير من قيمتها ومعناها . فأبي استقلال بقي للشعوب الصغيرة في ايامنا هذه ؟ ...

إن نشيد الحرية لم يعد يرن ابداً الا حيث يعلو دوي الأعاصير الذرية في « هانفورد » أو في « كيلينوسك » . إن الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي هما وحدهما سيدا نفسيهما كلياً . إن كل الدول الأخرى قد تحولت في هذا المجال ، إلى دور ثانوي ، ولكن بعضاً منها يرفض التسليم بالأمر الواقع ، معتزلاً بعظمته السالفة ، فيخال نفسه ما برح حراً في تكييف مصيره على هواه . وما ذلك غير وهم وخيال .

ثمة صعيد آخر يفسح فيه تطور الجزيرة العربية مجالاً واسعاً للتفكير . إن الرغبة في الوثوب ، عبر الف عام من التاريخ ، بتخطي المراحل الفاصلة ، والتحول فجأة من العشائرية الى النظم الرأسمالية المعاصرة الاكثر تقدماً ... ليس بعملية سهلة يمكن تحقيقها بغير متاعب ، فلقد تنجم عن هذا « التبدل » الجماعي انعكاسات نفسانية غير متوقعة بقدر ما يكون التبدل سريعاً وعنيفاً . كيف سيتحمل المرء قطيعته لوسائل الحياة التي عرفتها الاجيال السابقة لجيله ؟ .. اترأه يستطيع التكيف ، انى امد بعيد ، بالاوضاع الجديدة التي تكتنف وجوده اليوم ؟ الا يخشى عليه من ان يتحطم ، عبر الطريق ، اذا لم يراع مراحل التطور الطبيعية ؟ .. وهل تتوافر له اخيراً الطاقة العقلية لاكتساب واستيعاب مجموعة المعارف التي سوف يفرضها عليه قريباً وضعه الجديد ؟ ..

على هذا يجب « نوربرت بيسوف » احد المراقبين لشؤون الشرق الادنى ،



جازماً بالايجاب . فان الصورة التي يقدمها لنا التاريخ عن ركود البدو ليست  
- في اعتقاده - ميزة ملازمة لطبيعتهم ، بل انها انعكاس لركود المحيط الذي  
عاشوا فيه .

والملكية الخاصة . على حد قوله - هي ركيزة كل مجتمع ، والواقع ان  
البدوي لا يملك شيئاً على وجه التقريب . ان تاريخه يبدأ بمولده وينتهي بوفاته .  
ليس ثمة صلة تاريخية او أثرية تربطه بالماضي ، وليس ما يشد به الى الارض ،  
لا مسكن ولا مستقر ، انه يجوب القفر او الصحراء ، حاملاً تراثاً يستطيع  
على كل حال ، ان يجد بديلاً عنه في اي وقت وفي اي مكان .

ان ضغط الظروف الآتية هو الذي يكتون وحدة القبيلة تحت سلطة زعيمها ،  
ولكن سرعان ما تتفكك بضغط ظروف اخرى مغايرة . مرونة ورشاقة  
فائقتان : تلك هما القاعدتان اللتان يتوجب على المرء اتباعهما اذ يحيا وجهاً لوجه  
مع طبيعة عدوية تملك تفوقاً جلياً ظاهراً على الانسان .

ويملك البدو في مقابل ذلك ، جعبة غنية بالتجارب ودقة الملاحظة المرتبطة  
بشقي نواحي الحياة اليومية . وانه لمن فادح الخطأ اعتبار ثمره هذه الخبرة ،  
البعيدة الامد ، دليلاً على انها تقليد اصيل موروث ، بل لا بد ان نرى فيها  
الشاهد على عدم تبدل اوضاع الحياة الخارجية التي يخوض البدو في غمرها ،  
منذ الآف السنين ، معركتهم المريرة ، ضد طبيعة لا تني عدوة الانسان . لقد  
توصلوا في هذا الصراع الى درجة لا تصدق من التكيف مع الطبيعة المحيطة بهم ،  
ولكن هذا التكيف ، الذي هو ثمره تجاربهم ، لا تمتد جذوره الى نفوسهم ، بل  
هو من وحي الحاجة الحاضرة ، ولهذا يتخلون عنه باكثر ما يمكن من السهولة عندما  
يوفر لهم اي تبديل في ظروف حياتهم ، اسلحة اقل كلفة ، او اشد مضاء في  
كفاحهم من اجل الحياة .

ولهذا بالذات فإن الشعوب الاكثر تخلفاً من الناحية الثقافية . . . والشعوب

الاقرب الى الحياة البدائية هي التي تبدي مقاومة اقل في وجه التقنية الحديثة وتتقبل سحرها بحماسة الاطفال . انها لنقطة اساسية اذا اردنا فهم تركيب العقلية البدوية وتطور الشرق المعاصر .

ذلك ما احسه ابن سعود ، ولما كان على معرفة حميمة بشعبه ، فقد ادرك ان انتشار هذا الشعب من خموله وعدم استقراره وهما صفتان غير متناقضتين الا في الظاهر يستلزم ان يبدأ بتعديل معطيات حياته ، والا فان المجهود الاصلاحى لا بد ان يتكرر كل يوم .

لقد رأى ان لا بد من تزويد الجماعات البدوية بتنظيم اجتماعي متسلسل راسخ الجذور في الأرض جدير بالبقاء . او لم يكن انشاء الاخوان في عرفه ، الا تحقيقاً لهذا الهدف ؟ اليس من اجل ذلك كان ابن عبد الرحمن يشرح بلا ملل لرواد « الاورطاوية » الاوائل كيف ان مستقبل الجزيرة العربية كله كان منوطاً بنجاح مشروعهم ؟ وهل كانت هناك ثمة وسيلة اخرى لوقف تشتت طاقات البدو المريع الذي كان يقودهم ، قرناً بعد قرن ، الى التفجر في الخارج او الى التناحر فوق ارضهم ؟ كان لا بد من اجل تمكين الجزيرة العربية السعودية من احتلال مكانها بين الشعوب الحديثة ، من تركيز الاجيال الصاعدة واستبدال مضارب الشعر لديها ببيوت من الحجارة ، وان يغرس فيها حب للوطن اقوى من نداء الصحراء .

وكان بديهياً الا يتم انقلاب من هذا النوع دون اثاره اضطرابات في اعماق تلك النفوس المتمسكة اشد التمسك بتقاليدها وعاداتها .

يقول الكاتب « جيرالد دوغوري » : « ان الجزيرة العربية لم تنس اسرار ماضيها ولا ما هي مدينة به لحضارتها العريقة . فهل يتوجب عليها الانسلاخ عن ذلك كله لتتلقى من الغرب منافع من نوع آخر ؟ » .

ولكن مطامح الملك عبد العزيز كانت آفاقها الفكرية اوسع من ذلك وارتفع، فالذي كان ينشده من « ممشاة العربية السعودية للعصر الحديث دون استسلامها لهذا العصر » لم يكن ظهور اضطرابات اجتماعية بل تكوين امة بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، اي تكوين جسم اجتماعي مزود بكل الوسائل الضرورية لبقائه واستمراره وجديراً بأن يكون رائداً ومثلاً للدول العربية الاخرى .

فهل يتمكن ابن سعود وخلفاؤه من الوصول بالتجربة الى هدفها السليم ؟ وهل يعيدون الى الاسلام قوته وبريقه اللذين كانا في زمن عظمته السالفة ؟

ثلاث موجات علت حتى الآن بالجزيرة العربية وجعلتها تتخطى ذاتها وتفجر عبقريتها التي تألفت حتى أدركت النجوم .

كانت الموجة الأولى موجة الفتوحات الاسلامية من القرن السابع حتى الثاني عشر ، وكانت الموجة الثانية ... موجة محمد بن عبد الوهاب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وها هي الموجة الثالثة ، موجة ابن سعود ، تنطلق وتتعاظم أمام أعيننا اليوم . فهل تبلغ الاوج وتحقق النظر الموعود ؟ أم أنها ستبدد وتنحسر لتفسح المجال امام اجيال من السكون والجمود تتكون خلالها ببطء عناصر الموجة التالية ؟

هذه اسئلة لا يستطيع الجواب عنها سوى العرب انفسهم !

٩٤

لقد اجاب ابن سعود على هذه الأسئلة جواباً أملته عليه ثقته بالمستقبل ، وهي إحدى خصائصه التي تتميز بها شخصيته .

ففي مساء يوم من أيام تشرين الثاني عام ١٩٥٠ ، كان سيد الجزيرة العربية يستقبل في قصره بالرياض ، بعثة من الامم المتحدة جاءت تتشاور معه بشأن القضية الفلسطينية وقدم لضيوفه عشاءً خفيفاً على سطح المتصر حيث يمتد النظر بعيداً ليجتلي رمال نجد وكثبانها المذهبة .

لقد كان الغسق رائعاً وكانت ذرى أشجار النخيل تتمايل مع النسيم العليل فيما كان النهار يحترق صوب الغرب .

وعندما هبط الليل ، والليل يهبط سريعاً في هذه الارحاء ، اضيئت المصابيح الكهربائية دفعة واحدة على طول الطريق الفسيح الذي يصل بين العاصمة والقصر فكانت أشبه بعقد من النور المتأليء . ولم يتمكن احد أعضاء البعثة أمام هذا المنظر الاخاذ اخفاء دهشته ، انفتحت الملك نحوه وقال له : « هذا الذي تراه ، إن هو إلا عقود اللؤلؤ للجزيرة العربية في ثوبها الزاهي الجديد . »

وهنا أشار الملك عبد العزيز الى حلقة من الفتية يعتمرون الكوفية والعقال وقد التزموا جانباً من المجلس مع نفر من ضباط الاخوان ، وقال :

- ولكن هذه الآليء ليست هي اثن ما أملكه من جواهر . إن أغلى ما أملك هم ابنائي . . . لقد عشت حياة حافلة ، وها إنني اليوم في مرحلة الشيخوخة ، وسوف لن يتأخر طويلاً زمن الراحة ، وسأغض عيني مطمئناً . .

إن ابنائي سيعكفون من بعدي على إكمال رسالتي وإذا منحهم الله العون الذي منحني فانهم سيرسمون يوماً الطريق لأكثر من مائة مليون من المؤمنين .

واعترض مندوب الامم المتحدة فقال :

- ألا تعتقدون جلالتم انكم في هذا تغالون في التفاؤل ؟ ان العالم يعيش على

فوهة البركان ، ولا يعلم أحد اي مصير يترقب الجزيرة العربية اذا نشبت حرب جديدة !

ففكر ابن سعود لحظة ثم اجاب ببساطة .

— لا حول ولا قوة إلا بالله ، ولا ادعي انني اعلم بالغيب ، ولكن الله جل جلاله ، قد غمر هذه الجزيرة بفيض من خيراته وسيمن عليها بالمزيد إذا قدر انها تستحق فضله وإحسانه .

45

انتقل ابن سعود الى رحمة الله في التاسع من تشرين الثاني سنة ١٩٥٣ في الساعة التاسعة والدقيقة الاربعين صباحاً اثر نوبة صدرية في قصره بالطائف .

واذيع النعي من محطة اذاعة المدينة المقدسة ، فالتقطته اذاعة دمشق ، وما هي الا ساعات حتى كان النبا يتردد في كل انحاء العالم .

واصيب اهل نجد والحجاز وحائل ولاحساء بنذهول عظيم سمعوا بان القلب الاشد قوة في الجزيرة العربية قد كف عن الحفقات .. وذا كل شيء يتوقف دفعة واحدة : عمال المصافي توقفوا عن العمل ، عمال الموانئ القوا بما يحملون على الرصيف ، اشدوا ترجلوا عن ركائبهم ، الجنود في ثكناتهم القوا ببنادقهم على الارض ، الطائرات والقطارات والشاحنات تجمدت في مكانها .. واتجه ستة ملايين عربي في الجزيرة نحو مكة المكرمة وخرروا ساجدين .

وشيعت صحف العالم المعامل الراحل بعبارات تفيض اعجاباً بشخصية الراحل العظيم واحتراماً لمزاياه فكتبت جريدة «الديلي اكسبريس» اللندنية

تقول : « لقد مات ابن سعود ... لقد كان اشد صلابة واكثر مرونة واسعد  
حظاً من جميع زعماء العرب في هذا العصر . لقد اسس مملكة على مضض من  
السياسة البريطانية واستثمر حقوله البترولية بالتعاون مع الاميركيين ، وكلاهما  
كان يحترم خصائصه الفذة . »

وكتب « جان بول بونيه » في مجلة « باري ماتش » فقال :

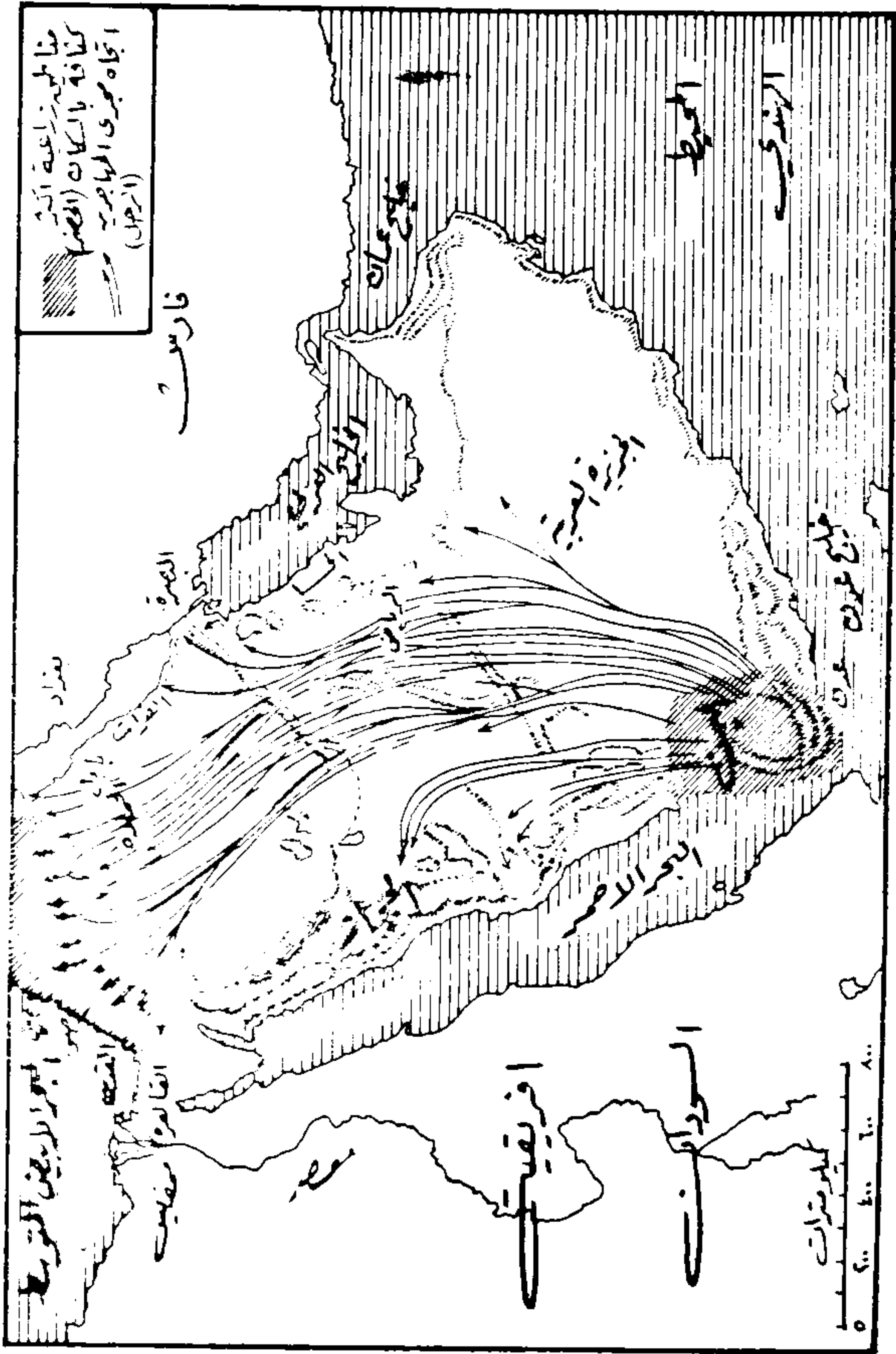
« لقد خلف ابن سعود ، الذي لقبه الانكليز بنابليون الجزيرة العربية ،  
مملكة شاسعة تعدل مساحتها نصف مساحة اوروبا ، وبلداً يعتبر الثالث في  
العالم في انتاج البترول ، وكان في الوقت نفسه الزعيم المرموق في العالم العربي .  
نصف قرن من الجولات الخيالية ... ملحمة مدوية لم تخطر اعاجيبها ابدأ في  
بال كتاب قصص الفروسية ... لقد استطاع ابن سعود في خضم القرن العشرين  
ان يفجر من غمار الرمال امة جديدة . »

وكتب « رينيه برانيلك » في « اللوستراسيون » :

« ان تاريخ هذا البطل - الذي بدأ حياته اميراً بدون امارة ، والذي تنحني له  
اليوم الجزيرة العربية بأسرها - هو احدى الملاحم المذهلة في تاريخنا المعاصر . »

وكتب « غياركه » في « ريغارول » :

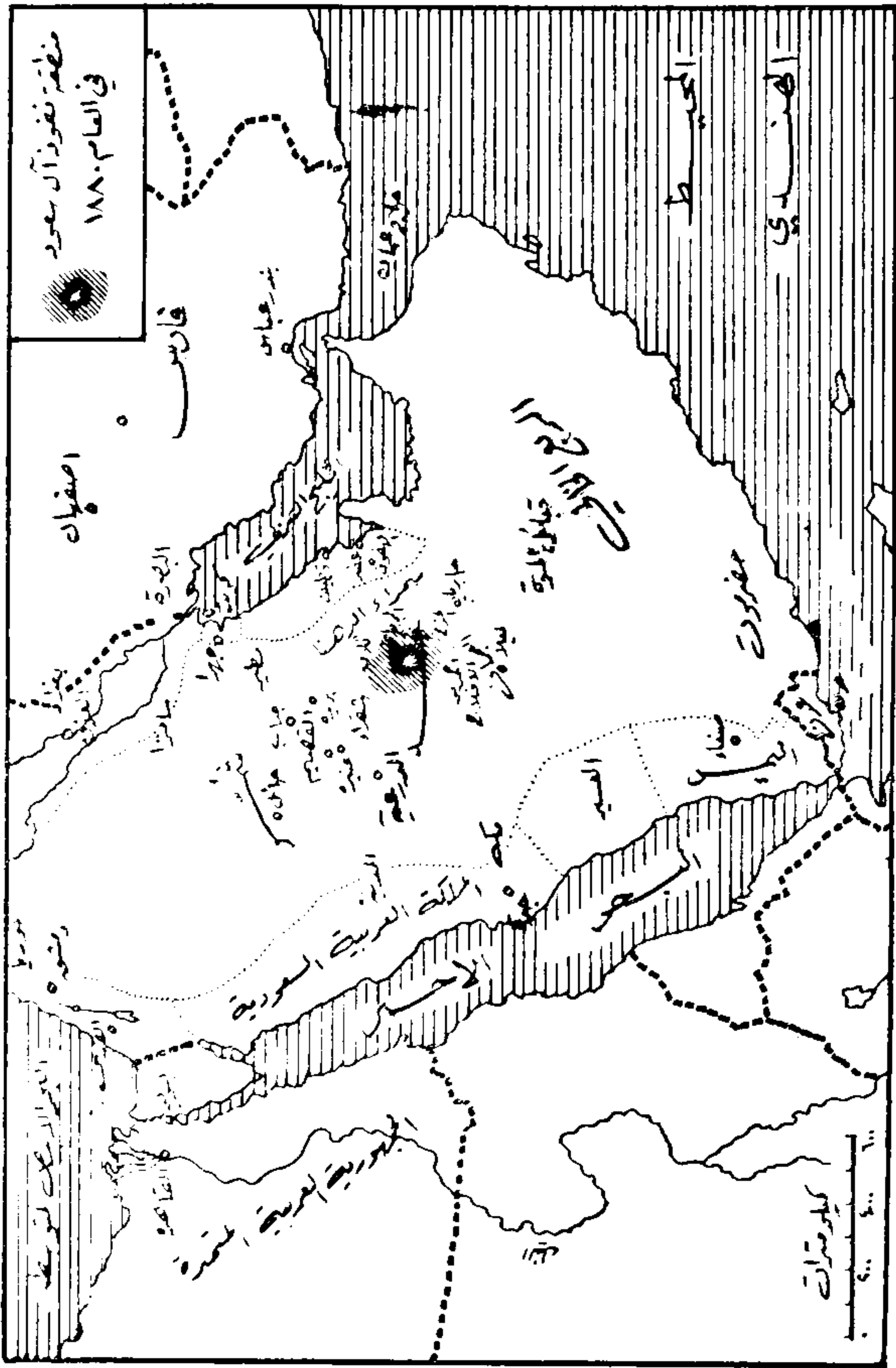
« لقد انتهى ملك الصحراء ! لقد مات ابن سعود واختفى بموته وجه من  
ابرز الوجوه في العالم العربي . لقد دخل في عالم الاساطير حين كان ما يزال في قيد  
الحياة ، اما الآن فسيبقى ظله يحوم ويحوم على دروب الصحراء .. والى امد  
طويل . »



مجري الهجرات البشرية عبر الجزيرة العربية







الجزيرة العربية قبل سنة ١٩١٤

















# فہرست

صفحة

۷

مقدمة المترجم

## الجزء الأول

العرب بين الحركة والجمود

۵۰۰ قبل الميلاد - ۱۸۸۰

۱۳

جمود الصحراء . حملة اليوس غالوس ( ۲۴ قبل الميلاد )

۱۷

سبل الهجرة البشرية

۲۰

تكوين المحاربين

۲۲

خلق الشعراء

۲۳

النبي محمد والفتح الاسلامي

۲۴

الامبراطورية العربية

۲۵

عودة الجزيرة العربية الى الجمود

۲۶

وصول الصليبيين وحملة « رونودوشاتيون »

۲۷

وصول الاتراك وحملة الانكشارية

۲۹

ارستقراطية الصحراء

۳۰

محمد بن عبد الوهاب وسعود الكبير ( ۱۶۹۶ - ۱۸۷۴ )

۳۴

نابليون والشرق . بعثة « لاسكاريس » ( ۱۸۰۴ - ۱۸۱۲ )

۳۶

انهيار الامبراطورية السعودية ( ۱۸۱۲ - ۱۸۱۸ )

۳۸

عودة جديدة الى الجمود ( ۱۸۱۸ - ۱۸۸۰ )

## الجزء الثاني

### فتح نجد

( ١٨٨٠ - ١٩٠٥ )

- ٤٣ مولد وشباب عبد العزيز  
٤٧ استيلاء آل الرشيد على نجد  
٥٠ مذبح في قصر الرياض وهجرة الامام عبد الرحمن  
٥٣ الانسحاب الأول الى الربع الخالي . والرؤيا في الصحراء  
٥٨ عبد العزيز في الكويت  
٦٢ انقلاب مبارك  
٦٣ هجوم وهزيمة مبارك - تدخل الانكليز  
٦٥ تنازع الدول حول الخليج العربي  
٧٢ قسم « جبرين »  
٧٣ الاقامة الثانية في الربع الخالي  
٧٦ ضربة عبد العزيز في الرياض  
٨١ عبد العزيز يستولي على عاصمته  
٨٣ عبد العزيز امير الرياض  
٨٥ هجوم الرشيد المعاكس  
٨٧ فتح القصيم واعدام عبيد  
٨٩ تدخل الاتراك وهزيمة عبد العزيز في البكيرية  
٩٢ انتصار عبد العزيز في « شنانة » واندحار الاتراك  
٩٣ مفاوضات مع مخلص باشا  
٩٧ جلاء الاتراك عن اواسط الجزيرة العربية  
٩٨ موت ابن الرشيد  
٩٩ عبد العزيز ملك نجد

الجزء الثالث  
فتح الجزيرة العربية  
( ١٩٠٥ - ١٩٢٨ )

- ١٠٤ سحق ثورة الشمال  
١٠٦ سحق ثورة الجنوب واعدام المحرضين  
١٠٩ استيلاء جماعة « تركيا الفتاة » على السلطة وتطور الوضع الدولي  
١١٢ فتح الاحساء  
١١٥ ابن سعود والثوار السوريون « انشاء الاخوان »  
١١٨ تأسيس الاخوان . رواد الاورطاونية  
١٢٨ بدء الحرب العالمية الاولى . زيارة ابن سعود لمراك  
١٣٢ موت شكبير . اتفاقية « عقير »  
١٣٤ انقلاب الحسين  
١٣٧ توسط سانت جون فيلي  
١٣٩ حوادث خرمة . « المكتب العربي » ضد « المكتب الهندي »  
١٤٤ تحول محمد بن الرشيد  
١٤٦ فتنه الاخوان . مؤتمر شقرا  
١٤٩ فتح حائل . ابن سعود سلطان نجد وملحقاته  
١٥١ مؤتمر القاهرة الاول  
١٥٢ انتصار « تربة » وحوول الانكليز دون تقدم الاخوان  
١٥٤ دخول « النبي » الى دمشق . نهاية الحرب العالمية الاولى  
١٥٦ مؤتمر باريس . لورنس والاتحاد العربي  
١٦٠ لورنس يخوض معركة الاخيرة . مقابلة لورنس - فيلي  
١٦٢ استبعاد ابن سعود من الاتحاد العربي  
١٦٥ مؤتمر القاهرة الثاني . مجزرة الجوف وطريف

- ١٦٧ سنوات ترقب . افول نجم الحسين  
 ١٧٠ انتصار الطائف ، فرار الحسين ، فتح مكة  
 ١٧٤ دخول ابن سعود اول مرة الى مكة والطواف بالكعبة  
 ١٧٧ ابن سعود ومندوبو العالم الاسلامي  
 ١٧٩ مشاعر ابن سعود الدينية  
 ١٨١ مؤتمر « بحرة »  
 ١٨٤ الاستيلاء على جدة والمدينة . استسلام وفرار علي  
 ١٨٦ دخول ابن سعود للمرة الثانية الى مكة . ابن سعود ملك الحجاز  
 ١٨٧ ياس وموت لورنس  
 ١٨٩ فتح عسير  
 ١٩٠ مفاوضة انكليزية - عربية عامة  
 ١٩١ المؤتمر العام للجزيرة العربية

الجزء الرابع  
 المملكة العربية السعودية  
 ( ١٩٢٨ - ١٩٤٥ )

- ١٩٩ اول مؤتمر اسلامي في مكة  
 ٢٠٢ حادث الحمل  
 ٢٠٥ الاخوان يفرضون النظام على الحجاز  
 ٢٠٨ ادارة الديار المقدسة  
 ٢١٠ الدولة السعودية وحكم الجزيرة العربية  
 ٢١٢ الاسرة المالكة  
 ٢١٤ اعادة تنظيم وتطوير « الاخوان » تطويراً حديثاً  
 ٢١٨ اكتشاف الماء  
 ٢٢٠ مستقبل الزراعة

٢٢٢	سيارات ، طائرات ، هاتف ، لاسلكي
٢٢٥	اكتشاف البترول
٢٣٠	تأسيس « ارامكو »
٢٣٢	خطة تطوير العربية السعودية
٢٣٥	الحرب العالمية الثانية - ثورة العراق
٢٣٧	« حرب الثلاثين يوماً »
٢٤٢	تدخل بريطانيا في سورية ويران
٢٤٥	الجديد في الخليج العربي
٢٤٧	قانون الاعارة والتأجير من الولايات المتحدة للاتحاد السوفياتي
٢٥٢	العلاقات السعودية - البريطانية
٢٥٣	تدخل روزفلت واجتماع « كوينسي »

### الجزء الخامس

#### المملكة العربية السعودية في مضمار التقدم

( ١٩٤٥ - ١٩٥٣ )

٢٦٦	التجمع البتروني في العام ١٩٤٦
٢٦٧	تطور « ارامكو »
٢٦٩	انشاء شبكات طرق حديدية وجوية
٢٧١	حذائق وقصور . تقشف الملك
٢٧٢	سياسة ارامكو الاجتماعية
٢٧٤	النفط السعودي في نجدة الولايات المتحدة
٢٧٦	مطامع الروس في الخليج العربي
٢٧٨	بتروال الاسترليني في مواجهة بتروال الدولار
٢٨٢	ظهور حسني الزعيم
٢٨٤	بتروال الدولار يفوز بالجولة الاولى

- ٢٨٤ حالة الطوارئ في مقر رئاسة الحكومة البريطانية
- ٢٨٥ الجامعة العربية
- ٢٨٦ مقتل حسني الزعيم
- ٢٨٦ بترول الاسترليني يفوز بالجولة الثانية
- ٢٨٧ مشروع الهلال الخصيب
- ٢٨٧ انقلاب اديب الشيشكلي
- ٢٨٨ انتصار بترول الدولار - الانابيب عبر البلاد العربية
- ٢٨٩ بترول الدولار يفوز بالجولة الاخيرة
- ٢٩٣ الاحداث في الشرق الاوسط بين ( ١٩٥١ - ١٩٥٣ )
- ٢٩٥ الجزيرة العربية امام الحضارة الغربية
- ٢٩٩ الموجات الثلاث
- ٣٠٠ ابناء الملك عبد العزيز
- ٣٠١ وفاة الملك عبد العزيز
- ٣٠٣ خارطة مجرى الهجرات البشرية عبر الجزيرة العربية
- ٣٠٥ خارطة الجزيرة العربية قبل سنة ١٩١٤
- ٣٠٧ خارطة الجزيرة العربية قبل سنة ١٩١٨
- ٢٠٩ خارطة امتيازات مناطق البترول وخطوط الانابيب عبر البلاد العربية
- ٣١١ خارطة الابار وخط الانابيب في الاحساء والبحرين

423

# دار الكاتب العربي

للألياف والترجمة والنشر

بيروت - بتاية عمر الخيام - ص.ب ٣١٥٧

هاتف ٢٩١١١٨ - ٢٩٠٥٠٦ - ٢٩٠٥٠٧

ق.ل.

- ١٠٠٠ الفنون الأدبية واعلامها في النهضة العربية الحديثة ، لأنيس المقدسي
- ٧٥٠ رائد الثقافة العامة ، ايسر الوسائل الفعالة في التثقيف الذاتي ،  
لهبرشبرغ ترجمة : نجم ، حجاب ، ياغي ، لبان ، عزام
- ٨٧٥ محاضرات في تاريخ الفكر الفلسفي ، لارثر لفجوي ترجمة الدكتور فخري
- ٤٥٠ الابطال ، لكارليل
- ٥٠٠ شهيرات النساء في العالم الاسلامي ، لقدرية حسين
- ٤٧٥ ادباء السجون ، لعبد العزيز الحلفي
- ٦٠٠ جمهورية افلاطون ، ترجمة حنا خباز مع مقدمة لفؤاد صروف
- ٦٠٠ اسرار الثورة العربية الكبرى ، لامين سعيد
- ٦٠٠ في مواكب النور ، لانيس المقدسي
- ٦٥٠ اكتشاف جزيرة العرب ، لجاكلين بيرين ، ترجمة قدرى قلمجي
- ٣٥٠ المعارك الفاصلة في التاريخ ، لحنا خباز
- ٢٥٠ سلطان في عمان ، لجيمس موريس
- ٢٥٠ طاغور عبقرية اهتمت الشرق والغرب ، ترجمة حسني فريز
- ٣٠٠ الانسان الحديث ، دراسة في مزاجه وقضاياه
- ٦٥٠ تاريخ العرب العسكري ، لحمودة الدرة
- ٣٢٥ تاريخ الفكر العربي ، لاسماعيل مظهر
- ٣٥٠ آفاق الفن ، لاليوت ، ترجمة جبرا ابراهيم جبرا
- ٥٠٠ مشاهير رجال العلم ، لبولتون ترجمة الدكتور حجاب
- ٣٠٠ روائع التراجم في ادب الغرب لبروكس ترجمة الدكتور السمره



كانت تقوده نفس جامحة ، و  
حظ يعتبره عبدالعزيز دليلاً على  
نبله ، فمضى بها لفتح مملكته على  
أربعة رجال ذوي بأس وتصميم

والصبر ، إن وءلاندفاع الحيلة  
بالقوة ترة وبخيلة ترة اخرى ،  
فجرات مفاجئة كالصاعقة ، و  
من زنايت الطويل .. هـك  
يحد هذا تبدأ حتى درك ليحبر  
وشو سي ، الخنيص العربي .

هو هو بعد نصف قرن  
خيار وصاحب هجر تصويرية  
تدبرني على رأس ممتكفرا لغة  
من رمال صحراء رتابة

ن هذه ملحمة البدوية  
تراهية لالوان ، رغم نراه  
الذرف العشرين ، تجمع بين  
القصة العربية وسحر  
البصولة .

## هذا الكتاب

ما تزال سيرة عبد العزيز آل سعود معينا زاخرا يستمد منه الباحثون  
انبال المعاني والمثل وترسم الاقلام اروع صور النهضة فسي تاريخ امنا  
العربية .

فمن مدينة الرياض الضائعة في رمال الصحراء ، كانت الاقدار السعيدة  
تهيء للبلاد العربية جيلا من المجد وتاريخا من العظمة ، فسي تجاليد فتى  
مقدام خلق لرسالة كريمة ما لبثت ان عم خيرها وسطع نورها في الافاق ،  
ومن تلك المدينة المنسية التي سرعان ما تحولت الى عاصمة زاهرة للعروبة  
والاسلام ، هبط الى الجزيرة العربية محيي نهضتها وباعث مجدها . . فاي  
فتى كان ، واية عزيمة كانت عزيمته ، واية نفس جبارة كانت تلك النفس  
التي استطاعت ان تخلق لنفسها من العدم المجد الخالد ، وتبعث في الامة  
العربية تاريخها التالد .

لقد كتب الكثيرون في الشرق والغرب ، سيرة اسد الجزيرة ، ولكن  
احدا قبل بنوا ميشان لم يستطع ان ينفذ الى سر العظمة والبطولة فسي  
شخصيته ، واذا كان مقياس الرجولة كما يرى داهية فرنسا كليمنصو هو ان  
يشق المرء طريقه بين الرجال ، فان ابن سعود قد شق طريقه - على حد  
تعبير المؤلف - بين الممالك والامبراطوريات .

وقد وفق الكاتب الفرنسي الكبير بنواميشان ببراعته المعروفة في تصوير  
عبقرية العاهل الكبير في نواحيها المتعددة ، فتناوله مناقلا باسلا وانقا من  
نفسه مؤمنا برسالته ، وقائدا بارعا احكم فن القتال بالالهام والبصيرة وابلى  
بلاء الابطال الفاوير ، وسياسيا محنكا يعزم على الامر الفاصل باناة وروية  
ومداورة ناجحة ، ومصلحا فذا يدفع الفوضى والاختلال بالتدبير الحازم  
والتوجيه الحكيم ، وحاكما رحيمًا متواضعا يحكم بالعدل ويتسامى عن  
الظلم والاستبداد .

على هذا النحو الرائع عرض بنواميشان مناقب عبد العزيز آل سعود  
وتاريخ الدولة السعودية بل تاريخ البلاد العربية في نهضتها الحديثة التي  
اتصلت بحياة العاهل السعودي باقوى الوشائج وامتسن الاسباب ،  
فجاء كتاب فسي اوسع وامتع ما كتب في هذا الموضوع حتى الان .

التمن . . . ق . ل . او ما يعادلها  
في المملكة العربية السعودية عشرة ريالات

